الأدب العربي الحديث

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الرابع

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد إمبابي وأخوه محمد
٩ ش الصنادقية . الأزهر . القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة الجــزء الرابــع والأخـــير

هــذا هو الجزء الرابع من كتــابنا « الأدب العربى الحــديث » وهو آخــ أجزاء هــذه الموسوعة التى كتبتها عن الأدب فى مختلف أنحاء الوطن العربى وتياراته ومدارسه ومذاهبه وأعلامه •

وليس بى حاجة الى القول بأن هذا الكتاب هو حقــاً أكبر موسوعة ظهرت عن الأب العــربى الحــديث •••• وانى لأرجــو أن يجعــل الله عز وجل هــذا العمل خالصــاً لوجهه الــكريم ،

وماتوفيقى الا بالله ،،،،،

المؤلف

النـــــــثر الأدبي

النـــثر الأدبى

— ١ —

١ — ظل النثر إلى عصر إسماعيل يوسف فى قيود المحسنات البديعة التى ورثها من عصور الضعف ، بل زاد ضعفا وركاكة بما دخله من ألفاظ تركية ، وأوربية وعامية ، ذلك إلى ضـــيق الأغراض والمعانى والأخيلة ، وكان النثر لايعدو بعض الرسائل الديوانية والإخوانية .

فلما قامت النهضة الأدبية فى عصر إسماعيل ، بترجمـــة الـكتب من الثقافات الأوربية ، ونشر التراث العربى وإحيائه وطبع أمهات روائعه . وبانتشار التعليم فى مصر ، وبحاجة الألسنة إلى الإبانة عن أغراضها فى مختلف المناسبات الدينية والأدبية والوطنية ، نهضت الـكتابة من كبوتها . واستيقظت من غفوتها ، وتخلت من أكثر القيود التى عاقت تقـــدمها ، وارتفعت معانيها ورقت أساليبها ، ودقت أخيلتها ، وهجرت المقدمات والاستطراد ، وتعددت موضوعاتها، فشملت الأغراض الديوانية ،وكان من أعلام هذا الجانب عبدالله باشا فـكرى . . كما شملت النثر الأدبى ... ويدخل فى النثر الأدبى : القصص والروايات ومقالات الوصف والتراجم التحليلية ومقالات النقد الأدبى . ومن أشهر الـكتاب جورجى زيدان والمويلحى والمنفلوطى ، وشملت الـكتابة كذلك نثر الصحف ومن أشهر أعلامه الشيخ على يوسف ، والنثر الاجتماعى ومن أعلامه محمد عبده وجاويش وفتحى زغلول .

وكان لازدهار النثر الفنى عوامل كثيرة من بينها : العناية بدراسة اللغة العربية وآدابها فى الأزهر والمدارس والمعاهد والجامعات ، وإحياء مصادر الأدب العربى القديم وطبع أحسن مؤلفات الأدباء المعاصرين ، وظهور

المجلات الأدبية ، وعناية الصحف اليومية بالأدب ، وإنشاء دار الكتب المصرية ، وكثرة ما ترجم من آداب الغرب إلى العربية ، وتعدد الثورات الشعبية التي احتاجت للخطابة ، وقيام الصحف مما دعا إلى نهضة الكتابة .

— ٢ —

والنثر الفني أو الكتابة الفنية هو هذه الرسائل البليغة التي تصور مشاعر كاتبها وعواطفه وأحاسيسه تصويرا صادقا جميلا ممتعا مؤثرا ، والتي يبعث بها إلى أصدقائه في مدح أو عتاب أو استعطاف أو تهنئة أو تعزية أو شكر ، وما إلى ذلك من وصف كل ما تجيش به النفس ، ويضطرم به الشعور من أمل أو ألم وسعادة أو شقاء وفرح أو حزن . . فهي تطلق مثلا على كل قطعة فنية بليغة في الوصف والاجتماع والوطنية وما شابهها .

ومهما كان فإن الكتابة الفنية التي كانت تحتضر في أول عصر النهضة نجدها تأخذ في الحياة والازدهار ، وكان التراث العربي القديم الذي بدأت المطابع بنشره قوى التأثير في أسلوب الكتابة الفنية .

وباطلاع الأدباء على ما عرب من الكتب والقصص والمقالات والبحوث وجدوا ألوانا شتى من فنون القول ، وسعت أمامهم آفاقه ونبهت خواطرهم إلى كثير من أغراضه ، فجربوا أقلامهم في ميادينها بدافع من حب التجديد .

وكانت الكتب الادبية القديمة : كالأغاني ومقدمة ابن خلدون والبيان والتبيين ، والنماذج العليا لكتاب العصر وشعرائه تمدهم بروائع البيان ، وقصارى جهدهم أن يحاكوا هؤلاء الأدباء والنوابغ .

ولكن ما عتموا بعد أن اطلعوا على الأدب الأوربي وما يكتبه كتابه ، وينظمه شعراؤه ، وبعد معاناة الترجمة عنه ، أن عدلوا عن الإغراق في التقليد ، وحاول كل منهم أن يكون له شخصية مستقلة .

وكان من مظاهر هـذا العدول ، أن كلامهم لم يعد حكما محشودة ، ولا أمثالا ملفقة ، ولا فقاراً متنافرة ، بل مقالات مسبوكة العبارة محبوكة الأطراف ، أو قصائد الصلة بين أبياتها وثيقة .

وأصبح الأسلوب النثرى والشعرى سهلا منطلقا ، لا كلفة فيه ولا قيود من طباق أو جناس أو سجع ، أو استعارة أو تشبيه ، أو غير ذلك . إلا ماسنح عرضا ، واقتضاه سياق الحديث .

ولانتشار التعليم والثقافة ، وقراءة الأدب القديم . أثر لا ينكر فى هذه الحرية التى استردتها الأساليب . وللترجمة فى ذلك مشاركة جليلة . لأنها قدمت نماذج للأساليب الحرة ، فاقتدى بها الأدباء .

وقد عف الأدباء عن المقدمات المطولة ، وعافوا كثيرا من ألقاب التعظيم وألفاظ الدعاء وعبارات البدء والختام ، إلى غير ذلك ، حذرا من اللغو والحشو .

ومن آثار الترجمة توجه الأدباء إلى الاهتمام بالمعنى أولا ، فيصرفون إليه جل العناية ، ثم يؤدى بعبارات وألفاظ تفهم فى يسر وسهولة وسرعة ، بعيدة عن مبتذل العامة ، وعن الحشو والتطويل ، من المعانى والتصورات الجديدة ، فخلبت ألبابهم وشغلت فراغ عقولهم ، وأذهلت أقلامهم عن أدب الألفاظ . وبذلك أصبح للمعانى المنزلة الأولى .

ولم تقتصر العناية على تحديد المعنى وإبرازه فى العبارة ، أو البيت ، بل امتدت إلى المقالة والقصيدة ، فاعتبرت كل منهما وحدة لا تتجزأ ، يراعى فى إيراد جزئياتها ، الترتيب والنظام ، وحسن المقدمة ودقة النتيجة ، وجمال العرض ، وقوة الربط ، وسوق الحجة والقياس ، وقد تأثر النثر بذلك أكثر من الشعر .

ولقد أصبح لأدبائنا مدد لا ينضب معينه ، ولا تجف عيونه ، فما يقدم إليهم من الأدب المعرب ، ومايطلعون عليه من الآداب الأجنبية ، نقل إليهم كثيرا مما توحى به وتلهمه البيئة الأوربيه ، من صور رائعة وأخيلة بديعة لاعهد لأدباء العربية بها . فحاولوا أن يطبعوا أنفسهم على غراره ، ويلجوا طريقه ، وينهجوا نهجه . وبذلك اتسع أمامهم ميدان الخيال ، وروعة التصور ، وتلاقح في أطواء نفوسهم الخيال الأفرنجي بالخيال العربي ، وموحيات البيئة الغربية بموحيات البيئة الشرقية ، فأخذ يتولد في ضمائرهم نزعات أدبية جديدة تحتاج إلى مزيد من النضج وبدت مظاهرها في القصـة والتمثيلية ، والنقد التحليلي ، والمقالات الوصفية ، وفي الشعر السياسي والاجتماعي والقصصي والتمثيلي والوصفي إلى غير ذلك . وأخذنا ننظر إلى الشعر نظرة جديدة باعتباره حاجة نفسية للأمة ، غير أن هذه النظرة لا تزال في تطور . .

وقد وجدنا جمهرة الـكتاب تعني بالمعنى ، وتنصرف عن المحسنات البديعية ، وقد اختلفت نزعات الـكتاب واتجاهاتهم الفنية : فهناك طائفة سارت على النهج القديم في الـكتابة وهؤلاء ممن اطلعوا على الثقافة الأدبية القديمة وحدها ، وهناك طائفة أخرى وجهت عنايتها إلى الأساليب الجديدة والمعانى الطريفة دون عنايتها باللفظ والأسلوب وهؤلاء أكثرهم من الذين تثقفوا بالثقافة الأدبية الغربية ، وطائفة ثالثة جمعت بين الميزتين ، ونالت كلتا الحسنيين .

ومن ثم وجدنا المويلحيين ينهجان نهج البديع ، ووجدنا محمد عبده وعلى يوسف يتأثران خطا ابن خلدون ، ووجدنا مصطفى كامل وأصحاب المقتطف يسيرون على المناهج الأوربية في الـكتابة ، وبمرور الزمن وتبادل الثقافة تقاربت هذه المناهج.. ولا شك في أن الصحافة كانت منتدى للـكتابة الفنية

وكانت من عوامل ازدهارها ، وإذا كانت الملكات الإنشائية إنما تحصل من النظر فى كلام البلغاء ، فقد تم فى هذا العهد أسباب تلك الملكات لكل قارئ فى العربية ، لأن ماتخرجه المطابع كل يوم من عشرات الصحف ، والمجلات ، وماتنشره على الناس من نفائس الأدب القديم مع تسهيل تناوله بالشرح والضبط ، جعل نسبة القادرين على الإنشاء كثيرة ، لم يظفر بها عصر من العصور السابقة ، كما أن الحرص على الوقت ، وضرورة الإنتاج السريع فى عمل الصحف ، جعل من أدبائنا أمثلة نادرة فى موافاة الملكة ، وكثرة المحصول من الكتابة الفنية .

— ٣ —

والنقاد فى هذا العصر يقسمون النثر الفنى إلى أنواع ثلاثة لكل منها صورته ومميزاته وهى : النثر الاجتماعى ، ونثر الصحافة ، والنثر الأدبى .

١ — أما النثر الاجتماعى فهو : الذى يطلب به تقرير حالة اجتماعية أو محاولة إصلاح ناحية من نواحى الحياة العامة وهذا النوع من النثر ينبغى له مع صحة العبارة البعد عن الزخرف ووضوح العبارة وترك المبالغات وسلامة الحجج وإجراؤها على حكم المنطق الصحيح لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية فيه اللهم إلا فى المقامات التى تستدعى استفزاز الجمهرة وتحمسها للاقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام . على أن يكون ذلك بقـــدر ، فإن الأغراض الاجتماعيه إنما تجرى فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال . ومما يتصل بالنثر الاجتماعى : الكتابه الدينية فى الإصلاح العام .

٢ — أما نثر الصحافة ، فقد عرفت أن الصحف تنقسم إلى جرائد سياسية ومجلات علمية أو فنية . فنثر الجرائد السياسية يجب أن يكون واضحاً

سهلا بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه . لأن هذه الصحف إنما تخاطب العامة كما تخاطب الخاصة . وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين . هذا إلى أن قراءها إنما يبغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعباراتها والعمق فى معانيها ، مما يقتضى القارىء كد الذهن وإرهاف الفكر .

وإذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية لما عرفت من أنه يتكىء فى الغالب ، على القضايا العامية ، وعلى الحقائق الواقعة . فإن النثر الصحفى لايلتزم فيه ذلك . بل إن أكثر اعتماده فى هذا الباب على الأدلة الخطابية ، لأنها هى الأنفذ فى إقناع الجماهير من جهة ، ولأن النزعات السياسية تقوم فى الغالب ، على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية ، أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

أما نثر المجلات العلمية والفنية . ويلحق بها الأبواب التى تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها والإيغال فى معانيها ، تحقيقا للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب . ولأن هذه الصحف لايقبل على قراءتها إلا المتعلمون .

٣ ـ وهناك لون من النثر هو النثر الأدبى وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ ، والتأنق فى النظم ، حتى يخرج الكلام مشرقا نيرا ، لطيف الموقع فى النفوس ، حلو النبرة فى الآذان ، لأن الصناعة اللفظية عنصر فيه ذو خطر كبير ، فهو أدنى ألوان النثر إلى الشعر ، ولهذا لايتنكر فيه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء . وبحيث لايستكره على النظم استكراها ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل إن خيره ماجاء عفوا ، وما استشرف له الكلام استشرافا .

ومن فنون النثر التى أدخلتها الحضارة الغربية الحديثة على اللغة العربية:

فن القصة وفن المسرحية وفن الترجمة الذاتية ، وفن المقالة ... وكتاب هـذا العصر كثيرون ولهم نزعات مختلفة ومن أشهرهم : أحمد فارس الشدياق (١٢٥٠ هـ) ، وعبد الله باشا فكرى المتوفى (١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩م) والسيد عبد الله نديم (١٨٩٦ م) والشيخ محمد عبده المتوفى (١٣٢٣ هـ : ١٩٠٥) ، وإبراهيم بك المويلحى المتوفى (١٣٢٣ هـ : ١٩٠٦ م) وقاسم أمين المتوفى (١٣١٦هـ - ١٩٠٨م) ، والشيخ على يوسف (١٢٣١ هـ - ١٩١٣م) ، والشيخ حمزة فتح الله (١٩١٨ م) والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى (١٩٢٤) ، وحفنى ناصف (١٩١٩ م) ، والشيخ عبد العزيز جاويش (١٩٢٩ م) ، ومحمد المويلحى (١٩٣٠ م) ، والسيد توفيق البكرى (١٩٣٢) .

و من أشهر كتاب الصحافة : عبدالقادر حمزة ، وحافظ عوض وتوفيق دياب وأنطون الجميل ، ومحمد حسين هيكل ، وسواهم .

ومن الكتاب العلماء : لطفى السيد ، ومنصور فهمى وأمين الخولى وعلى مصطفى مشرفة وعبد الحميد بدوى ومحمد رضا الشبيبى العراق وسواهم .

على أنه لما أمتدت[1] ألسنة المستعمرين والمبشرين بالطعن فى مصر والشرق والإسلام نهض جمال الدين لأرنست رينان ، ومحمد عبده لهانوتو. وقاسم أمين لدوق داركور ، فدافعوا بالحجج الملزمة ما ألفقوا من أباطيل وماشوهوا من حقائق . ثم حملتهم تلك الحملة الاستعمارية على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ بتصحيح الزائف وتقويم المعوج ، فمضى كل مصلح يتحرى وجوه الإصلاح والتحرير ، فى الوطن ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى التعليم ، وعلى حسب استعداد عقله وطبيعة

---

(١) من مقال « كيف مهد الأدب للثورة » - وحى الرسالة للزيات .

نفسه ، وكانت الأهرام والمؤيد ميدانا لهذه الثورة الأدبية على فساد الأخلاق وسوء العادات وانتشار الأمية وشيوع الجهالة وخمود الحواس ، فظهر في تلك الحقبة كتاب « الإسلام والنصرانية » للامام محمد عبده ، وكتابا « تحرير المرأة » و « أسباب ونتائج » لقاسم أمين .

ثم نقل أحمد فتحي زغلول في سنة ١٨٩٩ كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » للكاتب الاجتماعي الفرنسي « ادمون ديمولان » فصادف هذا الكتاب القيم حاجة في نفوس الأدباء فقرأوه ودرسوه ووازنوا بين مثله الأعلى ومثلنا في التربية والأخلاق والثقافة والحضارة والنظام ، فتمردت العقول على الجمود ، وهفت النفوس إلى الرقي ، وتحركت الهمم للاصلاح .

وهبت طائفة من الكتاب الثائرين يبحثون مشكلات الأمة ويطبون لأدواء المجتمع ، فظهر في سنة ١٩٠٢ كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » لمحمد عمر ، عالج في أقسامه الثلاثة رذائل الأغنياء ومعايب الأوساط ونقائص الفقراء ، بلسان صادق وبيان صريح . وفي سنة ١٩٠٧ أنشأ محمد المويلحي كتابه البليغ « حديث عيسى بن هشام » وصف فيه الأخلاق المصرية والمفاسد الاجتماعية أبلغ الوصف وأصدقه ، وعلى منواله نسج حافظ إبراهيم في كتابه « ليالي سطيح » ومحمد لطفي جمعة في كتابه « ليالي الروح الحائر » .

ثم نشر مصطفى لطفي المنفلوطي نظراته الاجتماعية تباعا في المؤيد تصف الآلام وتمثل العيوب . وكان مصطفى كامل في تلك الفترة نفسها يرفع « اللواء » ويلهب الشعور الوطني بخطبه ، ويكافح النفوذ الأجنبي بمقالاته . ثم انطوى بالموت لواء مصطفى ، فاعتلى سعد المنبر ومثل كل خطيب ، ومن

هـذه الروح الإلهية المنبثة فى الخطب والمقالات والـكتب انبعثت الحيـاة فى الجذوع الميتة ، وتدفقت الحساسية فى الأجساد الهامدة ، وتألف من الآراء الخاصة رأى عام ، وتـكون من الطوائف المتفرقـة شعب مجتمـع .

ولقد كان الأدب فى الربع الأخير من القرن الماضى ناشئا ضعيفا فثار الجيش وحده مع عرابى . وكان فى الربع الأول من القرن الحاضر بالغا فنيا فثار الشعب وحده مع سعد . ثم كان فى الربع الثانى منه قويا جارفا فثار الجيش والشعب جميعا مع جمال وأنور السادات ورفاقهما ، فإذا كان من إعداد الجيش للجهاد أن تـكون له موسيقى ، فإن من إعداد الشعب للحياة أن يكون له أدب . وإذا كانت مهمة للموسيقى أن تنشط وتنعش ، فإن مهمة الأدب الحر أن يسوس ويقود .

— ٤ —

وقد بلغ النثر الفني فى عصرنا الحاضر منزلة عالية فامتاز بسهولة الأساليب ووضوحها وترتيب الأفـكار وقوتها ، والعناية بالمعنى والتحرر من قيود البديع ، والبعد عن الزخارف . . وعظمت العناية بالقصص ، وبالمسرحية وبالمقالة الصحفية والإذاعية . ومن أشهر الأدباء : هيكل ، طه حسين ، مصطفى عبد الرازق ، عبد العزيز البشرى ، الرافعى ، العقاد ، أحمد أمين ، توفيق الحـكيم ، المازنى ، الزيات ، أحمد زكى أبو شادى محمود تيمور ، مصطفى السحرتى ، وديع فلسطين ، د . عبد العزيز شرف وسواهم ، وكذلك نهضت الخطابة وتنوعت إلى خطابة سياسية وقضائية واجتماعية وأدبية .

روافد لنهضة النثر الفنى

— ١ —

قوى النثر العلمى وازدهر وتنوعت موضوعاته وذلك من أول عصر النهضة حتى اليوم ، ومن أعلامه : محمد عبده ، وعبد الله فكرى ، وجاويش ، ومحمد فريد وجدى ، وعلى مشرفة ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومحمد عرفة ، وإبراهيم الجبالى ، وسواهم .

— ٢ —

وقد فطن خاصة المتأدبين فى ذلك العهد ، إلى أن الألفاظ والصيغ الدائرة على أقلام معاصريهم من الكتاب والشعراء لا تتسع لما يجول فى نفوسهم من المعانى السامية ، والأغراض الجليلة ، وخاصة منها ما جاءت به الحضارة الحديثة ، فلم يجدوا بداً من مراجعة كتب العربية القديمة ، فإنها زاخرة بروائع الألفاظ وبارع الصيغ ، وقد أصابت من طرائف المعانى فى فنون الآداب ، مالا يكاد يحده حد أو يستقصيه حصر ، ولا شك فى أن الفضل الأعظم فى هـذا أيضاً إنمـا يرجع إلى المرحوم الشيخ حسين المرصفى ، فأقبل المتأدبون على ما جرت به أقلام المتقدمين من أعلام الكتاب ، وجعلوا يحفظون ما يستطيعون حفظه ، ويديمون ترديد أنظارهم فيها ، ويقلبون ألسنتهم فى عبارات اللغة حتى تتصل بنفوسهم وتلصق بطباعهم .

ثم راحوا يقلدونها فى اختيار اللفظ ويحاكونها فى صياغتها بل لقد يجرون تعبيراتها على أقلامهم كلما دعت دواعى المقال على أنه إذا كان بعض الأدباء قد تأثروا بهذه العوامل ، وجعلوا يدربون أقلامهم على رسم صور

جديدة من البيان ، فإن غيرهم لم يتأثر بها ولم يأبه لها بل ظل على طريقته التى احتذى فيها أساتذته وحاكى فيها من تقدموه من أهل البيان ، وأما أولئك الذين تأثروا بهذا النظر الجديد فلقد كان تأثر كل منهم على حسب بيئته ونوع ثقافته ومبلغ حظه من العلوم والفنون واطلاعه على آداب الغرب مباشرة أو بما وقع له من المترجمات فكان من أثر ذلك أن اختلفت مناهج الكتابة بين خاصة الكاتبين : فمنهم من جعل يفظم الكلام جزلا فخما محكم السبك ، متلاحم النسج متين السجع ولكنه فما يجريه من ألوان المعانى لايتجاوز فى الجملة ما كانت تجود به أفكار المتقدمين وأكثر هؤلاء ممن لم يكن لهم حظ من العلم باللغات الأجنبية وعنوا بالاطلاع على صور آدابها وتفقدها من أى سبيل ، ومنهم من جعل همه كله إلى الأساليب الجديدة والاتيان بالمعانى الطريفة معرضاً عن العناية باختيار اللفظ وإحكام النظم وانتقاء الصيغ التى يحلو بها موقع الكلام ، ومنهم من جمع بين الخصلتين وتحلى بسكلتا المزيتين فسمت معانيه ، وكرمت أغراضه ، وشرف لفظه ، وبرع نظمه وهؤلاء هم الأقلون الأندرون .

على أن جمهرة الكتاب أصبحت تشترك فى خلال : منها العناية بالمعانى وعدم استهلاكها فى سبيل تزيين اللفظ ، أو التزام السجع ، أو اصطياد النكت البديعة ونحو ذلك ، ومنها إسقاط المباهاة التى لا يسوغها العقل ، ولا يستريح إليها الذوق ، ومنها تجنب الغريب المستوحش من الألفاظ ، بحيث لا يهتدى إلى معانيها إلا بالشرح والبيان ، أو بتجشيم القارىء البحث عنها فى بطون المعجمات .

وممن تخرجهم الأزهر فى العصر الحديث : محمد عبده ، وسعد زغلول ،

والمنفلوطي والبشري والمراغي وطه حسين ، وممن تأثروا بثقافاته : شوقي وحافظ والرافعي والعقاد ، وممن خرجتهم دار العلوم : عبد العزيز جاويش ، والمهدي ، والخضري ، والإسكندري ، والجارم ، وممن خرجتهم دار المعلمين العليا : المازني وشكري وأبو حديد ، وممن خرجتهم مدرسة القضاء الشرعي : أحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأمين الخولي .

وهؤلاء جميعاً هم أشهر أعلام النهضة في العصر الحديث .

— ٣ —

استمر تأثير الصحافة في الثقافة والأدب حتى عهدنا هذا ، بل وجدت صحافة علمية منوعة ، منذ أن اهتمت كل هيئة بأن يكون لها مجلة تنشر فيها بحوثها ، وقد كان لمحمد عبده أثر كبير في نهضة الصحافة في أواخر القرن التاسع عشر ، وهو الذي تولى العمل في الوقائع المصرية وطفر بها طفرة كبيرة في أواخر القرن الماضي .

وقد تعددت أغراض الصحف إذ ذاك ، فكان منها السياسي كـ «الأهرام» و «المقطم» و «المؤيد» و «النيل» و «الوطن» و «اللواء» التي أصدرها مصطفى كامل عام ١٩٠٠ ، والعلمي الأدبي كـ «الآداب» و «الأزهر» و «الإصلاح» و «الفتى» و «الفرائد» و «البستان» و «المقتطف» و «الهلال» . والطبي كـ «الشفاء» و «الفوائد الصحية» والقانوني كـ «الحقوق» و «المحاكم» ، والزراعي كـ «مجلة الزراعة» ، ولم تقتصر الصحف على الظهور بالعاصمة ، بل كانت تصدر بالاسكندرية ، وطنطا ، وأسيوط ، وغيرها ، وكذلك الحال في الشام ، وعم ظهورها جميع العالم العربي من العراق ، والهند ، والمغرب ، بل لقد نشأت صحف عربية بالممالك الأوربية وأمريكا .

ولقد كانت البلاد السورية ترزخ تحت نير الحكم التركى ، فلم يكن الحرية الأقلام ولا لغيرها من صور الحياة حظ كبير ، فنزح كثير من أدباء تلك البلاد إلى مصر . وأنشأوا فيها الصحف ، لاتساع مجال الأقلام ، ولما عرفوا من هوى إسماعيل لمظاهر الحضارة الحديثة ، وتشجيعه للأدب ، وعطفه على رجال البيان . وأقدم تلك الصحف جريدة « الكوكب الشرق » التي أصدرها سليم حموى في الإسكندرية سنة ١٨٧٣ م . ثم صدرت فى الإسكندرية أيضا « الأهرام » للأخوين سليم وبشارة تقلا فى سنة ١٨٧٦ م ، ثم نقلت إلى القاهرة ، وما برحت تصدر بها إلى الآن . ثم صدرت « المحروسة » لصاحبها أديب إسحاق ، وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ م ، وما زالت تتعاورها الأيدى بعدها حتى أبطلت ، ثم ظهرت جريدة « المقطم » سنة ١٨٨٨ م . واستمرت حتى نهاية عام ١٩٥٢ :

ومن أهم الصحف الوطنية « المؤيد » وقد ظهرت عام ١٨٩٨ ، أصدرها المرحومان الشيخ على يوسف والشيخ أحمد ماضى . ثم خلصت لأولهما بعون من أصحاب الفضل واليسار ، وأقبل أئمة العلماء وكبار الكاتبين من الساسة والأدباء على المؤيد فأجالوا أقلامهم فيه بكل كريم من القول جليل ، وكذلك أصبح المؤيد لسان مصر الناطق ، وترجمانها الصادق . كما أصبح ترجمان العالم الاسلامى ، وكتب فيها : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وإبراهيم المويلحى وسواهم .

وفى القرن العشرين ظهرت صحف كثيرة من أشهرها جريدة كوكب

الشرق (١٩٢٤ — ١٩٣٩)، وكان يصدرها أحمد حافظ عوض، وجريدة المصرى ١٩٣٦ — ١٩٥٤ ثم جريدة الأخبار التى كان يصدرها الأخوان على أمين ومصطفى أمين من علم ١٩٥٢ ثم جريدة الجمهورية التى قامت مع إعلان الجمهورية فى مصر عام ١٩٥٣.

ومن أشهر الصحف والمجلات الأدبية والعلمية التى صدرت فى العالم العربى ما يلى :

١ — مجلة الهلال (١٨٩٢ ـ تصدر عن دار الهلال شهريا .

٢ — مجلة المقتطف ١٧٨٦—١٩٥٢ ـ يعقوب صروف ـ وهى شهرية عن دار المقطم .

٣ — مجلة المنار ١٩١٨ — ١٩٣٥ محمد رشيد رضا ـ القاهرة .

٤ — مجلة مجمع اللغة العربية (١٩٣٤ — حتى اليوم) ـ القاهرة .

٥ — مجلة الآداب البيروتية — سهيل إدريس ـ عن دار العلم للملايين .

٦ — مجلة الأديب البيروتية ـ ألبير أديب ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٨١ .

٧ — مجلة الأدب المصرى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ القاهرة .

٨ ـ مجلة أبولو ـ أحمد زكى أبو شادى ـ القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ .

٩ — مجلة الأزهر شهرية من ١٩٣٥ إلى اليوم وتصدر عن مشيخة الجامع الأزهر .

١٠ — البلاغ الأسبوعية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ القاهرة ـ عبد القادر حمزة .

١٣ ـ البيان ١٩١١ ـ ١٩٢١ ـ القاهرة ـ عبد الرحمن البرقوق .

١٤ ـ تراث الإنسانية ١٩٦٤ ـ ١٩٧١

١٥ — الثقافة ١٩٣٩— ١٩٥٢ — القاهرة — أحمد أمين .

١٦ — الرسالة أحمد حسن الزيات ـ القاهرة أسبوعية ـ ١٩٣٣ـ١٩٥٣

١٧ — الرسالة الجديدة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ ـ القاهرة .

١٨ — السياسة الأسبوعية ١٩٢٦ ـ ١٩٤٩ ـ القاهرة .

٢٠ — الشعر ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ـ وزارة الثقافة ، ثم أعيدت بعد ذلك وأغلقت ، ثم أعيدت وهى تصدر اليوم فصلية .

٢١ — الكتاب ١٩٤٥ ـ ١٩٥٣ ـ شهرية ـ دار المعارف .

٢٢ — الكاتب المصرى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ شهرية ـ طه حسين .

٢٣ — الفكر المعاصر شهرية ١٩٦٥ ـ ١٩٧١ .

° ° °

الأزهر الخالد

الأزهر هو أعرق الجامعات العلمية فى العالم ، فهو أطولها عمرا وأجلها أثراً فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى ، بل فى تاريخ العلم كله .

والأزهر طوال عصور التاريخ حارس التراث العربى وحامل مشعل الثقافة الدينية ، والملاذ الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ويبصرهم سواء السبيل .

وللأزهر مكانة كبرى فى مصر والعالم الإسلامى جميعه ، وآراوه وفتاوى علمائه تقابل من كل مسلم فى العالم الإسلامى بمزيد من التقدير والإجلال والطاعة .

ولم تقم فى مصر جامعة علمية بالمعنى الصحيح قبل الأزهر ، الذى له تاريخ طويل وذكريات مجيدة وآثار علمية ودينية عديدة .

وقد أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بعد فتحه مصر بنحو عام ، وقد شرع فى بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م ، ويذكر بعض المؤرخين أنه شرع فى بنائه فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان فى العام نفسه : وقد كمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ — ٢٢ يونيو سنة ٩٧٣ م ، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية — ومنبراً للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها التى ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور فخمة تسمى بالقصور الزهراء أو لأنه كان يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع

فخامة ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا . وقد احتفل بافتتاحه فى أول جمعة فى رمضان عام ٣٦١ هـ .

وأصبح هذا الجامع مسجد الدولة الرسمى ، وقد حرص وزير المعز يعقوب ابن كلس على أن يقيم حلقة علمية فى الأزهر ، حيث كان يقرأ على الناس فى مجلس خاص يوم الجمعة مصنفاته فى الفقه الفاطمى ، كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل ، وحرص الخليفة كذلك على تكليف كبار العلماء بإقامة حلقات علمية فى أروقة الأزهر لتدريس الفقه الفاطمى ، وكان يمنحهم مرتبات شهرية . ولهذا صار الأزهر جامعة علمية، وظهر ذلك جليا حينما بدأت حلقاته تتحول إلى دراسة جامعية علمية مستقرة . وذلك عام ٣٧٨ هـ ٩٨٨ م حينما استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم ٣٧ فقيها .

وفى عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ... وبذلك صار الأزهر معهداً جامعيا للعلم والتعليم والدراسه . ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته العلمية الجامعية الصحيحة .

وقد استمرت الحركة العلمية والدينية فى الأزهر قوية مزدهرة فى عهد الفاطميين الذين وقفوا عليه الوقوف وأحاطوه بالرعاية ، وكان فى مقدمة الأساتذة المدرسين فى الأزهر بنو النعمان قضاة مصر .

ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر عام ٥٦٧ هـ على يدى مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومحا من مصر المذهب الفاطمى واحل محله المذهب السنى ، وغالى الأيوبيون فى القضاء على كل أثر للشيعة وأنفوا با بطال

إقامة الجمعة فى الأزهر . . . فلبثت معطلة فيه نحو مائة عام ، فقضى الأزهر هذه المدة فى ركود طويل ، وقد ظلت حلقات الدراسة فيه على الرغم من ذلك مستمرة دون أن تحظى هذه الحلقات فى ذلك العصر بكثير من رعاية الدولة .

وفى عام ٦٦٥ هـ أعيد افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة فى عهد بيبرس الذى شجع العلم فيه هو والأمراء والقواد ، ووقفوا عليه الأوقاف الطائلة ... واستمر الازهر يؤدى واجبه الدينى والعلمى فى عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية وعهد النهضة المصرية الحديثة .

وأول شيخ تولى مشيخة الأزهر كما يحدثنا التاريخ هو الشيخ الخرشى المكى المتوفى عام ١١٠١ هـ وتولى بعده الكثير من مشايخ الازهر حتى بلغوا حتى اليوم ٤٥ شيخا آخرهم شيخ الازهر الحالى الشيخ جاد الحق على جاد الحق .

وفى عهد محمد على وأسرته انتقصت أوقاف الازهر وحقوقه ، ولكنه ظل يؤدى واجبه العلمى والدينى بنشاط كبير . ومن الازهر كان طلبة البعوث الدين بعث بهم محمد على إلى أوربا وعادوا إلى مصر ينشرون العلم والمعرفة والنهضة فى كل مكان ، وكانت جل المدارس التى أنشأها محمد على تأخذ طلبتها من طلبة الأزهر الشريف ، ولما أنشئت دار العلوم عام ١٨٧١م ومدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ م اعتمدتا طلبتهما من الأزهر . وكان مدرسو الدين واللغة العربية فى جميع مدارس الدولة ومعاهدها من خريجى الازهر الشريف . وكذلك كان طلبة مدرسة المعلمين الاولية وأساتذتها .

وقد قام الازهر بنشاط كبير ، وأسهم بنصيب ضخم من الجهاد الوطنى فى جميع المواقف القومية الوطنية فهو الذى قاوم الاحتلال الفرنسى لمصر وهو

الذى أذكى لهيب الثورة العربية ، وهو الذى غذى ثورة عام ١٩١٩ ، وله فى كل موقف وطنى جهاد مذكور مشكور .

ومنذ آخر القرن التاسع عشر إلى عصرنا وضعت قوانين منظمة لشئون الازهر . ومن أشهر هـذه القوانين قانون عام ١٩٣٠ م باصلاح الازهر الشريف ، وقانون عام ١٩٣٦ الذى سار عليه الازهر فى نظامه .

والازهر بيت العلم العتيق ومثابة الثقافة الإسلامية . حمل لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قرونا متصلة وحفظ التراث الإسلامى فى الدين واللغة والعلوم ونشره على الآفاق طيلة ألف سنة أو يزيد . وقد تخرج فيه أمواج من العلماء خلال عصور التاريخ ممن انتشروا فى بقاع الأرض وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التى تزودوا بها فى الأزهر فأضاءوا الأرض علما ونوراً ورشاداً .

وما يزال الازهر حتى اليوم كعبة العلوم والآداب ومعقد آمال المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

والازهر هو الذى حفظ العلوم الإسلامية واللغـة العربية من الضياع والاندثار وهو الذى حفظ للادب العربى ، فى شتى بلاد العروبة ، رونقـه وبهاءه . وقد تخرج فيه العديد من العلماء والادباء والكتاب والخطباء والشعراء فى كل عصر وكل جيل .

والازهر منذ أنشىء حتى اليوم هو الذى يتولى قيادة الحركة الدينية فى العالم الإسلامى ، وآراء شيوخه هى الحجة القوية التى يقابلها المسلمون فى شتى بقاع الارض بالطاعة والامتثال والقبول . وقد خرج الازهر الكثير من رجال الدين منذ أنشىء إلى اليوم ، وخريجوه هم الذين تولوا قيادة الحركة الدينية فى كل مكان من بلاد العالم الإسلامى .

وفى الأزهر هيئة كبار العلماء التى أنشئت بمقتضى قانون عام ١٩١١ م . وقد حل محلها مجمع البحوث الإسلامية بعد إلغائها وفيه كذلك لجنة للفتوى عام ١٩٣٧ م . وهاتان الهيئتان لهما أثر كبير فى التوجيه الدينى فى العالم الإسلامى .

ومن أعلام الأزهر وأئمته فى التوجيه الدينى الإمام محمد عبده (١٣٦٦ هـ - ١٩٠٥ م) وله فضل كبير فى الإصلاح الدينى وفى إصلاح الأزهر .

ومن أعلامه كذلك محمد مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق وسواهما ، ممن قادوا الحركة الدينية ووجهوها توجيها قويا فى العالم الإسلامى كافة .

والأزهر بحق قائد الحركة الدينية فى العالم الإسلامى قاطبة .

ولقد ورث الأزهر الحديث ميراثا روحيا وثقافيا ضخما جليلا عن الأزهر القديم ، ورث عنه الرسالة الدينية التى قام منذ أن أنشىء لحمل أمانتها ، والتى أخذها بكلتا يديه ليؤديها إلى العالم شعلة مضيئة هادية ، ومثلا إنسانياً رفيعاً ومذهباً فكرياً قادراً على قيادة الحياة والبشرية جميعاً إلى السلام والإخاء والأمن والرفاهية .

وورث عنه الرسالة الثقافية التى جاهد من أجلها أجيالا طوالا ، والتى قامت عليها أروقته ومحاريبه وقبابه ومآذنه الشم ، ودأبت على الكفاح فى سبيلها حلقاته الطاهرة ، التى تجمع فيها شباب المسلمين - من شتى الأقطار والشعوب - على كلمة الحق والتقوى والمعرفة واستجابة لأمر الله ، وتحقيقا لفكرة الإسلام ، وسعيا وراء الحقيقة التى هى أكبر محرر للأمم ، والجماعات والأفراد ، من أغلال الجهل والجمود والتأخر .

وعاشت حلقات الأزهر الجليلة طويلا خلال هذه الأجيال ، وهى تحمل عن العالم الإسلامى رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية ، وتؤديها ناصعة

بيضاء كخيوط الفجر ، مشرقة هادية كضوء الشمس ، ومن هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الإسلامى فى القديم ، وكانت عن جدارة بمثابة مصنع يصنع الرجال والأبطال .

وفى مختلف العهود كان للأزهر الشريف دوره القيادى والطليعى فى الكفاح القومى ضد استبداد المستعمرين وجبروت الحكام وكان دائما قاعدة للنضال الشعبى ضد بطش الظالمين والمستبدين من الحكام والغزاة ، وكان رجاله يقومون بدور القادة الذين يتقدمون صفوف الثوار ، وبدأت ثورة الأزهر واضحة جريئة منذ عهد الأيوبيين ، وكان شيخه فى ذلك الوقت الشيخ عز الدين عبد السلام الذى عارض ولاية شجرة الدر حيث لا تجوز الولاية لامرأة ، كما عارض أيضا السلطان نجم الدين أيوب فى تعيينه الأتراك الأرقاء أمراء على البلاد ، ولم يرهب الشيخ عز الدين عبد السلام تهديد أو وعيد .

وفى العهد العثمانى كان المظلومون يهرعون إلى الأزهر الشريف طالبين الأمن والسلام والحماية .

ولما وطأت أقدام الغزاة الفرنسيين أرض مصر المؤمنة هب الشعب بزعامة السيد عمر مكرم لملاقاة الغزاة ومنازلتهم إلا أن جيش المماليك فر من المعركة وترك الشعب المصرى الأعزل يحارب جيش أقوى الدول الأوربية فى ذلك الوقت ولأن نابليون بونابرت كان قد عرف قوة رجال الأزهر ومكانتهم فى قلوب الشعب لذا أشرك العلماء من الشيوخ فى الحكم بهدف إقرار الأمن وتجنب ثورات الشعب ضد الغزاة الفاتحين فألف الديوان الوطنى واختار علماء الأزهر عشرة من بينهم أعضاء فى الديوان الوطنى وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ مصطفى الصاوى ،

والشيخ محمد المهدى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ سليمان الفيومى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ محمد الدواخلى ، وكان الشيخ الشرقاوى رئيساً للديوان الوطنى ، وكان هذا الديوان نواة السلطة النيابية فى مصر .

إلا أن شعب مصر المسلم لم يرض بالإحتلال ، لم تعجبه تصرفات الفرنسيين الشائنة واللاأخلاقية واللادينية فثار مطالبا بالاستقلال تحت قيادة علماء الأزهر الشريف وكانت ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر سنة ١٩٧٨ ميلادية ، وكان الشيخ السادات على رأس هذه الثورة ورد الفرنسيون المعتدون بضرب الأزهر الشريف معقل الثورة بالمدافع ، كما قبضوا على زعماء الثورة ، وحاكموا الكثير من العلماء والشيوخ ، ومنهم من أعدم فى ٤ نوفمبر ١٧٩٨ وكانت خسة الفرنسيين الذين انتهكوا حرمة الأزهر الشريف .. ودخلوا بخيولهم الحرم المقدس للجامع الأزهر كما مزقوا الكتب والمصاحف الشريفة وحطموا القناديل وخزائن الطلاب كما نهبوا أمتعتهم ..

ثم أندلعت ثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠ وكان قائدها السيد عمر مكرم وأخمدت الثورة بسبب تفوق الفرنسيين فى المعدات العسكرية ونفى السيد عمر مكرم إلى دمياط ، وأنتقم الفرنسيون من علماء الأزهر بسجن وتعذيب البعض وفرض الغرامات ومصادرة أملاك البعض الآخر ، وانتقم الثوار بقتل كليبر على أيدى الشاب الأزهرى الوطنى سليمان الحلبى كما جاء فى مذكرات نابليون إذ قال فيها : « إن تعذيب السيد عمر مكرم كان من أهم الأسباب التى أدت إلى مصرع كليبر » .

وبعد جلاء الفرنسيين لم تلن قناة رجال الأزهر الشريف فى الذود عن المواطنين ضد طوفان الفوضى الذى غرقت فيه مصر عقب عودتها إلى

الحكم العثمانى المستبد، حتى أن محمد على أخذ يتودد لدى زعماء الشعب وقادته من علماء الأزهر الشريف بهدف تمكينه من الوصول إلى الحكم وأوهمهم بأنه سوف يكون رهن مشورتهم ، وإن له الحق فى تنحيته إذا حاد عن الحق أو جانب الصواب ولذا قاد كل من السيد عمر مكرم وشيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى حركة شعبية أجبرت خورشيد باشا على التنحى والرضوخ لارادة الشعب وأسند ولاية مصر إلى محمد على فى سنة ١٨٠٥ ميلادية ، ونزل السلطان العثمانى على إرادة الشعب ووافق على تولى محمد على واليا على مصر بناء على رغبة الأمة التى جعلت من نفسها بثوراتها العادلة مصدرا للسلطات .

ولما استبد محمد على بالحكم وأغتصب مال الأوقاف وأرهق الشعب بمطالبة غير العادلة تصدى له علماء الازهر واتهموه بخيانة العهد ورد محمد على بخلع السيد عمر مكرم من نقابة الإشراف ونفيه إلى دمياط .

ولم يستطع أحد أن ينكر دور الأزهر الشريف فى مقاومة الحملات الانجليزية المتعددة على مصر ، ومنها حملة فريزر عام ١٨٠٧ حيث اجتمع علماء الأزهر وافتوا فى مؤتمر وطني ضخم وجوب الجهاد ، وعبأوا الشعب للذود عن البلاد . وكانوا وراء حملة التطوع فى الجيش والأمداد بالمؤن والذخائر حتى دحرت الحملة وعادت إلى بلادها وتم نصر المؤمنين .

وحين اندلعت الثورة العرابية كان رجال ومفكرو الأزهر الشريف قد مهدوا لهـا بالفكر المستنير المناهض للاستعمار وتجنيد الشعب وشحن النفوس بالثورة ومن بينهم رفاعة رافع الطهطاوى والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى وطالبوا بأن الأمة مصدر

السلطات وضرورة القضاء على الفساد وحتى الزعيم أحمد عرابى قائد الثورة العرابية كان ممن تلقوا علومهم بالأزهر الشريف واستنكر علماء الأزهر نفى أحمد عرابى خارج مصر بناء على طلب كل من انجلترا وفرنسا من خلال المذكرة الثنائية ، ووضع الشيخ محمد عبده صيغة قسم الثورة الذى تعهد فيه الوطنيون المصريون بالتصدى للمحتلين الانجليز والعميل الخديوى توفيق ، كما أصدر علماء الأزهر فتوى شرعية بمروق الخديوى توفيق عن الدين لانحيازه إلى أعداء البلاد — أى الانجليز — واصداره أمر عزل عرابى فى ٢٠ يولية سنة ١٩٨٢ وكان علماء الأزهر قد اجتمعوا فى مؤتمر وطنى مهيب قرروا فيه مروق الخديوى عن الدين كما قرروا عزله وعدم شرعية ما يصدر من أوامر وأبطال سريانها فى البلاد وتكليف عرابى بالدفاع عن البلاد . وقد وقع هذا القرار عدد كبير من علماء الأزهر الشريف .

وسارت قافلة الكفاح الوطنى ، وكان لرجال الأزهر الشريف القيادة ومكان الصدارة فيها ، وكان للأزهر الشريف دوره الخطير فى ثورة ١٩١٩ الشعبية وكان الجامع الأزهر مركز جماهير الثورة الهادرة الغاضبة ضد المحتلين فكانت تنطلق منه ثم تعود لتنظيم صفوفها ولتستلهم المدد والحماس الثوريين ولتنطلق من جديد لتنقض على الانجليز فى الشوارع والأزقة والميادين المجاورة للأزهر وكانت الجماهير تردد أناشيد الحرية كما اعتلى منابر الأزهر الخطباء الذين ألهبوا النفوس كما اشترك طلاب الأزهر فى هذه الثورة ، وكان الشيخ أبو العيون والشيخ الزنكلونى والشيخ عبد الباقى سرور قادة الثورات الصاخبة ضد الانجليز كما استشهد الشيخ مصطفى القاياتى على عتبات المسجد العتيق كأول شهيد من العلماء .

ولما أذاع الطلبة فى اليوم الثانى للثورة منشورا ينبئ بتحرك مظاهرة سلمية فى اليوم التالى فى العاشرة صباحا بادئة من الأزهر الشريف مارة بالإحياء وحتى تكون أمام القصر العينى فى الثانية عشر تماما . . . هرعت الجماهير منذ فجر ذلك اليوم من طلبة المدارس والمدرسين والأطباء والمحامين ومختلف فئات الشعب الثائر زاحفة إلى الأزهر حصن الثورة واستقبل العلماء وطلاب الأزهر آلاف الجماهير ووفروا لهم الأماكن فى نظام رائع واستمعوا يومها إلى الخطب النارية الثائرة الملتهبة وكان من بين من ألقى هذه الخطب النارية الشيخ القاياتى والشيخ الزنكلونى والشيخ أبو العيون والشيخ عبد اللطيف دراز والشيخ عبد الباقى سرور والشيخ عبد ربه مفتاح من علماء الأزهر إلى جانب من ألقوا الخطب الحماسية المتأججة أمثال زكى مبارك ومحجوب ثابت وأمين الخولى وابراهيم عبد الهادى ومحمد لطفى المسلمى ويوسف الجندى وحسن ياسين ومحمد يوسف ومحمود عبد السلام ومحمد عبد المجيد بدر ومحمد أمين صدقى ومحمد أبو شادى ومحمد كامل حسين وأحمد أمين وغيرهم وغيرهم من شباب الأزهر الشريف وطلاب المدارس الثانوية والمعاهد العليا حتى أن النساء تظاهرن عام ١٣٣٩ هجرية ولم يجدن غير الأزهر معقلا لثورتهن حيث دخلن الأزهر الشريف وأبطلن الدروس وهددن بالقدوم إلى الأزهر يوميا حتى يثأر أبناء مصر لشرفها وكان يتظاهرن فى كثير من المناسبات ويحضرن إلى الأزهر ، مما يدل على أن المرأة المصرية أدركت منذ زمن بعيد قيمة الازهر الشريف وريادته للحركة الوطنية المصرية وأنه معقل الثورات .

ولا ننس أن الازهر قد قادة فى القديم ثورتين كبيرتين تعدان من أسبق الثورات الدستورية العالمية ، قاد إحداهما عام ١٢٠٠ هـ — يناير ١٧٨٦ م

الشيخ الدردير ، وقاد الأخرى عام ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٥ م شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وكسب الشعب المصرى من الثورة الأولى مبدأ دستوريا جليلا هو وجوب احترام الحاكم لإرادة المحكومين ، وكسب من الثانية مبدأ آخر هو أن الأمة مصدر السلطان ، وكانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان ، ووثيقة فريدة في سبيل التحرير سبق بها شعب مصر غيره من الشعوب ، كما اعترف بذلك المؤرخون من العرب والغرب .

وقد حمل علماء الأزهر عبء الجهاد لتحرير مصر من الاحتلال الفرنسى منذ دخل جيش نابليون أرض الوطن فاتحا . ولا ننس كذلك أن الازهر قام بثورة ثالثة في صفر عام ١٢٢٠ هـ — ١٨٠٥ م لانهاء النفوذ التركى في مصر ، ولكن رجالا سياسيا بارعا يتدفق في أعصابه الدم التركى استطاع بدهائه أن يحول المعركة إلى مغانم شخصية له ولأسرته التى حكمت مصر نحو قرن ونصف من الزمان .

وكان قائد الثورة المصرية الرابعة كذلك أزهريا صميما ، هو الزعيم الوطنى القائد « أحمد عرابى » الذى قاد الثورة العرابية للقضاء على نفوذ المستعمرين من الأتراك والمستغلين من الإنجليز . كما كان زعيم الثورة الشعبية الخامسة أزهريا صميما هو المرحوم سعد زغلول ، كان يعمل للقضاء على الاستعمار الانجليزى وتحرير شعب مصر من أغلاله . ولا ننس كذلك أن قادة ثورة مصر الأحرار تتلمذوا على شيخ أزهرى ورع زاهد متصوف كان رائدا روحيا لهم هو الشيخ محمد الأودن من علماء الأزهر المعاصرين .

ولقد تطورت البيئة الثقافية في الأزهر في العصر الحديث : بتأثير الحضارة الفكرية الغربيه ، وبفضل لفيف من علمائه الأعلام الخالدين .

ومن الحق أن الأزهر منذ بدأ القرن التاسع عشر كان يتطلع إلى ثقافة

الغرب وحضارته فى شىء من الفتور والكراهية ، إيمانا بقومية المسلمين السياسية والفكرية والثقافية ، ولكنه لم يجحد فكرة السعى إلى النهضة ، أو الإيمان بالتطور : فسافر بعض أبنائه فى بعثات حكومية إلى باريس ولندن وسواهما من عواصم الغرب ، وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوى .

وتطلع بعض علمائه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفكرية والثقافية ، وللرد على مايثيره بعض الغربيين حول الإسلام من شبهات ، وكان فى مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده ، الذى كان أكبر رائد أزهرى للفكر المصرى فى العصر الحديث .

ولقد نهض شيوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبء إصلاح البيئة الثقافية داخل الأزهر ، وبعث روح التجديد والحياة فى حلقات الأزهر العلمية ، لتكون على صلة بينابيع الفكر الحديثة المتدفقة .

ومنذ أكثر من نصف قرن من الزمن ، أو بالتحديد فى مايو سنة ١٩٢٨ تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو تلميذ من تلامذة الإمام محمد عبده ، ولكنه مالبث أن استقال منها فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، وخلفه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ، ثم عاد الشيخ المراغى إلى المشيخة فى ٢٦ إبريل سنة ١٩٣٥ ، وظل فيها إلى أن توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

وعلى يدى الشيخ الظواهرى تحول الأزهر إلى جامعة علمية لها كليات ثلاث : هى الشريعة واللغة وأصول الدين ، وفيها أقسام للدراسات العليا ذات نظام علمى جامعى ، ولكن أثر ذلك لم يظهر إلا فى عهد الشيخ المراغى وعلى يديه وبتشجيعه ورعايته ، فكان يشرف هو ومعاونوه من شيوخ الكليات الأزهرية على نظم هذه الدراسات ، ويشترك فى امتحاناتها

ومناقشات رسائلها ، ويرعى خريجى هذه الأقسام ويضعهم فى منازلهم العلمية فى كليات الأزهر . وبذلك صار الأزهر يخضع فى حياته الثقافية الجديدة للنظم الجامعية الصحيحة .

هذا عدا ماصنع الشيخ من تقدير للكفايات العلمية ، ورعاية للبحث الثقافى الحر فى داخل الأزهر ، فصنع بذلك نهضة ثقافية جديرة بالتأمل والتقدير .

وفى عام ١٩٦١ صدر قانون تطوير الأزهر الذى استحدث فى الأزهر كليات للطب والهندسة والزراعة والتجارة والتربية واللغات وغيرها .

وقـد أنشئت فروع لجامعة الأزهر فى أسيوط وطنطا والزقازيق والمنوفية والمنصورة والإسكندرية ودمنهور . وتبلغ كليات جامعة الأزهر الآن ٤١ كلية .

ومن روح مصر ، ومن ضميرها الوطنى ، وكفاحها القوى ، انبثق فجر الحرية والثورة والكرامة والعزة والاستقلال لمصر الخالدة ، مصر التى تقهر الأحداث ، والتى تسلم أبناؤها أمانة الوطن المفدى ، بعد أجيال طويلة ملؤها النضال فى سبيل الشعب : حريته وعزته وكرامته .

وفى هذا المجال نذكر الأزهر ، الازهر العريق فى التاريخ ، فى المجد ، فى الجهاد ، والذى عرفت له مصر أروع الاعمال ، وسجلت الايام له أمجد الصفحات فى تاريخنا القومى والوطنى .

وعندما نريد الحديث عن « رسالة الازهر فى القرن العشرين » لابد أن نشير إلى تاريخ الازهر فى الكفاح الوطنى ، لانه جزء لايتجزأ من تاريخه الثقافى والدينى ، ومن رسالته التى حملها خلال العصور والاجيال ، بل من

تاريخ بلادنا التى حملت رسالة الثقافة والحضارة ، وألهمت الإنسانية أرفع معانى النهضة والتقدم والحياة .

وفى هـذه السبيل نذكر الشيخ الإمام الدردير رضوان الله عليه ، ونذكر كفاحه من أجل مصر وشعبها الحر الأبى ، ففى عام ١٢٠٠ هـ : ١٨٨٦ م أعلن علماء الازهر الشريف الثورة ضد الامراء من المماليك ، لإسرافهم فى فرض الضرائب ، ونهب أموال الشعب ، وكانت الثورة بقيادة الشيخ الدردير ، الذى بادر فأعلن تصريحه الخالد المأثور : سنثور مع الشعب ، وننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » .

وجاء الامراء يعتذرون للامام الزعيم ، ولم يقبل الشيخ اعتذارهم حتى ألزمهم بميثاق وطني مكتوب ، أعلن فيه لاول مرة حقوق الانسان المصرى قبل ميلاد الثورة الفرنسية بسنوات ، ونص فيه على حرية الشعب ، وعدم جواز فرض ضرائب إلا بإذنه ، وعلى أن الأمة مصدر السلطات .

ونذكر كذلك الشيخ الإمام عبدالله الشرقاوى ، وجهاده من أجل مصر . ففى عام ١٢٠٩ هـ : ١٧٩٥ م أعلن علماء الأزهر الشريف الثورة على المماليك ، وأجمعوا على مقاومة أمرائهم بالقوة إلى أن يستجيبوا لمطالب الشعب ، وكان قائد هذه الثورة هو الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر أيام ذاك ، وكان مجلس الثورة يعقد فى الأزهر ، وأعضاؤه : الشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الأمير ، والسيد عمر مكرم ، ولم تنته الثورة إلا بعد اعتذار أمراء المماليك ، وبعد أن أصدر أعضاء مجلس قيادة الثورة وثيقة وقعوا عليها وألزموا الأمراء بالتوقيع كذلك عليها ، وكانت إعلاناً وطنياً جليلا لحقوق الشعب ، حيث تضمنت ما يلى :

١ — ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الأمة .

٢ — أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم :

٣ — ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

وعند ما دخلت الحملة الفرنسية مصر نبعت ثورة القاهرة الأولى من الأزهر الشريف عام ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م ، وكان مجلس الثورة مكوناً من كبار علماء الأزهر آنذاك ، ورئيسه هو الشيخ السادات ، وكان يعقد اجتماعاته فى الأزهر . وقد بطش نابليون بالثوار الأحرار ، وأغلق الأزهر ، وأعدم ثلاثة عشر عالما من أبر علمائه بوطنهم ودينهم .

وكذلك قامت ثورة القاهرة الثانية عام ١٢١٤ هـ - ١٨٠٠ م من قلب الأزهر ، وكانت بزعامة الشيخ الأزهرى والسيد الوطني عمر مكرم نقيب الأشراف فى مصر ، وقد أخمدت هذه الثورة بقوة وعنف ، وقبض على زعمائها ، ونكل بهم تنكيلا شديداً .

وفى عام ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م أعلن علماء الأزهر الثورة على الوالى التركى « خورشيد باشا » ، وأجمعوا على عزله ، وكتبوا للخليفة العثمانى بذلك ، وقد كان عمر مكرم زعيم هذه الثورة ، ولا ننسى كلمة خالدة له يومذاك ، عندما ذكره أحد قواد الأتراك بالآية الكريمة : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، فرد عليه عمر مكرم فى عزة وإباء : أولو الأمر هم العلماء وحماة الشريعة والسلطان العادل .

ولما ولى محمد على حكم مصر أستبد بالحكم وتنكر للشعب ، وبطش بالحريات ، وأسرف فى فرض الضرائب ، وخان العهد الذى عاهد عليه العلماء بأن يحكم بالعدل والشريعة ، فاجتمع فى الأزهر الشريف مجلس وطنى من العلماء ، فى أواسط

جمادى الأولى ١٢٢٤ هـ - أول يوليو ١٨٠٩ م لمقاومة محمد على حتى يخضع لمشيئة الشعب فى عدم فرض ضرائب جديدة ، وإلغاء الضرائب المستحدثة ، ورفض السيد عمر مكرم زعيم العلماء التوقيع على ميزانية محمد على السنوية ، وقال كلمة خالدة مأثورة : « إن هذا الحاكم - يريد محمد على - محتال ، وإذا تمكن فسيصعب إزالته ، فلنحاربه من الآن » ، وأسرع محمد على فخلع السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ، ونفاه إلى دمياط ، وقد ألقى السيد عمر مكرم تصريحاً عقب إبلاغه بصنيع محمد على معه ، جاء فيه : « إنى راغب عن منصب النقابة ، زاهد فيه وليس فيه إلا التعب . وأما النفى فهو غاية مطلوبى ، حتى لا أكون مسئولا أمام الله عن ظلم يقع على الشعب ، وإنى لا أريد إلا أن أعيش فى بلدة لا تدين لحكم محمد على » . وظل السيد عمر مكرم منفياً فى دمياط وطنطا حتى توفاه الله عام ١٢٣٧ هـ — ١٨٢٢ م .

ولسنا ننسى الثورة العرابية وزعيمها الأزهرى المصرى القائد : أحمد عرابى ، وكيف وقف علماء الأزهر وراءه صفا واحداً يدعون الشعب إلى الجهاد تحت رايته ، وأصدروا فتوى شرعية بمروق الخديوى توفيق عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده . وأعلنوا فى المؤتمر الوطنى عزل توفيق ، ووقف أوامره وتكليف عرابى بالدفاع عن البلاد وأن يبلغ المجلس الوطنى هذه القرارات إلى السلطان .

وقد نكل الإنجليز وتوفيق بعد ذلك بعلماء الأزهر تنكيلا شديداً . واستمر شيوخه لا يبالون بالحكام من أسرة محمد على ، ولهم فى ذلك مواقف مشهورة ، حتى قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، فنبعت من قلب الأزهر ، واشتعلت شراراتها فى صحنه ، وانبثق من منبره ومحرابه فجر الحرية لشعبنا المجيد الذى نال ما تمناه بفضل كفاحه الطويل المجيد .

ولا ننسى موقف الشيوخ الثلاثة : عبد المجيد سليم ومأمون الشناوي وإبراهيم حمروش ، من سياسة القصر وعبثه بقوانين الأزهر واستقلاله وحريته ، وكيف أصدروا بياناً مطبوعاً موجهاً إلى العالم الإسلامي ، يندون فيه بفاروق ورئيس ديوانه ورئيس وزرائه ، ويسجلون عليهم في صراحة تدخلهم في شئون الأزهر وعبثهم بقوانينه . وللشيخ عبد المجيد سليم عندما هدده رئيس الديوان بالخطر كلمة مأثورة خالدة : مادمت أتردد بين بيتي والمسجد فلا خطر بإذن الله ، وله كلمة أخرى ندد فيها بفاروق وعبثه ومجونه عندما أقام في كابري لاهياً عابثاً ، قالها الشيخ وأعلنها وسارت مسير الأمثال . وهي : « تقتير هنا وإسراف هناك » .

هذه قطرة من كفاح الأزهر وأدائه لرسالته ، وللأمانة الملقاة على كواهل علمائه نحو الشعب . وهي تصور لنا في وضوح روح الازهر وجوهره وسر خلوده وبقائه شاهق الذرى على مر الأجيال ، راسخاً رسوخ الضوء والنور والهدى إلى كل مكان رسوخ الجبال الراسيات . وهل هناك أروع من أن يصدر شيخ معمم فتوى ببيع أمراء المماليك الأتراك ليصرف ثمنهم في مصالح المسلمين ، لأن حكم الرق سار عليهم ، وهم أرقاء لسادتهم من أبناء مصر ، لأن السلطان اشتراهم من مال الدولة ، وما يزال حكم الرق مستصحباً عليهم ، وكان من جملة هؤلاء الأمراء نائب السلطنة ، وكلهم أصحاب حكم وسلطان ونفوذ وجاه ، وكان ذلك في منتصف القرن السابع الهجري ، وبعد منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بقليل ، وكان هذا الإمام هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضوان الله عليه .

وبعد فإن رسالة الأزهر في عصرنا تشمل الرسالة الدينية الكبرى ، والرسالة الثقافية والأدبية ، ورسالته الوطنية والاجتماعية .

فمن صميم رسالته الدينية :

١ — إنشاء المراكز الإسلامية فى دول أوربا وأمريكا والشرق الأقصى وإفريقيا لنشر رسالة الإسلام وتعاليمه الصحيحة .

٢ — وتلخيص رسالة الإسلام فى مؤلفات حديثة ، ونشرها بجميع اللغات العالمية :

٣ — ومحاربة المادية والمذاهب الهدامة الوافدة علينا من أوربا وأمريكا والدعوة إلى الروحية السامية المهذبة ، وإذاعتها بين جميع الطبقات .

٤ — والعمل على إنماء الأخوة الدينية والروحية بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ونشر رسالة التقدم الروحى والدينى فى البلاد الإسلامية .

٥ — وإذاعة مبادىء الإسلام وأصوله الرفيعة الصالحة لقيادة الإنسانية بين مختلف الجماعات والطبقات ، وإحياء الشعور الدينى وتنمية روح التدين بين الأفراد والشعوب .

ومن صميم رسالة الأزهر الثقافية والأدبية :

١ — نشر التراث القديم فى شتى العلوم الإسلامية نشراً علمياً حديثاً .

٢ — ووضع مؤلفات حديثة فى فروع الثقافة ، وتناول مشكلاتنا العامة والخاصة بالدراسة والبحث على ضوء الدين .

٣ — وإقامة معاهد دينية فى جميع مدن مصر والعواصم العربية والإسلامية لتعميم الثقافة الدينية الصحيحة .

٤ — وترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة دقيقة إلى شتى اللغات .

٥ — والنظر إلى مناهج الأزهر وعلومه وكتبه الدراسية نظرة جدية جديدة تتفق وحياتنا الفكرية ومطالبنا الروحية .

٦ — ودعم التقاليد الجامعية الصحيحة فى الأزهر بما يتفق وتقاليده القديمة الموروثة ، وتعزيز النظام العلمى الجامعى فيه ، وإقرار نظام الدراسات العليا فيه على أسس جامعية رفيعة .

٧ — وإنشاء أقسام جديدة فى كليات الأزهر لدراسة اللغات والآداب الأوربية الحديثة ، وأهم المذاهب الروحية والفكرية المعاصرة .

٨ — وتنمية التعاون الثقافى بين الأزهر ومختلف المعاهد والجامعات فى الشرق والغرب .

٩ — وكذلك نشر الثقافة العربية والأدبية ، وإخراج أمهات كتب اللغة ومصادر الأدب إخراجاً علمياً منظما .

١٠ — وتنظيم المواسم الثقافية والأدبية لزيادة ثقافة الشباب ، والارتفاع بمستواهم الفكرى .

ومن صميم رسالة الأزهر الوطنية والاجتماعية :

١ — العمل على بث الروح الوطنى فى الشعب .

٢ — ومشاركة الدولة فى التوجيه الاجتماعى والوطنى فى صفوف الأمة .

٣ — والمعاونة فى محو الأمية ، وفى نشر الأمن ، وإذاعة الوئام بين الناس ، وفى خلق روح التضحية القومية والإيثار والعدل وحب تحمل المسئولية فى نفوس الشباب .

٤ — وتخفيف الآلام عن المنكوبين والمحرومين والأشقياء فى المجتمع .

إلى غير ذلك من صميم رسالة الأزهر التى هى جزء لا يتجزأ من رسالة الإسلام ديننا الكريم .

أثر الأزهر فى الحركة الأدبية

— ١ —

الأزهر جامعة الجامعات ، وأم المدارس العلمية الكبرى فى العالم الإسلامى ، وشيخ معاهد الدين ، ومعلم الجامعات ورائدها فى الشرق والغرب ، وواضع كل التقاليد الجامعية المعمول بها حتى اليوم فى مختلف جامعات العالم .

ومصر منذ قديم وطن الجامعات ، جامعة عين شمس القديمة ، وجامعة منف ، وجامعة الاسكندرية القديمة ، وجامعة الفسطاط الاسلامية . . ثم جامعة الأزهر التى شيدها الفاطميون فى أول حكمهم لمصر وللعالم الاسلامى القريب من مصر ، والذى كانت مصر واسطة عقده ، وحاضرة ملكه ، وكما شيدوا مدينة القاهرة حين دخولهم مصر لتكون حاضرة دولتهم الكبيرة ، أقاموا الأزهر الشريف ليكون المشعل الثقافى والحضارى لمملكتهم الواسعة .

وحين تحتفل مصر ، ويحتفل معها العالم الاسلامى بالعيد الألفى للأزهر ، نذكر كيف أصبح الأزهر بعد إنشائه بسنوات قلعة الاعلام الثقافية ، وقلعة اللغة العربية الحضارية ، وقلعة التراث الاسلامى العربى بكل ألوانه وفنونه وذخائره .

— ٢ —

وعناية الأزهر منذ إنشائه بلغة القرآن الكريم وعلومها وآدابها ، تعادل عنايته بعلوم الشريعة وذخائرها وفنونها وتراثها .

واللغة العربية مادة من مواد الدراسة فيه منذ قيام الحلقات العلمية فى أروقته على يدى الوزير يعقوب بن كلس ، وكان من أهم هذه الحلقات حلقات بنى النعمان قضاة الفاطميين فى مصر .

ويقول المؤرخون والمدونون لتاريخ الأزهر : إن الدراسة إذ ذاك لم تكن تعدو فى الأزهر علوم الدين وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وتاريخ وشعر .

ولسان كل المصريين ، ولهجتهم ، أقرب إلى لسان العرب ولهجتهم الفصحى حتى اليوم ، وذلك أثر لثقافة الأزهر ، وقيامه بدراسة اللغة وعلومها ، وبدراسة القرآن الكريم وعلومه ، قياما منظما ، ودراسته للمأثورات الأدبية جزء من دراسته للغة وآدابها . . وهذه المأثورات هى التى تكون اللسان الفصيح واللهجة العربية السليمة .

أأحدثك عن ناصر خسرو ، الذى زار مصر فى القرن الخامس ودرس فى الأزهر الشريف ؟ أم أحدثك عن عبد اللطيف البغدادى الذى وفد على مصر ، وصارت له حلقة فى الأزهر ؟ أم أحدثك عن ابن منظور الذى وفد على مصر وصارت له حلقة فى جامعة الأزهر ، أم أحدثك عن ابن خلدون وحلقته فى فلسفة التاريخ أو عن الزبيدى صاحب معجم تاج العروس وحلقته اللغوية فى الأزهر ؟ وعن آلاف الأساتذة الذين وفدوا على الأزهر وصارت لهم حلقات علمية فيه ، فكان من بينهم فى عصرنا الشيخ محمد نور الدين الحسن السودانى وكيل الأزهر ، والشيخ محمد الخضر حسين التونسى شيخ الأزهر ، والشيخ عيسى منون الفلسطينى شيخ كلية الشريعة الاسلامية ، والشيخ حمزة طاهر التركى ، وشيخ رواق الاتراك ، وأستاذ اللغة التركية فى الازهر الشريف .

وجل أدباء مصر منذ القرن الخامس الهجرى حتى القرن الخامس عشر اليوم هم ممن درسوا فى الأزهر الشريف ، أو تلقوا تعليمهم فى اللغة والأدب والبلاغة على أيدى أساتذة أزهريين .

أأذكر لك ابن دقيق العيد مجدد الاسلام فى القرن السابع الهجرى ، ومع كان شاعراً كبيراً وأديباً بليغاً ؟

أأذكر لك السيوطى مجدد الاسلام فى القرن التاسع ، ومع ذلك كان أديباً وكاتباً ومؤلفاً وشاعراً ؟

أأذكر لك من أدباء مصر فى العصر المملوكى القلقشندى ، والنويرى ، وابن أبى الاصبع المصرى ، والنواجى والسخاوى وابن إياس والمقريزى وكلهم من أعلام مصر وأدبائها فى العصر المملوكى .

أم أذكر لك الجبرتى العالم الازهرى الجليل ، والمؤرخ الكبير ، والوطنى الحر .

— ٣ —

وفى العصر الحديث نجد أعلام العرب ورواده فى وطننا الحبيب من أبناء الازهر وخريجيه .

ولعلك تذكر رفاعة الطهطاوى فيلسوف النهضة الفكرية الحديثة فى مصر ورائدها ؟ توفى فى عام ١٨٧٣ م .

والامام محمد عبده (ــ ١٩٠٥م) رائد النهضة الادبية والوطنية فى مصر .

وعبد الله النديم (ــ ١٨٩٦ م) خطيب الثورة العربية .

وعبد الله فكرى باشا (ــ ١٨٨٩ م) الذى تتلمذ على العالم الازهرى الكبير الشيخ حسين المرصفى .

وسعد زغلول زعيم ثورة عام ١٩١٩ وخطيبها .

والشيخ على يوسف رائد الصحافة المصرية .

ومصطفى لطفى المنفلوطى رائد النثر الأدبى فى مصر وأستاذ الجيل فى الأدب ، وصاحب النظرات والعبرات وماجدولين والفضيلة وفى سبيل التاج وغيرها .

ومحمد مصطفى المراغى أعظم الخطباء من رجال الدين .

وزكى مبارك ابن سنتريس ، والذى انتقــل من الأزهر إلى باريس والسربون ..

والشيخ عبد العزيز البشرى رائد أدب الفكاهة فى مصر .

والدكتور طه حسين ابن الأزهر ، وصاحب المعارك الطويلة وله مئات من الأعلام فى تاريخنا الأدبى الحديث .

* * *

وفى مجال تحقيق التراث نجد أمثال :

الشيخ أحمد شاكر القاضى الشرعى .

والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

وأحمد صقر .

وعشرات من أبناء مصر والازهر وأعلامهما فى هذا المجال .

— ٤ —

إن فضل الازهر على النهضة الأدبية الحديثة فضل مذكور مقدور ، فمن حلقاته تخرج الأديب والخطيب والصحفى والسياسى والقصص والشاعر والكاتب ، والرائد والمصلح .

يقول سعد زغلول حين زيارته للأزهر عام ١٩٢١ بعـد عودته من منفاه ، من خطبة ألقاها فى علمائه وطلابه :

جئت اليوم لأؤدى فى هذا المكان الشريف فريضة صلاة الجمعة ، وأقدم واجب الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير فى النهضة الحاضرة ، وتلقنت فيه مبادىء الاستقلال — ٦١ سعد زغلول للعقاد —

وكتب شوقى أمير الشعراء فى جريدة ، الاخبار عدد ٦ سبتمبر ١٩٢٤ يقول : وما أنا من ينسى أن معظم أساتذة مدرسة القضاء نفسها كانوا من شيوخ الازهر ورجاله ، إن الازهر قد سد فراغا كبيراً فى التعليم فى مصر والبلاد الشرقية جميعاً كان لا يرجى له بدون الازهر من سداد . وسأظل فخوراً دائما بأن من أساتذتى شيوخاً من الازهر الشريف وكبار علمائه .

أثر الأزهر فى حركة الشعر العربى

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى الأزهر الشريف فيما يقول من قصيدته الرائية الخالدة :

يا معهدا أفنى القرون جـداره ... وطوى الليالى ركبه والأعصرا

عين من الفرقان فاض نميرها ... وحيا من الفصحى جرى وتحدرا

ماضرنى أن ليس أفقك مطلعى ... وعلى كواكبه تعلمت السرى

لا والذى وكل البيان إليك لم ... أك دون غايات البيان مقصرا

إن الذى جعل العتيق مثابة ... جعل الكنانى المبارك كوثرا

وقال شوقى فى "الأزهر" من مقال نشر بصحيفة الأخبار القـديمة العدد الصادر فى السادس من سبتمبر ١٩٢٤ : سأظل فخوراً بأن من أساتذتى شيوخاً من صميم الأزهر الشريف وكبار علمائه ، وقد سـد الأزهر فراغاً كبيرا فى التعليم فى مصر والبلاد الشرقية جميعاً .

هذا هو ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى عن الأزهر ، وفضل الأزهر من قبل ومن بعد على الحركة الشعرية فى مصر وجميع أنحاء العالم العربى فضل جليل خالد على الزمان . .

والأزهر طول عصور التاريخ حارس التراث العربى ، ومجدد الثقافة الإسلامية ، والمشعل الذى يضىء ولا يخبو ، والملاذ الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل.

كان من رعاية الأزهر للحركة الشعرية قديما أن استضاف فى أروقته شاعر الفاطميين داعى الدعاة المؤيد الشيرازى ليلقى محاضراته فيه يناظر فيها

أبا العلاء المعرى فى عهــد المستنصر الخليفة الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ): ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) وهو الذى يقول فى المستنصر بعد قدومه إلى مصر :

أقسم لو أنــك توجتنى بتاج كسرى ملك المشرق
ووكلت لى كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لانلتقى ساعة أحببت يامولاى أن نلتقى

وفى أروقة الأزهر نشأ كل أو جل شعراء مصر :

- الصيرفى رئيس دان الإنشاء الفاطمى .
- ابن الساعاتى (٦٠٤ هـ) .
- أبو الحسين الجزار الشاعر والقاضى الفاضل (-٥٩٦ هـ) .
- ابن الفارض الشاعر الصوفى الكبير (-٦٣٢ هـ) .
- البهاء زهير (-٦٥٦ هـ) .
- ابن مطروح (٥٩٢ - ٦٤٩ هـ) .
- ابن النبيه المصرى (-٦١٩ هـ) .
- ابن سناء الملك (-٦٠٨ هـ) .
- سراج الدين الوراق (-٦٥٥ هـ).
- البوصيرى (٦٩٥ هـ) .
- ابن نباتة المصرى (٧٦٨ هـ) .
- الوطواط (-٧١٨ هـ) .

ومن الشعراء الذين نبغوا فيه أيضاً :

- الشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى (١١٤٠ - ١١٨٠ هـ) ٢٦٥-١/٢٨٤ جبرتى .

- والشاعر الكبير والكاتب المجيد الشيخ مصطفى الصاوى وكان من أساتذة الأزهر، توفى عام ١٢١٦ هـ .
- الشاعر الشيخ شمس الدين الفرغلى الشافعى وله شعر رائع (٢/٢٦٣ الجبرتى) .
- الشاعر الشيخ محمد العوفى المالكى من أساتذة الأزهر ، وكانت له حلقة علمية كبيرة فيه ، وتوفى عام ١١٩١ هـ .
- والشهاب الخفاجى المصرى (١٠٦٩ هـ) وله ديوان كبير مخطوط فى مكتبة الأزهر .

ومن أشهر شعراء الأزهر القديم شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى (— ١١٧١ هـ) وله ديوان شعر مشهور ومطبوع ، ومن قصائده المشهورة قصيدته :

بحقك أنت المني والطلب وأنت المراد وأنت الأرب

وكذلك شيخ الأزهر الشيخ الحفنى المتوفى عام ١١٨١ هـ.

ولا ننسى أن شعراء مصر فى عصر محمد على وإسماعيل كانوا من الأزهر — ومن بينهم :

- الخشاب — ١٨١٥ م .
- حسن العطار — ١٨٣٤ م .
- الشيخ حسن قويدر — ١٨٣٥ م .
- على الدرويش المصرى ١٨٥٣ م .
- محمد شهاب الدين المصرى ١٨٥٧ م .
- على أبو النصر المنفلوطى ١٨٨٠ .
- على الليثى ١٨٩٦ م .

ـ الشيخ نافع الجوهرى الخفاجى (١٨٣٤ ـ ١٩١٢) وكان شاعراً مجيدا ، وأديباً لايشق له غبار .

ومن أعلام الشعر المصرى الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر ، (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨ م) . وله ديوان شعر مطبوع .

كما لا ننسى اثر الإمام محمد عبده فى الحركة الشعرية فى العصر الحديث ، فهو الذى احتضن الشعراء حافظ ابراهيم ، وأحمد محرم ، ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، كما احتضن الشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى وعاونه معاونة فعالة كريمة .

والشيخ حسين المرصفى كان المرجع للبارودى فى كل مشكلات الشعر ، كما كان الشيخ محمد البسيونى الأستاذ فى مدرسة الادارة (الحقوق) أستاذ شوقى وموجهه فى الأدب والشعر .

ومن أعلام شعراء الأزهر المعاصر :

ـ نافع بن محمد الخفاجى (ـ ١٩٤٠) .

ـ الشاعر السيد حسن القاياتى (٢٢ أكتوبر ١٩٥٧) .

ـ الشاعر محمد الأسمر ، وكان يلقب بشاعر الأزهر (١٩٠٠ ـ ١٩٥٦) .

ـ الشاعر ابراهيم محمد نجا (٣١ مايو ١٩٦٩) .

ـ الشاعر الدكتور كيلانى حسن سند (أول نوفمبر ١٩٧٩) .

ـ الشاعر عبد الحميد ربيع (١٩٧٨) .

ـ الشاعر صالح الشرنوبى (ـ ١٩٥١)

ـ الشاعر محمود أبو الوفا (يناير ١٩٧٩) .

ولا أحدثك عن شعراء الأزهر الأحياء ، فهم كثير ، والحديث عنهم طويل .

وبعد فإن الحديث عن أثر الأزهر في الحركة الشعرية خاصة ، والأدبية عامة ، حديث طويل ، والكلام فيه موصول . ويكفي أن يكون شعراء الازهر قد أحدثوا الكثير من التجديدات الشعرية على مر العصور ، فهم الذين جددوا في الشعر الصوفي والديني ، وهم الذين ابتكروا التاريخ الشعري الذي كان يعد علامة جمال وشاعرية ، حتى أوائل العصر الحديث ، وهم الذين تفننوا في شعر البديعيات ، وفي الغزل الصوفي ، وغير ذلك . . مما يعد من مظاهر تأثير الأزهر في حركة الشعر العربي .

الإمام محمد عبده رائد النثر الحديث

١٨٤٩ — ١٩٠٥

— ١ —

فى اليوم السابع من رجب ١٢٨٢ هـ ـ الثامن والعشرون من نوفمبر ١٨٦٥ م.

جلس الفتى : « محمد عبده خير الله » وسط أقرانه فى الجامع الأحمدى ، يقرأ معهم « شرح الزرقانى » ، ويشرح لهم نصوصاً منه .

وجاء شيخ مجذوب فوقف على الحلقة ، وهو يقول موجها حديثه للفتى : ما أحلى حلوى مصر البيضاء ، ويرد عليه الفتى : وأين هذه الحلوى ؟ ويجيبه الشيخ المجذوب : من جد وجد .

وصارت مصر حلماً فى مخيلة الفتى الصغير ابن : « محلة نصر » ـ إحدى القرى الواقعة بين دمنهور وشبراخيت على ترعة الانصارية ـ والذى ولد هناك عام ١٢٦٦ هـ /١٨٤٩ م ، من أبوين كريمين : عبده خير الله ، وجنينة الأم ـ من قرية : كنيسة أورين . وكان الفتى قد حفظ القرآن فى قريته ، وذهب إلى الجامع الأحمدى لتجويد القرآن عام ١٨٦٢ ، وبعد سنتين أخذ يحضر دروس العلم فى الجامع الأحمدى ، ولكنه كره التعليم ، لأن أسلوب التدريس كان معوقاً له عن الفهم .

وذهب إلى قريته حيث تزوج عام ١٨٦٥ ، وبعد أربعين يوماً من زواجه أجبره أبوه على العودة إلى طنطا ، وخرج الفتى من قريته إلى كنيسة أورين وهنا التقى بقريب لأخواله ، هو الشيخ الصوفى : درويش خضر ، الذى حبب إليه العلم والتعلم ، فذهب إلى طنطا ، وكان ماكان بينه وبين الشيخ المجذوب .

وبعد ثلاثة أشهر من حديثه مع المجذوب سافر إلى القاهرة ، والتحق بالجامع الأزهر — في منتصف شوال عام ١٢٨٢ هـ / فبراير ١٨٦٦ — وصار يشار إليه بالبنان بين لداته وأقرانه .

وفي عام ١٢٨٥/١٨٦٩ هـ علم بوجود الشيخ : جمال الدين الأفغاني في القاهرة ، فذهب إليه لزيارته في منزله بخان الخليلي ، واصطحب معه في الزيارة الشيخ : حسن الطويل — وكان بدء تعارفه بجمال الدين — ولكن زيارة الافغاني للقاهرة لم تستمر أكثر من أربعين يوماً ، حيث غادرها إلى الآستانة ثم عاد إلى القاهرة للمرة الثانية عام ١٨٧١ ومكث بها سنوات طوالا ، وكان الافغاني يسكن في حارة : الامير — بشارع محمد على (القلعة) — ثم في حارة اليهود . واتخذ من منزله ومن قهوة (البوسطة) بجوار الازبكية — وسميت فيما بعد قهوة — (متاتيا) مكاناً مختاراً ليلتقي فيـه بتلاميذه وأصدقائه ، من مثل : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وحسن عاصم ، وقاسم أمين ، وحسن عبد الرازق باشا ، والمويلحيين : إبراهيم ومحمد ؛ وسواهم .

وواصل محمد عبده تعليمه في الازهر وتخرج منه حيث نال العالمية منه عام ١٣٩٤ هـ / ١٨٧٧ م . وعين مدرساً في الازهر ، فقام بتدريس العقائد والعلوم العقلية ، كما عين عام ١٨٧٨ مدرساً بدار العلوم للتاريخ الإسلامي ، فقرأ لطلابه « مقدمة ابن خلدون » ، وعين في العام نفسه مدرساً للعلوم العربية بمدرسة : الألسن الخديوية ، حيث قرأ لتلاميذه كتاب : « تهذيب الاخلاق لابن مسكويه » .

وفي ٢٥ يونيو من عام ١٨٧٩ تنازل إسماعيل مضطراً عن العرش لابنه توفيق .

وعين الإمام محرراً في الوقائع المصرية ، ثم رقي محرراً أول ، واختار معه فيها : سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، وسيد وفا .

ولم تلبث الثورة العرابية أن قامت ، واشترك فيها محمد عبده ، وكان هو واضع صيغة القسم بالإخلاص للثورة ، وواضع صيغة تنازل توفيق عن العرش .

ولما فشلت الثورة قبض على محمد عبده ، وحبس ثلاثة أشهر ، حوكم فيها ، وصدر حكم بنفيه خارج مصر لمدة ثلاث سنوات ، وذلك فى ٢٤ من ديسمبر ١٨٨٢ م - ١٢ من صفر ١٣٠٠ هـ - فسافر إلى الشام ، ومنها إلى بيروت ، ولم يعد من المنفى إلا عام ١٨٨٨م /١٣٠٦ هـ .

ورفض الخديوى : توفيق إعادته لوظائفه العلمية ، خوفاً من تأثيره فى الشباب ، وعينه قاضياً فى المحاكم المصرية .

وفى عام ١٣١٠ هـ /١٨٩٢ م أنشئت بجهوده « الجمعية الخيرية الاسلامية » وكان من أعضائها : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وأحمد حشمت ، وحسن عاصم ، وسواهم ، واختير الإمام رئيساً لها عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م وفى هذا العام اختير عضواً فى جمعية : « إحياء الكتب العربية » حيث قامت بطبع « المخصص لابن سيده ، والموطأ لمالك ، ومقدمة ابن خلدون » وسواها من نفائس المخطوطات .

وفى الخامس والعشرين من المحرم ١٣١٧ هـ / الثانى من يونيـو عام ١٨٩٩ م عين الخديوى : عباس الثانى الإمام محمد عبده مفتياً للديار المصرية وقال الخديوى لعاصم باشا : قل لصديقك إننى أعترف أن هذا المنصب قليل عليه ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها .

وفى الخامس والعشرين من يونيو ١٨٨٩ م عين عضواً بمجلس الشورى القوانين ، واتجه إلى تربية الرأى العام فى الأمة تربية وطنية عالية .

وبحكم منصبه فى الافتاء عين مشرفا على المحاكم الشرعية ، فعمل على توسيع دائرة اختصاصها ، وعلى عدم حصر وظائف القضاء فى المذهب الحنفى وعلى تحضير الأحكام الشرعية التى يحتاج إليها القضاة ، وعمل فى السنة التى توفى فيها على إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى .

وكذلك بحكم منصبه فى الافتاء صار عضواً فى مجلس الأوقاف الأعلى عام ١٨٩٩ ، وأسندت إليه رياسة لجنة لاصلاح المساجد ، فوضع لائحة لاصلاحها عام ١٩٠٣ .

وقام الامام برحلات عديدة :

فسافر إلى باريس ولندن عام ١٨٨٤ وهو مقيم فى بيروت ، إذ دعاه أستاذه جمال الدين إلى باريس ، وأنشآ معاً جمعية : « العروة الوثقى » ومجلتها ، وكان الغرض من إنشاء الجمعية :

١ — الدعوة إلى قيم الاسلام الأصيلة فى التزام العدل فى إدارة شئون الأمة .

٢ — الحكم على أساس الدين .

٣ — العودة إلى روح الاسلام .

٤ — انقاذ مصر والسودان من براثن الاستعمار الانجليزى .

وفى الخامس من جمادى الأولى عام ١٣٠١ هـ — الثالث عشر من مارس ١٨٨٤ م صدر العدد الأول من مجلة العروة الوثقى من أجل :

١ — الدعوة إلى الجامعة الاسلامية .

٢ — وليث فكرة الرابطة الشرقية .

٣ — وحل المسألة المصرية والسودانية .

وصدر من المجلة ثمانية عشر عدداً ، مع محاربة الاستعماريين والحكام لها ، حتى أغلقت فى ٢٦ من ذى الحجة ١٣٠١ هـ — ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م .

وفى عام ١٩٠١ زار الآستانة ، وفى عام ١٩٠٣ زار تونس ولندن وجامعاتها ، والتقى بالعلماء والمستشرقين ، وتحدث معهم عن الاسلام ، وفى يناير عام ١٩٠٥ زار السودان .

وأخيراً : توفى الامام فى الثامن من جمادى الأولى ١٣٢٣ هـ — الحادى عشر من يوليو ١٩٠٥ — عن سبعة وخمسين عاماً ، وبكته الأمة بكاء حارا ، رحمه الله .

— ٢ —

حمل الامام : محمد عبده رسالة الاصلاح الدينى فى عصره بعزيمة وقوة ، وكان يرى أن الاسلام صديق العلم والمدنية ، ويدعو إلى تحرير الفكر من قيود التقليد .

نقرأ ذلك فى : رسالة التوحيد ، وفى الاسلام والنصرانية والعلم والمدنية ، وفى رسالته فى الرد على هانوتو عام ١٩٠٠ ، وفى رده على فرح أنطون ، الذى رمى الإسلام بأنه عدو العقل ، وذلك فى المجلة التى يصدرها واسمها : (مجلة الجامعة) .

وكان سعيه دائماً يتجه إلى اصلاح الأزهر ، وكان يقول : أريد أن أعمل فى الأزهر شيئاً نافعاً ، وفى ١٢ رجب ١٣١٢هـ/١٥ يناير ١٨٩٥ استصدر قانوناً تمهيدياً باصلاح الأزهر ، ألف فى ضوئه مجلس إدارة للجامع الأزهر ، وكان هو والشيخ سلمان عضوين فيه .

واستطاع بحكمته أن :

- يأخذ من الحكومة ثلاثة آلاف من الجنيهات لإصلاح ميزانية الأزهر .
- وأن يضع قواعد منح كساوى التشريفات .
- وأن ينظم أوقاف الأزهر .
- وأن يعدل نظام صرف الجراية .
- وأن يكون مكتبة الأزهر من مكتبات الأروقة المتعددة .
- وأن يعنى بمساكن العلماء والطلاب .
- وأن يدخل العلوم الحديثة فى مناهج التعليم فى الأزهر .
- وأن يمنع دراسة الحواشى والتقارير فى السنوات الأولى من التعليم فى الأزهر .

وفى مجال التعليم حرص على تعميم التعليم الدينى ، وعلى تيسير التعليم أمام أبناء الشعب ، ودعا إلى الإكثار من إنشاء المدارس الليلية والنهارية ، وإلى تشجيع الأكفاء من المدرسين والطلاب .

وبفضل الإمام أنشىء مجلس : للمعارف الأعلى فى ٣١ مارس ١٨٨١ م ، واختير عضواً فيه .

وقد دعا الإمام إلى تعليم البنت تعليما صحيحاً ، ودعا إلى إنشاء الجامعة وإلى إنشاء مجمع لغوى فى القاهرة .

وفى أثناء إقامته فى بيروت عام ١٨٨٥ م ، ١٣٠٣ هـ اختير لتدريس التوحيد والمنطق والفقه الحنفى والعلوم العربية فى المدرسة السلطانية التابعة لجمعية المقاصد الخيرية فى بيروت . وقد درس فيها كتاب نهج البلاغة ،

وكتاب : الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمدانى ، ومقامات البديع ، وديوان الحماسة .

وأثناء وجوده فى بيروت كان يكتب مقالات فى مجلة : ثمرات الفنون وترجم رسالة الرد على الدهريين ، وكتب رسالة التوحيد ، إلى غير ذلك من جوانب الإصلاح . وألف هناك جمعية : التأليف والتقريب للعمل على إيجاد تقارب روحى بين مختلف الطوائف الإسلامية .

وغاية التعليم السياسية عنده خلق الوعى فى نفس المتعلم ، حتى يميز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

ولما تولى الافتاء كانت فتاويه كثيرة :

١ – أفتى بجواز الاستعانة بغير المسلمين لنصرة الله وحفظ الأمة .

٢ – وفى الفتوى الترانسفالية أفتى :

– بجواز لبس القبعة .

– وبجواز أكل ذبائح غير المسلمين .

– وبجواز صلاة الشافعى خلف الحنفى .

– وبجواز التعامل مع صناديق التوفير .

وتزعم الإمام حركة الإصلاح الدينى ، وصار رائدا روحيا لمدرسة ضخمة ، أعلامها هم كبار رجالات النهضة والفكر والأدب والثقافة فى القرن العشرين – فى مصر وخارج مصر – .

وصارت له مدرسة ضخمة فى الأزهر ، من أعلامها : الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ : محمد مصطفى المراغى واطفى السيد وغيرهم .

هذا كله مع محاربة الاستعمار والخديوى له ولفكره الإصلاحى ، حتى كان الخديوى : عباس الثانى يقول عنه :

« إنه يدخل على وكأنه فرعون » .

وكان الامام يرد على ذلك ، ويقول : أنا فرعون أم هو ، أنني لست إلا واحدا من رعيته .

وغضب عباس على أحمد شفيق باشا لأنه مشى فى جنازة الإمام ، وقال عباس عن الإمام : « إنه عدو للاسلام وللمسلمين وللعلماء » .

وهذا منتهى الإفك والبهتان ! !

وكان الإمام أول من نادى بالجمهورية ، ففى ١٧ من أغسطس عام ١٨٨٤ قال فى لندن لمندوب الغازيت : إننا لا نريد ملكا علينا ، بل زعيما وطنيا مسلما ، لأن الخديو بين وجوههم عصرية وقلوبهم انجليزية .

وكان الإمام يدعو إلى الوحدة الوطنية ، وإلى تعليم البنت ، وإلى الحد من تعدد الزوجات ، وإلى أن يفيق المسلمون فى كل مكان من سباتهم ، وأن يعيشوا فى عصرهم بروح أسلافهم المسلمين العادلين ، وقد شقى الإمام بالسياسة والساسة ، ولكنه عاش ملء قلبه مؤمنا بالقيم والخلق والدين ، وبعقيدة السلف ، وبما أجمع عليه جمهور الأمة ، وعاش حياته عاملا من أجل الله والوطن والإنسانية ، والفضائل العليا ، لايجامل فى الحق ، ولا يخشى فيه لومة لائم .

حدث وهو قاض أن أحدث أجنبى ضجيجا فى المحكمة ، فأمر الإمام بحبسه ، فبعث المستشار الانجليزى لوزارة العدل إلى الإمام يرجوه الافراج عن هذا الأجنبى ، لأن السفراء الأجانب ثائرون ، فأبى الامام ، وقال إننى فى حدود القانون أعمل على حفظ كرامة القضاء .

وكم ثار فى وجه أعوان عباس ، لأنهم كانوا يحاولون أن ينهبوا أوقاف المسلمين لسيدهم الخديوى .. وكان الجميع يمالئونهم إلا الامام .

وكان الامام يمثل شموخ المصرى وإباءه ، وأنفته وكبرياءه ، وعزة نفسه وشممه .

— ٣ —

وقد دعا الإمام إلى إصلاح أساليب اللغة فى التحرير وقد كانت تقوم فى عصره على كلام رث غير مفهوم : فى دواوين الحكومة وأسلوب مسجوع بعيد عن الفهم ثقيل على السمع فى كلام الأدباء ورجال الأزهر .

أما إصلاحه اللغوى : فقد بدأه بإصلاح أسلوبه نفسه . فقد كان متأثراً بأسلوب الأزهريين . ثم أخذ من روح جمال الدين فقوى أسلوبه . وترك السجع والمقدمات وتجمل بتدفق المعانى فى سلاسة وقوة ، ثم أخذ يلفت نظر الكتاب والصحف إلى سوء أسلوبهم حتى حذوا حذوه .

ونشر فى بيروت (مقامات الهمذانى) و (نهج البلاغة) مشروحين مضبوطين ليتغذى بهما الناشئون .

وكان من دروسه فى مصر درس البلاغة على النمط الذى يربى الذوق . ويرقى الأسلوب . وقرأ كتابى (دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة) لعبد القاهر .

وأسس فى مصر (جمعية إحياء الكتب العربية) لنشر كتب اللغة مصححة مشروحة .

وعهد إلى الأستاذ سيد المرصفى تدريس كتب الأدب بالأزهر مثل الكامل للمبرد ، ولم يكن ذلك معروفا ، فكان عمله نهضة أدبية لغوية ، تأثر بها الأدباء والأدب ، وحول الكتابة من مسجوعة سخيفة فارغة المعانى إلى كتابة مرسلة جميلة يعنى فيها بالمعانى .

وعمل على إيقاظ الرأى العام بالتعليم وعن طريق الصحافة النزيهة — إلى غير ذلك مما قام به من أعمال جليلة .

وقد تطور النثر الأدبي على يدى الإمام محمد عبده تطوراً كبيراً فى كل شىء : سواء فى أسلوبه أم فى أفكاره ومعانيه ومضامينه ، وانتقل النثر على يدى الإمام إلى مرحلة جديدة ، مما عد الإمام بسبب ما أحدثه فى النثر رائداً فيه ، كما كان البارودى رائد فى الشعر .

كما لا ننسى أثر الإمام محمد عبده فى الحركة الشعرية فى العصر الحديث ، فهو الذى احتضن الشعراء حافظ ابراهيم . وأحمد محرم ، ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم ، كما احتضن الشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى وعاونه معاونة فعالة كريمة .

والشيخ حسين المرصفى كان المرجع للبارودى فى كل مشكلات الشعر ، كما كان الشيخ محمد البسيونى الأستاذ فى مدرسة الإدارة (الحقوق) أستاذ شوقى وموجهه فى الأدب والشعر .

فن المقـــالة

— ١ —

يرتبط فن المقال فى أدبنا الحديث بتاريخ الصحافة فى بلادنا ، وهو فن جديد ، نشأ فى أدبنا الحديث بتأثير اتصالنا العقلى بآداب الغرب .

ويختلف النقاد فى تحديد معنى المقالة وخصائصها الفكرية ، وأول ما يصفونها به ، أنها لا تخرج عن كونها تعبيراً عن إحساس الكاتب ، وعن آرائه الخاصة فى الحياة .

فهذه دائرة المعارف البريطانية تذكر عن المقالة الأدبية أنها « قطعة مؤلفة » متوسطة الطول ، وتكون عادة منثورة فى أسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد ، وتعالج موضوعا من الموضوعات ، ولكنها تعالجه ـ على وجه الخصوص ـ من ناحية تأثر الكاتب به[1] .

ويصفها أحدهم ـ وهو الكاتب آرثر بنسن ـ بأنها تعبير عن إحساس شخصى ، أو أثر فى النفس ، أحدثه شىء غريب ، أو جميل ، أومثير للاهتمام أو شائق ، أو يبعث الفكاهة والتسلية . . ثم يسترسل فى كلامه ، فيقول : وهكذا تكون المقالة قريبة الصلة بالقصيدة من الشعر الغنائى ! ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بما يتيحه النثر من الحرية ، وباتساع الأفق ومقدرتها على أن تتناول نواحى يتحاماها الشعر . . ثم يستطرد « بنسن » فيصف لنا كاتب المقالة بأنه شخص يعبر عن الحياة ، وينقدها بأسلوبه الخاص . . إنه

(١) محاضرات عن فن المقالة الأدبية ـ للدكتور محمد عوض محمد .

لا ينظر إلى الحياة نظرة المؤرخ .. أو الفيلسوف .. أو الشاعر .. أو القصاص ولكن في فنه شيئا من هذا كله .. إنه ليس يعنيه أن يكشف نظريات جديدة أو يوجد الصلة بين أجزائها المختلفة ، إن طريقته في العمل أدنى إلى ما يسمى الأسلوب التحليلي : يراقب ، ويسجل .. ويفسر الأشياء كما تبدو له .. ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها ، والغاية في هذا كله أنه يحس إحساسا عميقا بصفات الأشياء ، وبسحرها ، ويريد أن يلقي عليها كلها نورا واضحا رقيقا ، لعله يستطيع بذلك أن يزيد الناس حبا في الحياة ، وأن يمدهم لما اشتملت عليه من المفاجآت المفرحة والمحزنة[1] .

وعلى هذا النحو نجد المؤرخ « هـ . ب . تشارلتن » أستاذ الأدب في جامعة مانشستر يقول عن المقالة الأدبية : إنها في صميمها قصيدة وجدانية ، صيغت نثرا .. لتتسع لما لا يتسع له الشعر المنظوم ! ثم يضيف : إن الأسلوب الجيد في المقالة يجب أن يكون « ذاتيا » لا ينبني على أساس عقلي ، ولا ببسط حقائق موضوعية[2] .

تلك هي ـ في إجمال ـ آراء الغربيين في تعريفهم للمقالة الأدبية .

وهذه الآراء ـ أو الأوصاف ـ نفسها نصادفها عندما نستعرض ما كتبه عنها بعض المعاصرين من الكتاب العرب كالدكتور محمد يوسف نجم فهو يعرف المقالة الأدبية بأنها قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من التكلف والرهق ، وشرطها الأول أن تكون

---

(١) المصدر السابق .

(٢) فنون الأدب تأليف ، تشارلتن ، تعريب الدكتور زكي نجيب محمود .

تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب[1] .

والدكتور محمد عوض محمد يذكر فيما يذكره ، في محاضرة من محاضراته أن المقالة الأدبية الموفقة تشعرك وأنت تطالعها أن الكاتب جالس معك يتحدث إليك . . وأنه ماثل أمامك في كل عبارة وكل فكرة[2] .

والعقاد يرى أن من شروط المقالة الحديثة أنها ينبغي أن تكتب على نمط المناجاة ، والأسمار ، وأحاديث الطرق بين الكاتب وقرائه ، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة أو الافضاء بالتجارب الخاصة ، والأذواق الشخصية[3] .

ونعمات أحمد فؤاد في دراستها لأدب المازني — الذي ترى فيه كاتب المقالة الأول في الأدب العربي الحديث — تقول في حديثها عن المقالة: إنها ليست دراسة . . ولكنها كلام ليس المقصود به التعمق والتركيز ، وهي في مدلولها الحديث ثرثرة بليغة محببة . . يبدأ صاحبها ولا يعرف كيف ينتهي[4] .

---

(١) أدب المقالة للدكتور محمد يوسف نجم .

(٢) محاضرات الدكتور عوض .

(٣) فرنسيس باكون للأستاذ العقاد .

(٤) أدب المازني للدكتورة نعمات أحمد فؤاد . . ومن الجدير أن نشير هنا إلى ما تراه الكاتبة من أن المقالة بمدلولها الحديث الذي لا يعترف بالتنظيم والتبويب والمنطق نجدها عند الجاحظ فالبيان والتبيين مثــلا بأجزائه الثلاثة مجموعة مقالات تقوم الواحدة منها على فكرة يستطرد منها الجاحظ إلى فكرة أخرى وإن لم يجمعها رابط . . والكاتبة تخالف الرأي السائد في أن مولد المقالة إنما كان في الغرب .

أما عن موضوع المقالة الأدبية .. فيمكن القول : أن كل ما يوصف به — في كلمة موجزة — موضوع المقالة الأدبية ، هو « اللامحدود » إن جاز هذا التعبير ! .

إن كل موضوع بالنسبة للمقالة الأدبية ملائم لها .. أو كما يقول الدكتور أحمد أمين : كل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعا : من الذرة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك ، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، ومن أقبح قبيح إلى أجمل جميل ، ومن الحياة إلى الموت ، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة ، ومن كل شيء إلى كل شيء [1] :

والمعروف عند نقاد الأدب الغربي ، أن أول ظهور للمقالة بالصورة التي عرفت بها كان في سنة ١٥٨٠ ميلادية حينما ظهرت مجموعة مقالات الكاتب الفرنسي الحكيم « مونتين » . ويروى عنه أنه رأى في مدينة « بارلي » بفرنسا صورة رسمها لنفسه « رينيه » ملك صقلية فسأل مونتين نفسه قائلا : لماذا لا يباح لكل إنسان أن يصور نفسه بالقلم على هذا النمط كما صور ملك صقلية نفسه بالألوان والخطوط ؟ وقد استطاع مونتين أن يرينا في مقالاته جوانب شتى من شخصيته وأسلوب حياته ، حتى قيل عنه « إنه أول من قال بوصفه أديباً ما شعر به بوصفه إنساناً » .

فأول ميزة للمقالة هي أنها تعبير عن وجهة النظر الشخصية وقد تطورت كتابة المقالة منذ عهد « مونتين » ولكنها مع ذلك لا تزال محتفظة بأبرز ميزاتها وهي تناول الموضوعات من وجهة النظر الشخصية . وقد أصبحت

---

(١) فيض الخاطر — جزء أول — الدكتور أحمد أمين .

هذه العلاقة الأكيدة بين الكاتب والمقال الذى يكتبه هى السمة الدالة والعلاقة التى تميزها من سائر ضروب الكتابة النثرية .

وتمتاز المقالة فى العصر الحاضر بالإيجاز . ولكنها لم تكن كذلك فى مختلف مراحل تقدمها . فقد جاء وقت كانت المقالة تستغرق عشرات الصفحات، وقد كان « ما كولى » و « كارلايل » من أقدر كتاب المقالة فى الأدب الإنجليزى خلال القرن التاسع عشر ، ولكن مقالاتهما كانت طويلة ضافية ، أقرب إلى أن تكون بحثا شاملا مع احتفاظها بالمميزات الأصيلة للمقالة ، والمقالة بطبيعتها لاتحاول – قصرت أو طولت – استيفاء الحقائق جميعها أو حشد المعلومات الغزيرة ، وإنما يختار كاتب المقال جوانب من الموضوع الذى يطرقه ، ويعرضها للبحث والنظر ، ويسلط عليها أضواء فكره ، ويلونها بلون شخصيته ، وهو فى هذا العرض يكشف عن مدى قدرته الفنية ، لأن عليه أن يتحرى إظهار النواحى التى تثير الاهتمام بموضوعه ويغفل التفصيلات المملة ، ولا يستلزم هذا البراعة وحسن التأنى فى اختيار الموضوعات فحسب ، بل يستلزم كذلك القدرة على انتقاء المواد المناسبة ، وإنماء الفكرة ، وتحديد الهدف ، ولا بد من أن يرزق كاتب المقالة الجيــد إجادة الاستهلال وبراعة المقطع .

الغاية الأساسية للمقالة هى الإمتاع . فإذا انحرفت المقالة عن هذا الهدف الرئيسى ، أصبحت غايتها إعطاء دروس فى الأخلاق ، أو عظات أدبية ، أو رسم صورة قلمية ، أو سرد قصة عاطفية ، أو أى لون آخر من ألوان الأدب ، والمقالة بطبيعتها تقدم لك الكاتب كما تقــدم لك الموضوع الذى يكتبه بوحى من شعوره وفكره والحالة النفسية المستولية عليه .

واستجابة الكاتب للحالة النفسية الغالبة عليه وصياغتها ، قد يكون

باعثها تبرمه بعادة من العادات، أو كراهيته لتقليد من التقاليد، أو ارتياحه لشدو طائر منفرد ، أو إعجابه بصفة تستوجب الإعجاب ، أو تأثره بوعكة طارئة ، أو تسجيل خاطره عابرة ، فالحالة التي تحدثها أمثال هذه الأمور هي موضوع المقالة ولب لبابها .

ومادامت المقالة تتناول موضوعا يعبر من عقل الإنسان وشخصيته ، فلا بد أن تكون حرة طليقة غير خاضعة لدعوة من الدعوات ، أو محبذة لمبــدأ من المبادىء ، أو مسخرة من أجل عقيدة من العقائد ، أو مذهب من المذاهب .

ولكي تتوفر للمقالة هذه الصفات ، وتتحدى العقبات القائمة في طريقها ، والمغريات التي قد تميل بها عن هدفها الأصيل وهو المتعة وحسن التعبير عن حالة الكاتب وإنماء فكرته ، لابد من إجادة تصميم المقالة ومراعاة الانسجام بين الفكرة وأسلوب الأداء ، والمقالة في العادة تقوم على فكرة رئيسية ، وعلى الكاتب أن يختار اللفظ الملائم الذي لا يبعده عن الهدف المقصود ، فالوحدة والتماسك والتدرج في الانتقال من خاطرة إلى خاطرة أخرى من الخواطر التي تتجمع حول موضوع المقال ، من ألزم ما يلزم في أدب المقالة ، والمقالة قبل كل شيء عمل فني يستدعي إتقانه والبروز فيه اقتران الموهبة بالممارسة والتجربة ، فتلتقي حينئذ في كاتب المقال الصفات العقلية بالمزايا الشخصية لأنها ـ أي المقالة ـ تعبير عن وجهة نظر خاصة .

وهناك تجاوب بين التطورات التي حدثت في كتابة المقالة والأحوال التي أحاطت بكتابتها ، فهي مثل سائر فروع الأدب ، تتأثر بالبيئة وتعمل على أن تلائم بين طبيعة فنها وبين التيارات الفكرية ، والاتجاهات النفسية ، والأحوال الغالبة ، وربما كانت الصحافة أقوى المؤثرات في كتابة المقالة

الحديثة ، فالصحافة تتحرى خدمة عدد ضخم من القراء مختلفى المشارب والأذواق ومتفاوتى القدرة على الفهم والتقدير ، ولما كان الكاتب يكتب المقال ليمتع القارىء ، لذلك أصبح لزاما عليه أن يراعى أحوال القراء الاجتماعية ومدى ما يملكون من الوقت ، فمن القراء من يحاولون قراءة المقال وهم فى إحدى مركبات الترام أو السكة الحديدية فى طريقهم إلى مقار أعمالهم التى تستأثر بوقتهم وجهدهم ، ومنهم من يعمد إلى قراءة المقال بعد عودته من عمله متعباً ، هذا فضلا عن تفاوت المستويات الثقافية ومعايير القيم والتقدير .

والمقالة فى الأدب العربى ليست من فنون الأدب المجهولة ، فكانت قديماً تعرف باسم الرسالة ، وليس المقصود الرسائل الديوانية أو الرسائل التى تتبادل بين الكتاب ، وإنما المقصود الرسالة التى كانت تدور حول موضوع يختاره الكاتب ، مثل رسائل الجاحظ وابن المقفع وابن شهيد وغيرهم من كتاب العرب ، ولكن المقالة فى الأدب العربى الحديث مختلفة بطبيعة الحال عما كان يعرف قديما بالرسالة ، فقد تأثر كتاب المقالة الحديثة بالاتجاهات السائدة فى الآداب الغربية ، وفى الحق أن تاريخ المقالة العربية الحديثة متصل اتصالا وثيقاً بتاريخ الصحافة فى الشرق الأوسط ، ومعنى ذلك أنه يرجع إلى عهد غزو نابليون بونابارت للشرق ووجود المطابع الحديثة وإنشاء الصحف ، وهذه العلاقة الأكيدة بين تاريخ الصحافة فى الشرق الأوسط وكتابة المقالة ، جعل ظهور المقالة الأدبية مقترنا ومعاصراً لظهور المقالة الصحفية ، وقد ظلت الجرائد فترة طويلة محتفظة بطريقة المقال الافتتاحى ، وكان يدور فى الغالب حول الموقف السياسى وما يعرض فيه من الأحوال والتقلبات والإصلاح الاجتماعى بوجه عام ، ومحاولته إيجاد

وعى قومى ، وحينما تألفت فى مصر الأحزاب السياسية ، رأى زعماء الأحزاب أن يكون لكل حزب جريدة تعبر عن وجهة نظره وتؤيد مبادئه ، وكان يراعى فى كتابة المقال الافتتاحى المبادىء الأساسية التى تألف من أجلها الحزب .

وقد ظهر المقال الأدبى إلى جانب المقال الصحفى ، فالمقال الصحفى يتناول المشكلات القائمة والقضايا العارضة من الناحية السياسية ، والمقال الأدبى يعرض لمشكلات الأدب والفن والتاريخ والاجتماع ، وبضرورة الحال كانت المقالة الأدبية أقرب إلى طبيعة المقالة وفنها الأصيل من المقالة الصحفية ، وقد وجد بين كتابنا من استطاع الإجادة فى النوعين مثل عباس محمود العقاد ، فقد اشتهر فى مقالاته السياسية ، بحملاته الشعواء على خصومه السياسيين ، والدكتور حسين هيكل امتازت مقالاته الصحفية بالفقه القانونى والتأثر بالمذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة ، والدكتور طه حسين كانت مقالاته الصحفية تظهر فيها ذخائر اطلاعه على الأدب العربى والتاريخ الإسلامى .

واشتهر بعض الكتاب بإجادة المقالة الصحفية دون أن يكون لهم مشاركة مأثورة فى كتابة المقالة الأدبية ، ومن هؤلاء الكاتب الصحفى القدير عبد القادر حمزة ، وقد كان فى مقالاته الصحفية ، من أقدر الكتاب على الدفاع عن آرائه السياسية ، وأحمد حافظ عوض ، وكان يمزج مقالاته الصحفية بالفكاهة الطلية والسخرية اللاذعة ، والدكتور محمود عزمى ، وكانت تبدو من خلال مقالاته الصحفية ثقافته الاقتصادية واطلاعه على تيارات السياسة الغربية ، ومن أقدر كتاب المقالة الأدبية الخالصة ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران والآنسة مى وعبد العزيز البشرى ، ولا بد من

توفر شرط مهم فى كاتب المقالة الصحفية وكاتب المقالة الأدبية ، على السواء، وهو أن يعرف الكاتب كيف يكتب ، وأن يكون غزير العلم ،واسع الاطلاع ، متنوع الثقافة ، مع توقد القريحة ، ونفاذ البصيرة ، ودقة الملاحظة ، ورهافة الذوق ، حتى يعرف كيف يخلب القارئ ويستهويه دون أن يركب الشطط ويعتسف الطريق ، وكلما كان الكاتب موفور الحظ من الثقافة الأدبية جاءت مقالته محكمة النسج شائقة العرض قويمة التفكير متماسكة المنطق .

والمقالة الصحفية أو الأدبية معرض لدقائق الأحاسيس وشريف الخواطر ويمكن أن تكون مرآة جيدة الصقل تعكس صورة الكاتب وظلال العصر الذى يعيش فيه والبيئة الاجتماعية والسياسية التى تحتوى عليها . (١)

وإذا حاولنا دراسة المقالة عند أديب معاصر كالعقاد فإننا نلاحظ أنه لم يعن كثيراً باللون الأدبى الصرف من المقالة لاسيما فى طور أدبه الأخير، وإنما كان يلبس مقالاته فى العلم والاجتماع ثوب الأدب الشائق ، ومع هذا فإن ما كتبه مما يقع تحت هذا الضرب من المقالة كان يضمنه فى الغالب فكرة اجتماعية أو إنسانية سامية ، ففى مقال له فى « الهلال » (نيسان ١٩٥٠) عن زهرة الربيع » يقول فى خاتمته « ولعلنا لا ننتهى لهذه الأرض المضطربة أمنية هى أسلم لها وأكرم عليها من أن تتسع فيها رقعة الزهر ولو جارت على رقعة المصانع والمعامل والدكاكين » أو مقاله الذى نشره فى الهلال »(عدد تشرين الأول ١٩٤٧) بعنوان « حديث مع هرون الرشيد» ضمنه أكثر من متعة أدبية عابرة ورأيا خاصا فى حياة العرب السياسية من وجوه .

---

(١) راجع مجلة القافلة عدد رجب ١٩٨٥ هـ من مقال لعلى أدهم .

وهو على كل لون نتجلى فيه الحلاوة فى السرد ، والتماسك بين أجزاء الموضوع ، والفكرة المتكاملة بنفسها ، فلو توقفت عند فقرة معينة انتهت عندها مطالعتك ثم عدت لما يليها بعد انقطاع عن القراءة لما أحسست أنها دخيلة على البحث ، وإنما هى فى موضعها على قدرها الملائم ذات صورة منفصلة متصلة فى آن واحد .

أما « الشكل » فى مقالة العقاد الأدبية فغنى عن الوصف : بيان صاف متين ، وسبك جلى ، جيد متراص ، وطلاقة بفصاحة ، ولغة وضاحة لاتعوزها الصحة ولا الروعة ، ولا الفكرة الصائبة التى أنهكت درسا وتمحيصا ومعالجة .

فالمقالة لدى العقاد هى مزيج من الأدب والعلم والاجتماع معا ، وإن كانت الصبغة الطاغية عليها هى صبغة الأدب أسلوبا ولغة وشكلا ، ولكنها ذات موضوعات ليست أدبية خالصة فى الغالب ، وهكذا . والحديث عن أدب المقالة عند العقاد هو حديث عن المقالة الأدبية والعلمية والاجتماعية مجتمعة . ومقالاته التى كان يوالى نشرها فى « أخبار اليوم » نموذج صالح لذلك . وقد يكون العقاد على حق فى هذا الجمع إذ هو فهم المقالة كفهم الكاتب « دوجلاس ميد » لها ، حيث يقول فى كتابه « القراءة الجيدة » عن المقالة : « هى نزهة حافلة بالمفاجآت كاتبها القائد وقارئها الجندى فيها ، يجول الكاتب بين النقد اللاذع أو البحث فى الجمال أو التاريخ » وتلك ميزة فى نظرى لمقالة العقاد الجامعة : وأول مايلفت انتباهك فى مقالات العقاد تلك الاستهلالات البارعة العنيفة التى تصور من شخصية العقاد كثيرا من المعالم ، فتحس من أول وهلة أنك قد أخذت وانصرفت لتتبع مايكتب صاحب هذه البداية المتميزة بحق ، يقول الأديب « ما دوس » فى كتابه « المقالة وكتابتها » : أما بداية المقالة

فعلى غاية من الأهمية والبراعة والتأثير » ... وهذا بالضبط ما أشرت إليه كسمة بارزة فى مقالة العقاد .

والمادة فى مقالة العقاد ميسرة معدة تحس أن كاتبها قد ألم بدقائقها وأكب عليها درسا وتمحيصا وترتيبا ، ثم هى مسكوبة بنظام وإحكام بعد أن سارت فى مخيلة الكاتب أطوارا عديدة من التصميم ، وهـذا بالضبط ماذهب إليه الدكتور إسحق موسى الحسيني حين قال فى أدب المقالة من أن كاتب المقالة لابد من أن يرسم لها صورة مصغرة تحتوى على كل دقائقها وأفكارها وإلا فهى ضرب من التأنق اللفظى لاطائل تحته ولا غناء فيه إلا بضع أفكار تألفت بكد الذهن ، فتبعثرت في ثنايا الألفاظ بعثرة قبضة من الذر فى كيس من الرمل .

ولاتعوز العقاد الحقائق فى مقالته أبدا ، وإنما هو يحشدها لك حشدا مسلحا بعتاد البلاغة النفاذة ، وهكذا فهو أقدر على الإقناع والتأثير دون أن يجهد لهذا . وهى مادة قوامها لديه العمق بل التعمق أحيانا حتى ليهيم القارىء فى شبه مهامه من الأفكار والآراء الشائكة وهى ليست فى الغالب إلا جدا لاهزل فيه ولادعابة إلا قليلا ، أو هو هزل فى جد إن شئت ، ولكنه مصيب بكلا الأمرين أو بدونهما ما يبغيه فى قارئه من متعه وإيناس بما يدخله أحيانا من روح تلطيف بلذعات فما تحس فيما تقرأ له بسأم وإن كنت تحس أحيانا بتعب وأنت تغوص فى أجزاء بعض الآراء التى يعرضها ، أو حين تضطر لتقرأها من جديد مثنى وربما ثلاث ، وهى مقالة هادئة متزنة ولكنها قوية صلبة فيها كثير من العنف المكبوت ، أو الجبروت المتطامن على الأصح. أما ثقة العقاد فيها بنفسه فملؤها الاعتداد على الدوام . لهذا كان

عامل شخصيته فيما يكتب بارزا أجلى بروز فما تخطىء أسلوبه حواسك بين ركام من أساليب سواه وآثارهم . ولعل من آثار هذا الاعتداد أنه واحد من نفر ضئيل من الكتاب لا يستعمل ضمير المتكلم إلا جمعا على الدوام ، وقد يشت قلمه فيكتب بضمير المتكلم المفرد سهوا ، فيعود مستدركا يستأنف بضمير المتكلم الجمع .

إن روح النقد والتعالى والكبرياء والإقناع والقدرة على التأثير هى من أهم مقومات المقالة عند العقاد .

أسلوب طه حسين فى النثر الفنى

١٨٨٩ — الأحد ١٣٩٣/١١/٣ هـ ، ١٩٧٣/١٠/٢٨

- ١ -

طه حسين مزاج قوى بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : الأزهر وجامعة باريس . . ومن نبع المرونة الإنسانية نهل طه حسين من ثقافة الشرق والغرب ، وأجاد فى فهم الآداب القديمة والحديثة .

وتتركز ملامح شخصية طه حسين فى فكره الحر المستقل ، وروحه الخير الطموح ، وهيامه بالفن والأدب والجمال [1] .

ويمثل طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرازق وعبد الحميد بدوى ومصطفى مشرفة وأحمد أمين وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام والعقاد وأحمد حسن الزيات ومنصور فهمى مدرسة جديدة فى الفكر المصرى المعاصر .

ومنهج طه حسين الذى يصطنعه فى بحثه والذى سار على ضوئه فى دراسة الشعر الجاهلى منهج « ديكارتى » نسبة إلى ديكارت الذى شغف طه حسين بفلسفته وتأثر بها .

ولطه حسين آراء ، ومؤلفات عديدة فى الأدب والنقد والمجتمع .

ومن أساتذة طه حسين سيد بن على المرصفى وحفنى ناصف والشيخ محمد المهدى وأحمد زكى باشا ، وأخذ عنهم فهم النص ، وتذوق بلاغته ، والمستشرق

---

(١) ٢١ - ٣ج الهلال عدد فبراير سنة ١٩٦٦ من مقال لمحمود تيمور .

نالينو والمستشرق فييت وأخذ عنهما فهم الأدب العربى وأطواره وكل المقومات الأدبية التى تأثر بها هـذا الأدب ، وفى فرنسا حضر محاضرات دوكو فى علم النفس فى جامعة مونبلييه ، ومحاضرات إميل دوركايم وشلستيان بوجليه فى علم الاجتماع ، وتحت إشرافهما كتب رسالته فى الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون » وقد درس طه حسين الفكر اليونانى القديم وتأثر به ، كما تأثر بابن خلدون وأبى العلاء ، ويحتذى حذو أحمد لطفى السيد فى تفكيره .

وفى كتب طه حسين : أديب ، الحب الضائع ، فصول فى الأدب والنقد ، ألوان ، من بعيد ، لحظات ، صوت باريس ، صورة من تأثره بالثقافة الفرنسية

وقد اشترك طه حسين فى ترجمة كتاب الواجب لجون سيمون من الفرنسية ، وترجم « نظام الأثينيين » لأرسطو من اليونانية ، وروح التربية لغوستاف لوبون من الفرنسية ، ومن مؤلفاته . تجديد ذكرى أبى العلاء ، وقادة الفكر ، وفى الشعر الجاهلى ، ومن كتبه : من حديث الشعر والنثر ، وحديث الأربعاء ، والأيام ، والمتنبى .

— ٢ —

وطه حسين فرنسى فى أسلوبه ، فالجملة عنده وسط وأطراف ولعباراته انسجام واتزان ، ولهندسة كلامه موسيقى هى أظهر مايميز أسلوبه من الجانب الفنى ، ونثره يشبه نثر ملهم ، وهو فنان ، بارع شاعر بسطوة فنه يتعمد استعمال مواهبه ليكون لأسلوبه أكبر الأثر ، بما يحشده فيه من محسنات وحيل بيانية أو خطابية ، كالتكرار والاستهزاء وتساؤل العارف ، مع الحرص على النبض الموسيقى وسلسلة الحركة ، وتوازن الإيقاع فى أسلوبه والتدرج فى التصوير ، وموسيقى طه حسين فى أسلوبه وهندسته لجمله هما أوضح خصائص أسلوبه ،

وينجح طه حسين في الوصف عندما يتخلى عن تقاليده الأسلوبية و ينزل من قارئه منزلة الصديق .

إن أسلوب طه حسين فردى متميز الشخصية فقد تأثر في مطلع حياته بالمنفلوطي في أسلوبه و بأحمد لطفي السيد في تفكيره .

ومذهب طه حسين في النثر الفني هـو تطوير لمذهب المنفلوطي ، لخصائص الأسلوب عندهما تكاد تكون واحدة مع مقدرة طه حسين الفائقة .

وصلة طه حسين بأدب المنفلوطي صلة وثيقة ، حتي أنه كتب ثلاثا وعشرين مقالة في نقد « النظرات » ونشرها في مجلة اللواء ثم العلم الذى صدر في مارس ١٩١٠ ، ومع ذلك فحب طه حسين في مطلع حياته لأدب المنفلوطي جد شديد ، وكان طه حسين يقول : « لقد كنت أمقت « المؤيد » كل المقت إلا يوم ينشر فيه « نظرة » أو « أسبوعية » فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الإقبال » [1] وقد أشاد طه حسين بالمنفلوطي كذلك في بعض أحاديثه التى لم تجمع في كتاب بعد [2] .

وطه حسين صاحب مدرسة جديدة ، سار في أثر الكثيرون من أعلام الكتاب ، كما نهج نهجه تلامذته الجامعيون وهم نجوم النهضة الأدبية المعاصرة في الشرق العربي كله [3] .

---

(١) راجع ٨٧ و ٨٨ الهلال عدد فبراير ١٩٦٦ .

(٢) ص ٨٨ المرجع نفسه .

(٣) ١٢ و ٨٢ مع طه حسين - لسامى الكيالى سلسلة اقرأ عدد ١١٢ .

— ٣ —

ويقول الرافعى فى طه حسين :

طه عجيب التكوين جليل المواهب ، وهو مدين بنبوغه لتوقد ذهنه ودقة حسه وقوة ذاكرته ولباقة حديثه ومزايا عاهته . . ولو أنه انتهى كما بدأ لكان اليوم أحد عباقرة الدنيا . . ولكنه بلغ المنزلة المرجوة قبل الأوان لأسباب غير طبيعية ، فأعفى طبعه ، واطمأن إلى منصبه المضمون ومجده المكتسب .

طه علم الأدب ، يأخذ من كل شىء بطرف ، وأدبه أدب الصحافى يصرفه السرعة عن الإجادة ، وأسلوبه أسلوب الوادى المنحدر يشتد جريانه ويقل عمقه . .

« ذهنه لماع الذكاء ولكنه لا ينفذ وقريحته واسعة الحيلة ولكنها لا تخلق لذلك تجده مغسول الكلام لا أثر فيه لروعة الفن ولا لبراعة الفكرة ولكنه قوى الشخصية جياش الحركة عذب السياق جميل العرض ، وهو أشبه شىء بمهندس العرض فى بيوت التجارة يعرض البضائع فى « الفترينات » منسقة على نظام يملك البصر ، ولكنها تظل بعد التنسيق كما كانت قبل التنسيق ملك غيره ، وأحسبه إذا تنفس به العمر على هـذه الحال يعود رجلا له رأى مسموع فى التأديب ، ولكن ليس له أثر خالد فى الأدب ، ويلوح لى أن طه تعوزه العقيدة التى تحول بينه وبين التناقض بين ما يقول ويفعل » .

« أما العقاد فأكرهه واحترمه : أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه . قليل الإنصاف لغيره ، ولعله أعلم الناس بمكانى من الأدب ، ولكنه يتنفس على قوة البيان فيتجاهل حتى لا أجرى معه فى عنان .

« وأحترمه لأنه أديب قد استملك أداة الأدب ، وباحث قد استكمل عدة البحث ، قصر عمره على القراءة والكتابة فلا ينفك بين كتاب وقلم »
ومن آفة الذين يديمون النظر فى كلام الناس أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتكار القريحة ، وليس كذلك العقاد ، فإن رأيه لقوة عقله وسلامه طبعه يظل متميزاً عن رأى الكتاب مهيمنا عليه ، يؤيده أو يفنده ، ولكنه لا يسمح له أن يذوب فيه أو يتأثر به .

« أسلوب العقاد أسلوب الأديب الحكيم ، تبرز فيه الفكرة الدقيقة فى مجتلى من الفن الرفيع ، فيجمع بقوة تفكيره ودقة تعبيره طرفى البلاغة . . والعقاد مخلص لفنه فلا يخرج للناس مالا يرضاه ، فهو لذلك أبعد الأدباء عن استغلال شهرته واستخدام إمضائه » .

أسلوب العقاد

— ١ —

والعقاد الكاتب تسنده أصالة كبيرة وثقافة واسعة وخبرة وتجربة للحياة، ويعد أكبر كاتب عربي معاصر كما يقول د. شوقي ضيف[١]، وكتاباته تشيع فيها روح فلسفية قوية، وتحدث الناس عن عبقرياته طويلا[٢]، وقد شغل العقاد الناقد الكثير من الدراسات والدارسين[٣]. والدراسات الأدبية عند العقاد منوعة، ومنها دراسته عن «ابن الرومي» وقد استخدم مذهب التحليل النفسي فيها في فهم حياة الشاعر، وكذلك دراسته الأصيلة عن المتنبي في كتابه «مطالعات».

وقد عاش العقاد يرفض الشعر الحر، ويدافع عن العربية.

ويقول عثمان أمين[٤] فيه: العقاد أديب وفيلسوف ومن المفكرين المعدودين، وكتاباته تزود المكتبة العربية بذخيرة رائعة من مختلف الثقافات، وأدبه يتميز بالأصالة والاحتفال بالتجربة والمعاناة، والتعبير الجميل عن الشعور الصادق. والأدب ما هو إلا محاولة للفهم بتجربة شاملة، وتفكير الأديب ما هو إلا جزء من الحياة وفرع من الأبوة.

---

(١) ٥٧ مع العقاد - سلسلة اقرأ - لشوقي ضيف - عدد ٢٥٩.

(٢) راجع في مجلة الأزهر عام ١٣٨٦ مقالات لنعمات فؤاد عن عبقريات العقاد الإسلامية.

(٣) راجع كتاب عبدالحي دياب الضخم «العقاد ناقداً»، وهي رسالة نال بها الماجستير من دار العلوم وكان يكتب فيها في حياة العقاد.

(٤) راجع ص ١٣ وما بعدها من كتاب نظرات في فكر العقاد لعثمان أمين.

— ٢ —

والعقاد باحث معتد برأيه وناقد نافذ البصيرة ، وجدلى بارع الحجة ؛ والعقاد يرفض المحاكاة ، والفن عنده مراتب بحسب وفرة نصيبه من الحرية والإبداع والبعد عن المحاكاة(١) .

والعقاد يربط الجمال بالحرية، وكان ذلك رأى شلى الشاعر الإنجليزى الكبير وقد توسع العقاد فى معنى الحرية ، فلم يقتصر على فهمها بالمعنى الإرادى البشرى، بل جعلها تتسع لبعض الأشياء الطبيعية الماثلة ، فالجمال والحرية عنده وجهان لحقيقة واحدة ، وربط الجمال بالحياة أيضاً من خلال وسيط مهم هو الحرية .

والعقاد مع مابلغه من المنزلة العالية فى النثر الأدبى ، ومع ماأحدثه من التطور فى الأسلوب ، هو شاعر ، وشاعرية العقاد يمثلها ديوانه بأجزائه الأربعة ، التى سماها : يقظة الصباح ووهج الظهيرة وأشباح الأصيل وأشجان الليل ، وقد أعاد نشر هذه الدواوين عام ١٩٢٨ م .

ثم نشر للعقاد ديواناه : وحى الأربعين وهدية الكروان عام ١٩٢٣ ، وفى عام ١٩٣٧ نشر ديوانه عابر سبيل ، وفى عام ١٩٤٢ نشر ديوانه «أعاصير مغرب » وكان قد نيف على الخمسين من عمره ، وفى عام ١٩٥٠ نشر ديوانه « بعد الأعاصير » وهذه كلها ثروة شعرية أصيلة تمثل جانب تجديدياً واضحاً فى شعرنا المعاصر .

---

(١) مجلة القافلة - رمضان ١٣٨٥ هـ - من مقال لزكريا إبراهيم .

أسلوب الرافعى

— ١ —

الرافعى بدأ يتأثر فكر الإمام محمد عبده وينهج نهجه ، وكان يرفع من منزلته ، ويقول عنه إنه نبى تأخر عن زمنه ، فأعطى الشريعة ولكن فى عزيمته ووهب الوحى ولكن فى عقله ، واتصل بالسر القدسى ولكن من قبله .

وبعد الإمام قاد مصطفى كامل حركة النضال الوطنى ، وأيده الرافعى بكل قوته ، وكان مصطفى ينوه به وبييانه ، ويقول عنه : « سيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان » .

وحين قامت ثورة تسعة عشر وتسعمائة وألف ، بزعامة سعد ، وهو من تلامذة الإمام محمد عبده ، تجاوب الرافعى معها ، وكتب عنها ، وصورها فى أدبه ، وَفى مقالاته المنشورة فى الجزء الثانى من وحى القلم » ، بعنوان « أحاديث الباشا » صور لها نابضة بالحياة ، وكانت صلة الرافعى بسعد وثيقة وأثنى سعد على بلاغته ، فقال فى أدبه : « بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » .

وحول كل هذه الثورات الوطنية التى عاصرها الرافعى ، واشترك فيها ، كانت تدور مختلف التيارات الفكرية والأدبية فى عصره .

كان الناس يتخاصمون فى مذاهب الفكر ، بين مشايعين لحضارة الشرق وثقافته ، أو لحضارة الغرب وعلومه ، فوقف الرافعى مع حضارة الإسلام وتراثه ، مع الفكر العربى المتحرر المقتبس من كل ما فى الحضارات الإنسانية من جديد مفيد ، وهذا هو اتجاه الأستاذ الإمام ودعوته .

وظهر الرافعى فى حقبة من الزمن ، كان الأدب فيها حائراً بين مذاهب المحافظين ، ومذاهب المجددين ، من رومانسيين ورمزيين وواقعيين وغيرهم ، ممن يتأثرون خطا الآداب الأوربية ، فى إفراط حينا ، واعتدال حينا آخر ، فآثر الرافعى أن يكون أدبه تيارا وحده ، يسير مع تيار المحافظين ، ويخاصم مذاهب المجددين ، يبعث الحياة فى التراث القديم ويأخذ منه ، ويتمثله فى أسلوبه ، يجدد من صوره وينشر ما طوى من بلاغاته ، على نمط لانجد له نظيرا فى آثار المعاصرين .

ويختلف النقاد فى عصره ، فى منزلة الأدباء وطبقات الشعراء ، وفى أدب المحافظين والمجددين اختلافا كثيرا ، والرافعى يشارك فى كل ذلك ، ويكتب حوله ، ويدخل فى معارك نقدية عميقة ، ويخرج منها ظافرا فى أغلب الأحيان .

كان البارودى والكاظمى وحافظ والرافعى هم شعراء الطبقة الأولى فى رأيه ، أما شوقى قبل منفاه فهو عنده من شعراء الطبقة الثانية ، وقال عن حافظ : « إنه ابن الإمام ، وعلى يديه تخرج وهو إحـــدى حسناته على العالم العربى » .

ولقد ترك الإمام محمد عبـــده أثره ، الثورى والإسلامى فى تفـكير الرافعى ، وكان هذا التأثير أقوى الأسباب فى منزلته الـكبيرة بين أدباء عصره ، لقد أصبح مفكرا إسلاميا رفيع المقام فى زمنه ، تعيش أجيال من الشباب المسلم فى العالم الإســـلامى على أدبه ، يعدونه إماما للفكر الأدبى الإسلامى فى العصر الحديث .

— ٢ —

وكان الرافعى بحق وكما وصف به ، كلة إسلامية جامعة ، تتلخص فى الدعوة الصادقة إلى أصول الإسلام وفضائله ، وما برح أدبه صفحة ناصعة من صفحات الإسلام ، وحجة باهرة من حجج الشرق والعروبة ، فى عصر شحيح بالأقلام المناضلة ، وليس فى الأدب الحديث مثيل لأدبه الإسلامى الذى حمل فيه لواء الدفاع عن الإسلام والشرق بعامة ، كما حمل فيه لواء الدفاع عن وطنه مصر بخاصة ، وكان أعظم مايكون قوة وانطلاقة حجة ، حين كان يكتب عن الإسلام ، شارحا أو مدافعاً .

كان الرافعى يرى أنه لن يعم الإسلام فى العالم إلا إذا عم الإسلام بأخلاقه، فشمل العالم ، وكان يكرر أن العودة إلى الإسلام وأخلاقه وقيمه من ضرورات الأخذ بأسباب النهضة ويقول : لم يكن الإسلام فى حقيقته إلا إبداعاً للصبغة العملية التى تنتظم الإنسانية فيها » .

ويقول متعجبا من حاضر المسلمين : « كيف يستوطىء المسلمون العجز وفى أول دينهم تسخير الطبيعة ، وكيف يستمدون الراحة وفى صدر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى ، وكيف يركنون إلى الجهل وأول أمرهم آخر غايات العلم » .

ويقول : إن المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وإن نبيهم أطهر من السحابة فى سمائها، ويرى أن الإسلام فى نفسه عدو شديد للتعصب ،وأن الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه .

وطالما دعا فى حماس قوى كل مسلم إلى أن يتخذ الرسول الأعظم،صلوات

الله عليه، قدوة ومثلا أعلى ، ويقول فى ذلك : أيها المسلم : لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبداً ، واجعله مثلك الأعلى،وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنك بين يديه ، كن دائما كالمسلم الأول ، كن دائما ابن المعجزة » .

ويرى المسجد فى حقيقته موضع الفكرة الإسلامية الواحدة ، المصححة لكل مايزيغ به الاجتماع . . ويقف متعجبا من كلمة الاسلام الكبرى«الله أكبر»فيقول يخاطب المسلمين فى روح ثائر : « لن يكبرعليكم شيء مادامت كلمتكم « الله أكبر » ويقول . « أى زمام سياسى للجماهير وروحانيتها أشد وأوثق من زمام هذه الكلمة ، التى هى أكبر مافى الكلام الاسلامى . إن المسلمين يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون الزمن إنهم الساعة فى وقت ليس منه ولا من دنياهم ،وكأنهم يعلنون أنهم بين يدى من هو أكبر من الوجود .

هذه هى فلسفة الرافعى الاسلامية ، وقد كانت ـ كما كانت فلسفة إقبال كذلك ـ ذات صدى عميق فى نفوس الملايين من المسلمين .

— ٣ —

وقد غلبت الصبغة الإسلامية على أدبه فى الروح والمضمون . وفى الأسلوب والشكل كذلك ،ومن تأثيرها فى أدبه هذه الفصول الرائعة التى تحدث فيها عن الحب العذرى ، وهى من أروع الفصول فى أدبنا الحديث ، وقد احتوتها كتبه : حديث القمر ، أوراق الورد ، السحاب الأحمر ، رسائل الأحزان ، ومن تأثيرها كذلك فى أسلوبه ، اقتباساته العديدة فى مختلف صوره البيانية من الإسلام وشتى أفكاره ومعانيه .

هذه هى أفكار الرافعى الإسلامية والثورية .. أما أفكاره السياسية فهى نبع من فكره الإسلامى ، وتمثل جانباً من روحه الثورى .

شعر الرافعى ونثره يمثلان حبه لوطنه ، وتمجيده له ، وما كتبه عن ثورة ١٩١٩ يتميز بأسلوب الأديب والمفكر الحكيم وتتضح فيه جزالة الفكرة السياسية الممزوجة بجزالة التعبير الأدبى ، كتب يصف الشعب وموقفه فى هذه الثورة فقال : « تعلم الشعب من دفن شهدائه كيف يستنبت الدم فينبت الحرية..والمقاومة اليوم أكبر شعار لأمتنا ، بما تنطوى عليه من بذل وتضحية» وقد عبر الرافعى عن هذا الشعار أبلغ تعبير فقال :ياشباب العرب ، إن كلمة «حتى»لاتحيانى السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها ، فاجعلوا رسالتكم إما أن يحيا الشرق عزيزا وإما أن تموتوا .

وشعارنا الآخر اليوم هو أننا بصمود إرادتنا قد حولنا نصر أعدائنا إلى هزيمة ، وهزيمتنا إلى نصر ، وقد سبق الرافعى فعبر عن ذلك أوجز تعبير وأدقه فقال . «ياشباب العرب من غيركم يجعل النفوس قوانين صارمة تكون المادة الأولى فيها : قدرنا لأننا أردنا » .

ويضع الرافعى محنة فلسطين موضعها الصحيح فيقول : ليست هذه محنة فلسطين ، ولكنها محنة الإسلام ، يريد المستعمرون ألا يثبت شخصيته العزيزة الحرة .

وسبق الرافعى فندد بالألقاب التى ألغتها الثورة ، وقال عنها : إنها ألفاظ فارغة من الأمر والنهى والوسيلة والشفاعة .

كما ثار على الامتيازات الأجنبية فى قوة وصلابة ، وعلى تناحر الأحزاب وتعددها .

ووقف من القصر موقف الند للند ، فثار فى مطلع شبابه على شوقى ، وجعله وهو شاعر القصر من شعراء الطبقة الثانية ، ونقد كذلك شاعر الملك

عبد الله عفيفي فى مدائحه الملكية، وثاوفى وجه الأبراشى ناظر الخاصة الملكية فى الثلاثينات من هذا القرن . وكان لذلك أثر « شديد » فى حياته .

وحمل الرافعى على الإقطاع فى عصره حملات شعواء ، كتب عن طفلين أخوين مشردين يناماں على عتبة بنك ، يقول : ياعجبا : بطفان جائعان فى أطمار بالية ، يبيتان على الطوى والهم ، ثم لايكون وسادهما إلا عتبة البنك ، نوى من الذى لعن البنك بهذه اللعنة الحية .

ويقول على لسان فقير يوجه الحديث إلى ابن أمير : لن تكون أميرا لشهادة عشرة آلاف دينار تضعها عند مومس ، ولـكن لشهادة هذا المـال عند عشرة آلاف فقير .

ويكتب فى إفاضة وتمجيد عن التابعى الجليل ، عالم المدينة ومحدثها ، سعيد بن المسيب ، الذى أبى أن يزوج ابنته للوليد ولى عهد عبد الملك ابن مروان على أن يكون مهرها وزنها ذهبا وزوجها لتلميذه الفقير ابن أبى وداعة على ثلاثة دراهم .

ويعطى المثل لاشتراكية الاسلام الرفيعة من حياة الرسول الأعظم ، صلوات الله عليه ، إذ دخل على على ابنته فاطمة ، رضى الله عنها ، فرأى على بابها ستراً ، وفى يديها سوارين من فضة ، فانصرف عنها ، ورجع دون أن يكلمها ، فأرسلت إليه تسأله السبب . وفى عينيها الدموع ، فبعث إليها صلى الله عليه وسلم يقول : لقد كان ذلك من أجل الستر والسوارين . فقامت إلى الستر فنزعته ، وإلى السوارين فبعثت بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيعهما ويتصدق بثمنهما على فقراء المسلمين ، فبيعا بدرهمين ونصف ، وتصدق بهما رسول الله على أهل الصفة ، وهم جماعة من قراء المسلمين وفقرائهم

وزهادهم، وهكذا : يعلمنا الرسول أن القزين بما ثمنه درهمان ونصف لايكون في وزن وضع ذلك المال عند فقراء المسلمين .

ويؤلف الرافعي في إحدى مقالاته مظاهرة من أبناء الشعب ، تهتف : إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لانستطيع أن ندفع لهم المصروفات .

ذلك كله أثر للثورة الفكرية التي ربي الرافعي فيها ، ونشأ عليها، والتي غرسها في روحه أستاذه الإمام ، والتي هي أثر « لتعاليم الثائر الإسلامي العظيم ، جمال الدين الأفغاني » .

الزيات وأسلوبه فى الأدب

— ١ —

فى صباح الخميس الثالث عشر من يونيو عام ١٩٦٨ ، والسابع عشر من ربيع الأول عام ١٣٨٨ هـ ، أى منذ سبعة عشر عاماً ، وعن ثلاث وثمانين سنة ، ـ توفى الزيات ، أحد رواد الأدب الحديث وأعلامه . وكان ميلاده عام ١٨٨٥ فى قرية كفر دميرة القديم مركز طلخا بمحافظة الدقهلية ، وبين المنصورة وطلخا ودمياط عاش الفتى الصغير يطلب العلم ويجلس إلى حلقات العلماء ، وقدم القاهرة ، ودرس فى الأزهر ، وتتلمذ على / سيد بن على المرصفى ، كما تتلمذ عليه طه حسين وزكى مبارك وغيرهما من أعلام العصر .

وقد وجهه المرصفى صوب الأدب وأغراه بقراءة كتب التراث ، وحبب إليه قراءة نهج البلاغة ومقامات البديع والحريرى ، والتزود بأدب ابن المقفع والجاحظ وابن عبد ربه والمبرد وغيرهم من أئمة الأدب ، وطبعه كذلك حفظه للقرآن الكريم منذ صغره على الأسلوب العربى البليغ ، وكان هو وطه حسين والزناتى أصدقاء الشباب والثقافة والأدب فى الأزهر وخارج أروقة الأزهر .

أخذ يتصل بالبيئات الأدبية خارج الأزهر ، فعكف على قراءة المنفلوطى وتأثر بمذهبه فى الأدب والبيان تأثراً كبيرا ، كما قرأ لغيره من أدباء العرب والمهجر الامريكى ، ولكن تأثره الشديد كان بمصطفى لطفى المنفلوطى ، الذى كان يشبهه فى النشأة الأدبية إلى حد كبير .

ومن مصطفى لطفى المنفلوطى أخذ الزيات العناية الشديدة بأسلوبه ، والحرص الشديد على أن يكون طابع أدبه رومانسيا ، وأن تكون نزعته

فى الأدب رومانسية المذهب والأسلوب ، ثم تعلم الفرنسية ، وطالت قراءاته لأدبها وأدبائها ، فزادت نزعته الرومانسية وضوحا وجلاء ، وظهر هذا الطابع فى كتاباته فى كتاب « تاريخ الأدب العربى » الذى أصدره عام ١٩١٦ وفى ترجمته لكتاب آلام فرتر لجوته (١٩١٩) ثم لكتاب روفائيل للامرتين بعد ذلك .

ويسأله غير واحد : لماذا ترجمت «آلام فرتر» ويجيبهم عن هذا السؤال فيقول فى وصف نفسه : « شاب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية ، وطبيعة المجتمع ، فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده ، واحساس مشبوب يتوقد بالجمال ، وقلب غريب يتحرق ظمأ إلى الحب ، فالطبيعة فى خيالى شعر ، وحركات الدهر نغم ، وقواعد الحياة فلسفة ، وكان فهمى لكل شىء ، وحكمى على كل شخص ، يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال ، وزور نتائجه المثل الأعلى . ثم فجر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة ، وأحسست أن وجودى الخيالى قد امتلأ ، وقلبى الصادى قد ارتوى ، وحسى الثائر قد سكن . ورحت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى ، حتى ذكرنى الزمن الغافل ، فأقام فيه عقبة . اصطدم الخيال بالواقع . فلما قرأت « آلام فرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ، ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح ، وأحسست حالا غير تلك الحال » .

* * *

وفى الوظيفة كان عمل الزيات فى مدارس الفرير بالخرنفش يصله بالأدب الفرنسى ، وكان محببا إليه أن يقرأ أعلام الادباء الفرنسيين من ذوى الميول الرومانسية ، وترجم حكم لافونتين شعرا ، ونال الليسانس

من كلية الحقوق بجامعة باريس عام ١٩٢٥ وسافر إلى بغـداد عدة أعوام أستاذا فى دار المعلمين العليا ، ثم عاد ليعمل فى الجامعة الامريكية فى القاهرة وإصدر كتابه « فى أصول الادب » وأخذ يفـكر فى إصدار مجلة الرسالة .

وفى الخامس عشر من يناير ١٩٣٣ تحقق الحـلم وصدرت الرسالة ، وكتب فيها كبار الـكتاب والادباء والشعراء والنقاد والعلماء ، ولم تلبث أن أصبحت مدرسة أدبية كبيرة ، يلتف حولها شيوخ الادباء ، كما يلتف حولها الشباب ، وكانت الرسالة بمثابة حلم جميل ينساب شعرا وسحرا فى أخيلة الشباب ، وكنا ننتظر يوم الاثنين من كل أسبوع ، على أحر من الجمر ، لنتلقف الرسالة ونقرأ لـكتابها وكنا نبعث إليها بآرائنا فى الادب والشعر والنقد فتنشرها وتنوه بها .

وكان كذلك للرسالة صداها العميق البعيد فى مختلف أنحاء الوطن العربى ، وتلاقى شباب الامة العربية وشيوخها على صفحاتها على كلمة سواء اخوانا متحابين ، وقد استمرت الرسالة فى الصدور عشرين عاما ، ثم احتجبت عن القراء فى الخامس عشر من فبراير عام ١٩٥٣ ، ورثاها الزيات فى أهرام ٢٢ من فبراير عام ١٩٥٣ بمقال عنوانه « الرسالة تحتجب » . وفى ٢٥ من يوليو ١٩٦٣ عادت الرسالة إلى الصدور من جديد بإشراف الزيات وكانت فى هذه المرة تصدر من قبل وزارة الثقافة ولكنها احتجبت بعد قليل .

— ٢ —

جمعت مقالات الزيات فى صدر الرسالة فى كتاب بعنوان « وحى الرسالة » نال عليـه جائزة الدولة عام ١٩٥٣ ، لما تضمنه من مذهب أدبى جديد يقوم على :

١ — تطعيم الفكر العربي الحديث بآثار الفكر الغربي .

٢ — العودة بالبلاغة العربية إلى طابعها العربي الأصيل الأول الذي يتمثل في نهج البلاغة ورسائل ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم ، ويتحلى بالإيجاز ، ورصانة الفواصل وقصرها ، وجمال اللفظ ووقع موسيقاه الساحر .

وقد نال عام ١٩٤٨ عضوية المجمع اللغوي في القاهرة ، بجانب عضويته في المجمع العلمي العراقي ببغداد ، والمجمع العلمي العربي في دمشق ، وعضويته في المجلس الأعلى للفنون والآداب في القاهرة ونال جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٢ في الآداب ، وصدر له بعد ذلك بعام كتابه « في ضوء الرسالة » .

لقد كانت الرسالة مدرسة أدبية متميزة ذات مذهب أدبي واضح ، يعمل على وصل الجديد بالقديم والشرق بالغرب ، والأصالة بالتجديد ، وعلى بعث الفكر الإسلامي بعثاً جديداً ، وعلى العناية بالأسلوب وجعله صورة للذوق الرفيع ، والطبع الساحر . وكان الزيات ينشر فيها بين الحين والحين مقالات عاصفة ، من مثل مقالته « يا رياح الخريف هبي » (عدد أكتوبر ١٩٥١) ، ومقالته : « ثوروا على القصر قبل أن يثور عليكم » ، ومقالته « فلاحون وأمراء » التي نقد فيها الطغيان السياسي نقداً لاذعاً ، ومقالته « عهد وأي عهد » (عدد ٢٦ من نوفمبر ١٩٣٤) .

ويروي الزيات في بعض مقالاته ثلاث قصص من حياته : قصة حبه لزميلته الفرنسية فرناند ، وقصة حبه للحسناء المصرية التي تزوجها بعد ، وقصة حبه للفتاة العراقية لورا .

وكان الزيات أحد معالم المنصورة فهو يسافر إليها كل أسبوع ، ويجلس على شاطئ البحر الصغير في مقهى جميل ، ومعه أصدقاؤه من الأدباء والشعراء

والنقاد وكان هذا المجلس المتميز يثير قضايا الفكر والأدب والنقد المتجددة، التي تحملها الرسالة كل أسبوع . . .

وكم تحدث الزيات عن الحب والجمال والطبيعة في المنصورة ، ومن قصصه القصيرة قصته « رجلان وامرأة » التي نشرت في مجلة الرواية التي كان يصدرها إلى جانب مجلته « الرسالة » ، وكانت مدرسة في فن القصة ، وبخاصة القصة القصيرة ، ومن قصصه فيها : قصة « الحب الأول » التي صور فيها حبا قديما له وهو صبي في الريف .

— ٣ —

وكان الزيات بحكم طابعة الرومانسي يحب الطبيعة حبا كبيرا ، ويحب من أجلها الريف ، وكم كتب عن الريف بكل أحلامه وآلامه ، ومن قصصه التي كان ينشرها في « الرواية » قصص تموج بصور الريف وبالحياة فيه بأحزانها وأشواقها ، وبطبائع الريف وعواطف الريفيين ونفسياتهم ، ومن بينها قصة « جلاد الشيطان » حيث نرى بطل القصة ينتظر حبيبته على أحر من الجمر ، ويقنع ان لم يرها برؤية أي شيء يتصل بها بسبب ، ككلبها الرابض على عتبة الباب أو حمارها الذي يتمرغ في التراب . . . وفي بؤس الريفيين في ظلال الاقطاع كتب مقالاته عن الثالوث الرهيب : المرض والفقر والجهل .

ومن « وحي الرسالة » في أجزائه الأربعة ، إلى دفاع عن البلاغة» كان الزيات موصول الفكر بالمنفلوطي وببديع الزمان الهمذاني وبالحريري .

وعاد إلى رصانته الأسلوبية من جديد في مقالاته في صدر مجلة الأزهر التي تولى رياسة تحريرها بعد قيام ثورة يوليو بأعوام قصار .

ومذهب الزيات في البلاغة والبيان مذهب الصانع الماهر ، الذي يتخير

الكلامه ماشاء له ذوقه أن يتخيره من لفظ رفيع ، وخيال بديع ، وتصوير بليغ . ويكاد يرجع بأسلوبه البيانى إلى مدرسة البديع ، فجعله موقعة ومصبوغه بأصباغ كثيرة من الحلى الجمالية البارعة .

والصدق فى الفن هو سر بلاغته عند الزيات ، وهو فى الأدب وضع اللفظ فى موضعه ، ووصف الشىء بصفته ، ومطابقة الكلام لمقامه . .

والجمال عند الزيات يرتبط بالذكاء والقوة والوفرة ، والذكاء عندالزيات مرادف للحرية عند العقاد ، فكل منهما يرى فى الجمال الطبيعى نظاما دقيقاً محكما يعبر عن تلاؤم وسائل الحياة مع غاياتها . وهو كذلك يربط جمال الطبيعة بانطلاقها وحريتها كما فعل العقاد .

والجمال الصناعى لابد له عند الزيات من القيود ، وعلى الفنان العمل على اخفاء تلك القيود ، حتى تظهر فى أعماله السمة الدالة على الطبع والالهام الحر ، ومن ثم رفض نظرية التقليد أو المحاكاة فى الفن لأن الجمال الفنى عنده أسمى من الجمال الطبيعى .

— ٤ —

ومذهب الزيات فى الحياة له أثره الكبير فى مذهبه فى الأدب ، ويقول الزيات من مقال له نشر فى « مجلة الوعى الباكستانية » : عام ١٩٦٠ لكل إنسان مذهب فى الحياة ، يبتدىء بأمله ، وينتهى بأجله ، كل نفس من أنفاسه خطوة عليه ، وكل دور من عمره مرحلة فيه ، فالمذاهب تختلف باختلاف الناس فى الطبيعة والبنية والوراثة والبيئة ، ومن الخير للبادئين الناشئين من الشباب أن يطيلوا النظر فى مذاهب المنتهين من الشيوخ . .

ويقول : إن مذهبه فى الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح ، وأنه قد

ألزمه هذا المذهب . طبعه الحر المسالم ، لأنه منذ حمل نصيبه من أعباء الحياة حاول أن يستقل فى عمله عن إرادة الغير ، واستغنى بندرته عن معاونة الناس . ومن مذهبه : الايثار ، وكراهية الظهور .

ويقول : إنه نال شرف الجهاد الوطنى فى الثورتين المصريتين : فكان فى الأولى جنديا مجهولا يكتب منشورات الثورة السرية للطلبة وهو مدرس فى المدرسة الاعدادية ، وكان فى الاخرى وطنيا معروفا ، يوقظ الوعى القومى ، ويلهب الشعور الوطنى ، ويتحدى إرادة القوى بصلابة الضعيف .

وكان الزيات يجعل الجمال سبيلا إلى الخير ، ودليلا على الحق ، ويسمى فى الحياة بقلب فياض بالشعور وصدر مفتوح إلى حب الخير ، وعقل نبض بالذكاء والقريحة والموهبة .

وتألقت فى شخصية الزيات عبقرية الخلق والا بداع الادبى ، تألق عصره باعلام الادباء والنقاد والشعراء والكتاب بمواهب العباقرة من لداته وأصدقائه من أمثال طه حسين والعقاد وزكى مبارك وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى وأحمد محرم وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى وسواهم من الرواد الخالدين .

أسلوب الدكتور زكى مبارك

— ١ —

من سنتريس هذه القرية النائمة فى أحضان النيل ، خرج شاب مصرى موهوب ، وعبقرية خلدها كفاحها فى صفحات التاريخ الأدبى الحديث . وقد طالما مشى فى دروبها وبين مروجها واقتبس من روحها المشبوبة وأساطيرها المسحورة كل أسرار عصاميته وعبقريته ، حتى أضحى كنزا من كنوز الأدب ، ومفخرة لثقافة ولغة العرب .

وكم كان الدكتور زكى مبارك يردد حبه لقريته سنتريس ، وهيامه بها . والوفاء لها ، فى كل مقالاته وقصائده وكتبه ، حتى نالت المجد من أطرافه ، وبلغت من الشهرة أن أمست تقرن بباريس . وكم كان الناس يقولون : لقد سافر ابن سنتريس د . زكى مبارك إلى باريس .

وها هو ذا يحدثنا فى مطلع كتابه « حب ابن أبى ربيعة وشعره » عن قريته الصغيرة ويصور هذه الطبيعة المجلوة الحالمة ، فيقول :

« فى ضواحى سنتريس يحلو السمر ، فى ليالى القمر ، وعلى شاطىء النيل هناك ، حيث النجم والشجر ، والماء والزهر ، فى تلك البقعة المشتبهة الأزاهر ، المتشابكة الجداول ، حيث السواقى الشاديات ، والطيور الصادحات ، وتحت تلك الشجرة المعطفة الغصون ، المبدلة الشعور ، حيث اجلس هناك ، أقضى شطرا من الصيف ، وجزءا من الخريف ، بين خطاب أكتبه ، أو جواب أقرؤه ، وحبيب أسامره ، أو أنيس أساهره ، وعهد أحن إليه أو عيش أبكى عليه . . . » .

ونحس ونحن نقرأ هذا الوصف الجميل لسنتريس ، أننا أمام أديب امتزجت الطبيعة المصرية بقلبه وروحه ، واختلطت بدمه وأعماق نفسه ، وأسلمه حب طبيعة بلاده إلى حب بلاده نفسها فكان هذا الحب هو المعلم الأكبر له فى حياته ، والحب كان فلسفة زكى مبارك والدرس الأول له فى هذه الحياة . وكان يقول :

« لقد ابتدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعا لا يسمعون منى غير أنغام الحنين . ولكن لؤم اللئام حولنى إلى إعصار عاصف » .

وكان يرى أن الحب أكبر زاد حيوى له . ويقول إنه صير الكتابة عن الحب فنا من فنون الأدب العربى الحديث » ، وعاش يجد فى الحب أكبر عضد له فى كفاحه للأعاصير طيلة حياته ، وشأنه فى ذلك شأن الرافعى ، الذى مال إلى الحب العذرى من حيث مال أديبنا إلى الحب الحسى ، ومن أجل هذه الفلسفة العاطفية ألف الدكتور زكى مبارك فى مطلع حياته كتابه « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ، ثم كتب بعد ذلك « العشاق الثلاثة » ، « وليلى المريضة فى العراق » ، وظهر له بعد وفاته بربع قرن كتابه « مجنون سعاد » .

لقد علمه هذا الحب حب اللغة العربية والأدب العربى ، حتى كان أدبه تمجيدا لكل ذلك ، وإيمانا لا يتزعزع بمكانة الأدب العربى بين الآداب العالمية . وبأن الثقافة العربية وحدها تكفى لتكوين الأديب .

ومن منطلق الحب كان هذا الإيمان بالنفس الذى عبر عنه الدكتور زكى مبارك أصدق تعبير فى كل ما كتب ونظم وألف .

كان يفخر بأنه مصرى وبأنه فلاح ، ويصرح بأن آثار الفأس والمحراث منقوشة على يديه وبأنه مستعد أن يهجر العلم والمدينة ويعود كما بدأ بين الفأس والمحراث وفى صحبة البقر والجمل .

عاش معتزا بالقرية والريف ، وبروحه المصرية الأصيلة ، التى تندد بالحكام من أذناب الاستعمار ، حتى كان يقول للساسة الذين يمشون فى ركاب المستعمرين .

قولوا الحق مرة واحدة أيها الناس ، واعترفوا ولو مرة واحدة بأنكم لا تستعينون بالأجانب إلا لأنكم تريدون أن تقهروا مواهب الأحرار فى بلدكم ».

— ٢ —

وأدب زكى مبارك لذلك صورة ناطقة بروحه المصرية العميقة المؤمنة بوطنه .

عاش حياته يندد بالحزبية ، ويقول : إنى رجل أعزل ألا نحاز إلى حزب من الأحزاب ، وليس لى فى الحكومة عم ولا خال » .

ومن إيمانه بمصر آمن بالحرية ودافع عنها طيلة حياته ، فكان أحد خطباء الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، واعتقله المحتلون فى ثكنات قصر النيل فى أول يناير ١٩٢١ ، وأبى أن يعطى تعهدا على نفسه بعدم الاشتغال بالسياسة ، وبلغ من شجاعته الفكرية ، وجرأته فى الدفاع عن الرأى وعن الحرية أن نقد خطاب العرش ، ونقد رؤساء الوزارات ، وصارع كبار الوزراء ، وعاش حرا لايخشى حولة أحدا . قويا لا يذل ولا يستسلم أبدا ، يعرف نفسه ، ويضعها فى مكانها الصحيح وكأنه قبس شعار سقراط الحكيم :

« أعرف نفسك » هذا الشعار الذى طالما أوصى الحكيم تلاميذه أن يسجلوه على باب معبد وولف ، ومن أجل ذلك كان مبارك من أعرف الناس لنفسه ، قصورها فى أدبه فى وضوح شديد ، وصراحة أشد . وإذا كان يرى هادئا كالنسيم يعبق كالورد فطالما كان ينطلق كالنهر ويعصف كالريح ويموج كالبحر .

لقد عاش فى عصر العمالقة : لطفى السيد . ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والعقاد وشكرى . والمازنى ، وأحمد أمين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأبى شادى ، والزيات . وسواهم وكان من الممكن لولا أصالة عبقريته أن يمحى اسمه بينهم ، ويندثر ذكره فى محيطهم . ولكنه ظل علما شامخا يقارن اسمه بأسمائهم ، ويسجل تاريخه بجوار تاريخهم ، ويخلد أدبه إلى جانب أدبهم . لقد ألف عشرات الكتب ونظم مئات القصائد ، وكتب آلاف المقالات ، وعاش مناضلا يساجل أعلام عصره من العلماء والأدباء من أمثال : أحمد زكى شيخ العروبة . وأحمد أمين ، وأحمد شاكر ، وأحمد حسن الزيات ، وطه حسين ، و د . عبد الرزاق السنهورى ، وأمين الخولى ، ومصطفى صادق الرافعى وسواهم .

وكان النصر دائما حليفه فى معاركه الفاصلة الحافلة .

وقد هاجم زكى مبارك طه حسين فى بعض مقالاته [١] ، وكتب يقول لطه حسين :

- لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك فى باريس، وذهبت أنا فأتممت دراستى فى باريس ، فهل تعلم ما الفرق بينى وبينك ؟

ذهبت أنت على نفقة الجامعة المصرية ، ومضيت أنا متوكلا على الله فأنفقت ما ادخرت من عرق الجبين .

واتصلت أنت بالمسيو (كازانافو) ففرض عليك آراءه فرضاً ، واتصلت أنا بالمسيو مرسيه فعرضت عليه آرائى عرضا ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فآذانى إيذاءاً شديداً ، واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عبقريته وفوق كرسى السربون .

ثم ماذا ؟ . . كنت أنا فى الجامعة وخرجت ، وكنت أنت فى الجامعة وخرجت ، فهل تدرى ما كان منى وما كان منك ؟

خرجت أنا من الجامعة فلم أعتمد إلا على الله، وأنت تذاكر باد كتور طه أنك قلت للأستاذ سليم حسن يوما : لقد عمل زكى مبارك ما يعمل الرجال ، رآنى أنجح ، ورأى لطفى السيد يتذلل فتركنا ومضى يجاهد جهاد الرجال .

خرجت أنا واشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية وجمعت من المال

---

(١) "صباح عدد ٢٢ /١١/١٩٣٤ ، رسالة مصطفى عبد الرازق وأثره فى الحركة الأدبية صفحة ١٧٣ - مخطوطة - كلية اللغة - أسيوط

الحلال ما أتممت به دراستي في باريس ، وطبعت عدداً من المؤلفات وكتبت في الأدب والاجتماع صفحات تعد بالألوف . وخرجت أنت من الجامعة فانزويت في بيتك وأخذت تبحث عن سيد ، ورأيت أخيراً أن مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع .

ثم ماذا ؟ كانت لي آراء جريئة وكانت لك آراء جريئة ، أما أنا فكنت لا أذيع الرأي إلا حين أعتقد صحته وما كان يهمني مطلقا أن أعادي الجمهور بلا موجب ، وأما أنت فكنت لوحة إعلانات لا تذيع الرأي إلا لتغيظ الجمهور : لتصبح حديث الناس في الأندية والمجتمعات .

أنت تعرف أني لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد ، وأنت أسقطني في امتحان الليسانس مرتين .

٢ — فن المسرحية

(أ) المسرحية هي التعبير عن صورة من صور الحياة تعبيراً واضحاً بوساطة ممثلين يؤدون أدوارهم أمام جمهور محتشد بحيث يكون هذا التمثيل مثيراً ، أو هي قطعة من الحياة ينقلها إلينا الأديب لنراها ممثلة على المسرح.

والمسرحية بدأت في أغلب الأمر عند المصريين القدماء، وأخذها عنهم الإغريق وتمثلت عندهم في أول الأمر في الأناشيد الدينية التي يرتلها عدد من الناس ، ثم تمثلت بعد ذلك في الحفلات التي كانوا يقيمونها في مواسم الزراعة[1] ، وتطورت بعد ذلك إلى الفن المسرحي الراقي . . الذي كان من أكبر نقاده أرسطو عند الإغريق ، ثم هوراس عند الرومان .

وتختلف المسرحية [2] عن القصة والملحمة بأنها تعتمد على الحوار ، وجوهرها الحدث أو الفعل ، فهي تتكون من جملة أحداث يرتبط بعضها

---

(١) كانوا يحتفلون احتفالين أحدهما في أوائل الشتاء وهو احتفال صاخب مرح يغنون فيه ويرقصون ويمثلون ما يضحك الناس ويبهجهم ، وعنه نشأت « الكوميديا » . أما احتفالهم الثاني فقد كان في الربيع وقد كان هذا الاحتفال يتسم بالوقار فكانت تمثل فيه روايات المآسي وعن هذا الحفل نشأت « التراجيديا » وقد كانت الروايات جميعها سواء كانت كوميديا أو تراجيديا شعرية . فقد كان المسرح في ذلك الحين وثيق الصلة بالغناء ، وقد حتم هذا أن يكون الحديث فيه جميعاً بالشعر حتى يمكن غناؤه .

(٢) راجع : ١٣١ - ١٧٢ النقد الأدبي لأحمد أمين ط ١٩٦٣ ، ٢٠ محاضرات في الأدب لمندور ، ١٣٧ - ٦٤ : في الأدب لمندور ، ٩٥ وما بعدها النقد الأدبي لسيد قطب ، ١٦٩ الأدب المقارن لهلال ، المسرح لمندور ط ١٩٥٩ م .

ببعض ارتباطاً حيوياً أو عضوياً بحيث تسير فى حلقات متتابعة تنتهى إلى نتيجة . وكانت المسرحية تصاغ عند اليونانيين شعراً ، بل كانت يجمع فيها بين الشعر والغناء والموسيقى والرقص،حيث نرى أجزاء المسرحية الإغريقية القديمة تتكون من مشاهد حوارية وأغنيات للجوقة مصحوبة بحركات من الرقص البدائى متعاقبة حتى نهاية المسرحية .

فالمسرحية تشترك هى والقصة فى اشتمالها على الحادثة والشخصية والفكرة والتعبير ، ولا يميزها تمييزاً واضحاً عن القصة إلا طريقتها فى استخدام أسلوب الحوار بصفة أساسية ، وقدتستخدم القصة هذاالأسلوب بجانب استخدامها الأسلوبالسردى والأسلوب التصويرى،لكن المسرحية لا تستخدم سوى ذلك الأسلوب ، وسواء كانت المسرحية ممثلة أو مقروءة فإن الحوار هو الأداة الوحيدة فيها للتصوير .

فالحوار هو المظهر الخارجى الحسى للمسرحية ، والمظهر المعنوى لها هو « الصراع » وكلمة «دراما» تعنى صراعاً داخلياً ، وهذا لا يقل فى جوهريته بالنسبة لفن المسرحية عن الحوار ،والحوار والصراع هما الخاصيتان الفنيتان اللتان تميزان فن المسرحية على أن المسرحية لا يتم وضعها الفنى الحقيقى إلا حين تمثل على المسرح ، حيث يشاهد المتفرج الحركة بعينه ويحس بالعواطف التى توجهها ، ولذلك نشأت النظرية التى تنادى بالعلاقة بين المسرحية والمسرح والممثلين والمتفرجين .

وإن كان بعض النقاد المسرحيين مثل اشبنجارن يقول : إن العلاقة بين المسرحية والمسرح والممثلين والمتفرجين علاقة عرضية وأن المسرحية قد تكون بغير هذه الأشياء ، وأنها تستطيع أن تحدث أثرها الفنى دون الاعتماد على شىء سوى القراءة .

وتأثر المسرح الرومانتيكي بشكسبير أعظم التأثر ، حتى ترجم هوجو مسرحياته إلى الفرنسية ، ودعا إليها ، فذاعت بين الكتاب والمفكرين ، وكان شكسبير مغموراً في إنجلترا وغيرها طيلة قرنين من الزمان ، حتى اعترف الناس بعبقريته في القرن التاسع عشر . وقد هاجم « هوجو » المسرح الكلاسيكي في مقدمة روايته « كرومويل » .

وقد أثرت الملهاة الإيطالية في المسرح الأسباني ، وفي الملهاة الفرنسية ، وفي الملهاة في بلاد كثيرة ، وأثر المسرح الأسباني في فرنسا وهولاندا وانجلترا وألمانيا ، تأثيراً يظهر في الاقتباس للمواضيع والمواقف والعواطف أحياناً أكثر من تقليد القوالب المسرحية الأسبانية ، ولذلك استمد كورني وموليير وغيرهما مادة كثير من المسرحيات الأسبانية ، ولكنهم غيروا البناء الفني الأسباني ، خلافاً للرومانتيكيين الألمان الأول أمثال تيك وشليجل وغيرهما ، فإن ما أعجب هؤلاء من الكوميديا الأسبانية هو قالبها نفسه ، هذا القالب الحر الخالي من قيود الوحدات المرن ، الغني في إخراجه وشخصياته ، الشعري في أسلوبه وأوزانه المتعددة [1] .

وقد أثر شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) في المسرح الأوربي ، إذ تأثر كتاب المسرحية بموضوعاته ، وتارة بأشخاصه وعواطفه ، وأحياناً بأسلوبه ، وأحياناً أخرى بقالبه الفني الذي يزيد على غيره غنى ومرونة .

ومن الجدير بالذكر أن المسرحيات الغنائية الأوربية قد تأثرت بالأدب العربي والآداب الشرقية ، فالمسرحيات الغنائية الأوربية التي تسمى « علاء الدين والمصباح السحري » ومسرحية « معروف إسكافي القاهرة » ومسرحيات شهرزاد الغنائية مقتبسة من ألف ليلة وليلة .

---

(١) راجع كتاب « تيك والملهاة الأسبانية » تأليف ج . ج . أ . برتراند .

(ب) وقد نشأت المسرحية فى الأدب الإغريقى القديم وانقسمت إلى الكوميديا (الملهاة)، والتراجيديا (المأساة)، ومن تتبع تاريخ المسرحية (الدراما) اليونانية نعرف أنها نشأت من الاحتفالات القروية التي كانت تقام فى أثينا القديمة تعظيما لديونسيوس إله الطبيعة، وأشهر أعلام المأساة فى الأدب الإغريقى القديم ثلاثة: سوفوكليس (توفى عام ٤٠٥ ق م)، يوربيدس توفى عام ٤٠٦ ق م). أشيلوس (توفى عام ٤٥٦ ق م).

وأشهر أعلام الملهاة فى الأدب الإغريقى هو إرستوفانس (توفى عام ٣٨٧ ق م) وهو مؤلف الكوميديا المشهورة «الضفادع» التى تهكم فيها بشخصية يوربيدس، وتعرض فيها إلى الجديد والقديم [1].

ولما عرف اللاتينيون المسرحية اليونانية قلدوها وحاكوها فى جميع خصائصها الفنية، ونشأ المسرح اللاتينى فى نحو منتصف القرن الثالث قبل الميلاد واحتذيت فيه القوالب الفنية الإغريقية احتذاء كاملا، ومن أعلامه: بلوتس (توفى عام ٨٤ ق م) وهو من كتاب الملهاة وسينيكا وهو من كتاب المأساة:

(ج) وفى العصور الوسطى (٤٥٦ـ١٤٥٣ م) كانت المسرحيات ذات طابع دينى، وقلدوا فيها المسرحيات اللاتينية. وعندما بدأت حركة البعث الأوربى فى القرن الخامس عشر، عاد الأوربيون إلى الادب الإغريقى واللاتينى القديم يحتذونه ويستمدون منه موضوعات مسرحياتهم، فقلدوا مسرحيات اليونانيين والرومان، ورأيناهم يجمعون فى المسرحية بين الحوار

---

(١) فن الشعر لأرسطو ترجمة احسان عباس ص ٥ و ٦.

وبعض المقطوعات الغنائية، ولكن هذا النوع من المسرحيات لم يدم إلا قليلا، وأخذت الكلاسيكية تتكون وينفصل فيها فن التمثيل القائم على الحوار عن الغناء، وإن ظلت المسرحيات الجدية والهزلية تنظم شعراً وفصلت المسرحية الغنائية عن المسرحية التمثيلية فصلا نهائياً، وأصبحت المسرحية الغنائية الموسيقية لاتدخل الآن في الأدب وتاريخه، وإنما تدخل في الموسيقى باعتبار أن العنصر الموسيقى هو الذي يطغى عليها ويعطيها كل قيمتها الفنية، بينما يضمر فيه الحوار والتمثيل وتصبح قيمتها ثانوية.

ومنذ انفصل الغناء عن الحوار التمثيلي كان من الطبيعي أن يتطور هذا الحوار وأن يتجه نحو النثر بدلا من الشعر، حتى رأينا بعض الرومانتيكيين من كبار الشعراء مثل ألفريد دي موسيه وغيره يؤثرون النثر في كتابة مسرحياتهم، وباستمرار تطور فن المسرحية واتجاهه نحو الواقعية وظهور ما يسمى بالدراما الحديثة أخذ النثر يطغى على الشعر في لغة المسرح بحيث يندر في العصر الحديث أن نجد أدباء كباراً يكتبون مسرحيات شعرية، وإذا كان « إدمون روستان » ونفر قليل غيره في فرنسا يكتبون مسرحيات شعرية، فإن الأغلبية الساحقة من الأدباء المعاصرين يكتبون مسرحياتهم نثراً، وقد كتب بعض شعرائنا كشوقي وأحمد زكي أبي شادي وعزيز أباظة بعض المسرحيات الشعرية، ولكنهم قليل بجانب غيرهم من الشعراء.

وأصدق مسرح أوربي ينطبق عليه قواعد الكلاسيكية هو مسرح راسين، وعلى العكس من ذلك مسرحيات « كورني » التي لم يخضعها كاتبها للقواعد الكلاسيكية حتى لقد هوجم من النقاد هجوماً عنيفاً بعد ظهور مسرحية « السيد ».

(ج) ولم يعرف الأدب العربى القديم فن المسرحية ولا فن التمثيل كما هو فى العصر الحديث [١] ، بل كان الأدب العربى أدبا غنائياً خالصاً [٢] ، وقد ظهر الحوار فى فن المقاومة العربية ولكنه لم يقم أساساً لفن مسرحى ، وفى الأدب الشعبى العربى وجدت عناصر تمثيل بدائية فى خيال الظل » [٣] ، وألف فيه ابن دانيال (٦٤٥ — ٧٠٩ هـ : ١٢٤٨ ـ ١٣١٠م) كتابه « خيال الظل » أو « طيف الخيال » .

والمسرح عرفه من قبل الشيعة المسلمون الذين كانوا يمثلون فى إيران وفى النجف ومدن العرق مقتل الحسين تمثيلا يعيد إلى أذهان الناس هـذه الحادثة الدامية ، وفى بغداد وأمام المهدى مثل رجل بغدادى شيعى الخلفاء وتحدث عن أعمالهم .

---

(١) راجع ص ١٣ فن الأدب — المحاكاة لسهيرة القلماوى ط ١٩٥٣ م .

(٢) ص ١٧١ الأدب المقارن لهلال ـ ومن المراجع التى تذهب إلى خلو الأدب العربى من المسرحية ١٥٢ : ٤ تاريخ آدب اللغـة لزيدان ، ٢٠١ الطبع والصنعة فى الشعر ، ٢٨٥ أصول النقد الأدبى للشايب ، ص ٩و١٨ الملك أوديب ، ويعلل البعض ذلك بأن الخيال العربى خيال واسع فضفاض فى حين أن المسرحية بناء مركب لايحتاج إلى خيال ، ومنهم من فسر سبب عدم ظهور فن المسرحية فى العصر الجاهلى رغم أنه ظهر مصاحبا لديانات وثنية هو أن المعتقدات الوثنية فى الشرق أقرب إلى الحق . . وكان من السهل أن تتحول الشخصيات الدينية إلى شخصيات بشرية ، وقد أمكن فى ظل الديانة اليونانية أن يظهر المسرح ويتطور فى شخصيته وأفكاره ، سواء فى المجال الدينى ـ الآلهة ـ أو الدنيوى ، وأصبح المسرح فنا بشريا خالصا ومجردا من الأساطير وثمة ظاهرة تستحق التسجيل فى =

وبظهور مسرح « خيال الظـل » الهزلى الشعبي انتقل المسرح الشرق انتقالا جديدا ، وقد مثلت روايات عديدة : رواية عجوب وغريب ، احدى روايات طيف الخيال لابن دانيال المصرى ، وشاهد سليم الأول العثمانى فى القاهرة بعض هؤلاء الممثلين ، وانتقل خيال الظـــــل إلى سوريا وسموه كاراكوز التى حرفت إلى أرجوز ، وقد أمر السلطان المملوكى جقمق باحراق هذا المسرح الشعبى عام ١١٧١ هـ ، وبمنع الناس من احتراف التمثيل لتعرضهم للسياسة آنذاك .

وفى العصر الحديث ، وبتأثير الإتصال فيه بين الأدب الغربى الحديث والآداب العربية ظهر فن المسرحية فى سوريا فى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وترجم مارون النقاش اللبنانى (توفى ١٨٥٥ م) بعض المسرحيات الأوربية لتمثيلها ومنها مسرحية البخيل لموليير ، كما ألف بعض مسرحيات

= تاريخ العرب وهى أن ما ينقص الأدب العربى يكمله الأدب الشعبى ، فأدبنا الكلاسيكى ليس فيه من الملاحم الشعبية مثل ما هو موجود فى إلياذة هوميرس وهكذا تكونت ملحمة — عنترة — فالشعوب العربية قد خلفت قبل ظهور التمثيل ظواهر تشبه التمثيل الحديث ، وقد عثر فى دار الكتب بمكتبة بولاق فى القاهرة على مخطوط تاريخى فى العصر الأيوبى يحتوى على ثلاث مسرحيات ألفت عن تمثيلية « خيال الظل » ، وهى من نوع التمثيل العربى ، وقد ظهر فن آخر حديث هو فن الأراجوز ، وهو لفظ مزجى الأصل ومعناه — العين السوداء — والراجح أن هـــذا الفن الجديد أخذناه أيضا عن أوربا فى القرن الماضى ، والفن المسرحى ينقسم إلى : الفن المسرحى الغنائى ، والفن المسرحى الحوارى .

أخرى وهى ثلاث : تمثيلية البخيل ، والحسود السليط ، وأبو الحسن المغفل وهارون الرشيد ، وكانت هـذه المسرحيات بالأسلوب الشعرى الركيك ، بذلك ابتدأ فن التمثيل فى بيروت ، وكان مارون يمثل فى بيته مع أصدقائه ، ثم بنى مسرحاً صغيرا لهـذا الغرض ، وبعد ذلك ظهر المسرح فى سوريا ، وانتقل إلى مصر بهجرة سليم النقاش إليها ثم يعقوب صنوع إليها عام١٨٧٠م الذى بنى مسرحاً صغيرا بالأزبكية قدم فيه للجمهور عدة مسرحيات لقت نجاحاً كبيراً ، ولكن الخديوى إسماعيل أغلق مسرحه فاتجه صنوع إلى الصحافة .

والخليل اليازجى مسرحية « المروءة والوفاء » وكتب أبو خليل القبانى سنة ١٨٨٤ عدة مسرحيات تجمع بين الشعر والنثر المسجوع .

وفى أواخر القرن التاسع عشر أقيمت عـــدة مسارح فى القاهرة والاسكندرية ،ومثلت عليها مسرحيات مترجمة من اللغات الأوربية، ومنها مسرحيات : عايدة ، وزنوبيا وسواها .

وحدث تطور جديد لفن المسرحية فى مصر ، حين أصدر أمير الشعراء أحمد شوقى مسرحيته « كيلو باترا » ، عام ١٩٢٧ ، وأعاد كتابة مسرحية « على بك الكبير » ،وألف أقـدم مسرحية أدبية نثرية وهى « أميرة الأندلس» ومسرحية كوميدية هى «الست هدى» ، ومثلت هذه المسرحيات أو أغلبها ، وبذلك بدأ الفن المسرحى ينتشر فى مصر ، وأخذ كثيرون من كتابنا يكتبون المسرحية شعراً ونثرا ويعالجون فيها القضايا الوطنية والقومية والمشكلات التى نجمت عن غزو حضارة أوربا للمجتمع العربى الإسلامى.

ونحن لا نعنى بالمسرحيات التى تكتب بالعامية لأنها لا تدخل فى صميم الأدب ، وإن كان يعنى بها الباحث الاجتماعى والشعبى لدلالتها على تطور المجتمع وأحوال الشعب فى فترة من الفترات ، وقد تابع شاعرنا الكبير عزيز أباظة أمير الشعراء أحمد شوقى فكتب عدة مسرحيات شعرية .

ولكن المسرحية النثرية أصبحت اليوم هى التى تحتل المنزلة الرفيعة فى عالم المسرح ، وأشهر كتابنا المسرحيين هو توفيق الحكيم ، ومسرح الحكيم مسرح متميز الشخصية فى تاريخ الفن المسرحى العربى الحديث ، وتراث الحكيم فى المسرح سيظل خالدا على مرور الزمن ، ومن مسرحياته مسرحية « الصفقة والأيدى الناعمة » التى يبرز فيها أن الأيدى الناعمة لا مجال لها فى الحياة لخوفها من أن تخشوشن من العمل الجدى ، وللحكيم مسرحية « يا طالع الشجرة » وهى من أدب اللامعقول وهو أدب لا يصلح لأداء المضامين الاجتماعية والواقعية فى مجتمعنا المعاصر .

وقد تأثر توفيق الحكيم بكثير من أعلام المسرح الأوربى الحديث والقديم ، ومنهم : متر لنك ، وبيراندالو ، وديكنز ، وأناتول فرانس ، وجيرودو ، ولنورماند ، وكتب جلبرت توتو من جامعة أنابانا فى الولايات المتحدة عنه رسالة دكتوراه عن تأثير الأدب الغربى فيه .

وتوفيق الحكيم يعتقد أن هناك صراعا بين الفن والحياة ولهذا ألف عدة مسرحيات تتناول هذا الموضوع عن طريق غير مباشر فقد اتخذ من أسطورة « جلاتيا » اليونانية موضوعا لمناقشة فكرة الصراع فيها بين الفن والحياة فكتب روايته « بجماليون » .

ومسرحية الحكيم « أهل الكهف » يجرى الصراع فيها بين الإنسان والزمن وقد كانت فكرة فى عقل الحكيم فأراد أن يجسدها وهى أن الحياة ليست تفككا وانحلالا بل الحياة مجموعة الروابط التى تربط الإنسان بأولاده وأسرته ومجتمعه فاذا تقطعت هذه الروابط أصبحت هى والموت سواء .. كما كتب الحكيم مسرحية « شهر زاد » وقد تناول فيها نفس المشكلة وهى أن الأديب يهب نفسه للفكر ويعيش له وحده .. وفكرة الصراع يجرى بين القدرة والحكمة فى ممرحية « سليمان الحكيم » . ويجرى الصراع بين فكرة القانون والقوة فى مسرحية « السلطان الحائر » .. وإلى جانب مسرحيات الحكيم الذهنية ألف أربعين تمثيلية أخرى ذات مستويات مختلفة ، وهى مسرحيات اجتماعية ، وقد نشرت كل هـذه المسرحيات فى مجلدين هما « المسرح المنوع » ومسرح المجتمع » ولكن مسرحياته الذهنية بالرغم من أنها لم تصادف نجاحاً باهرا إلا أنها ستعيش وقيمتها ستزداد لأنها تغذى الفكر وتثير التأمل الفكرى العميق .

وقد أخرجت مجلة الهلال المصرية عنه عددا خاصاً (فبراير ١٩٦٨) .

ويقول توفيق الحكيم عن نفسه[1] : تأثرت بكثير من أعلام المسرح الأوربى الحديث والقديم ، ومن بينهم بدون شك مترلنك وبيراندللو . ولكن من مجافاة الحقيقة أن أزعم أن الأمر اقتصر عليهما وحدهما فان من بين المؤلفين من احتل من فكرى واهتمامى أكبر مكان ، وأخص بالذكر إبسن وموليير وهو وإن لم تظهر آثاره فى أعمالى الفنية واضحة لتغلب

---

(١) ٤ : ٦٠ صور من الأدب الحديث الخفاجى .

الناحية الفكرية والروحية عندى فى بعض المسرحيات ، إلا أنه فى الجانب الاجتماعى أو الواقعى يظهر أثر انتفاعى بدروس موليير ، هذا عدا الاهتمام الطبيعى بأعمال الإغريق ومنهم سوفوكل وأرستوفان وأعمال شكسبير مما لا يمكن لكاتب مسرحى أن يمسك بالقلم قبل الحياة فى كنفهم وقتا طويلا. والمسرح المصرى لم يكن موجودا على الإطلاق منذ خمسين سنة ، ومع ذلك كان فى مصر نهضة مسرحية من أعجب النهضات ، وكانت تمثل على المسرح المصرى لا فى القاهرة فقط ، بل فى العواصم الكبرى وفى أنحاء الأقاليم روايات مثل هاملت وروميو وجولييت وتليماك والبخيل وأوديب الملك وغيرها من روائع الآثار العالمية . وكان الجمهور يتهافت على هذه الروايات وهى تمثل باللغة الفصحى وهى تحوى من الأفكار ما يرتفع عن مستواه الثقافى .

ومن كتاب المسرح كذلك محمود تيمور وعلى الرغم من أنه كاتب قصصى إلا أنه أسهم فى الكتابة المسرحية مثل مسرحية « اليوم خمر » و « صقر قريش » « وأبو على الفنان » وتيمور عندما يكتب مسرحياته يكتبها أحيانا باللغة العامية ، ولما اختير فى المجمع اللغوى كتبها باللغة العربية الفصحى .

وهنا نرى المسرحية فى أدبنا العربى الحديث تنقسم إلى مدرستين مختلفتين فى الأسلوب ، وهما مدرسة المسرح الغنائى ويمثلها أمير الشعراء أحمد شوقى والشاعر عزيز أباظة ، والثانية مدرسة المسرح النثرى « الحوارى » ويمثلها الكاتب المسرحى الكبير توفيق الحكيم ومحمود تيمور ، وبعض الكتاب الذين لمعت أسماؤهم فى الآونة الأخيرة .

وهناك ظاهرة جديدة ظهرت فى أدبنا العربى المعاصر ، وهى ظاهرة تحويل القصة إلى مسرحية كما حدث لأشهر القصص لأكبر الكتاب المعاصرين وفى القاهرة عدة مسارح تقوم بتمثيل مسرحيات جديدة كمسرحية حلاق بغداد ومسرحية الناس اللى فوق ، وهى تلعب دورا كبيرا فى حياتنا الثورية حيث تجسد ماقامت به الثورة من أعمال وما حققته من آمال ، « والآن أصبح الأدب المسرحى يشخص القضايا التى نعيشها ويجسم مشاكلنا الاجتماعية » .

ومن كتاب المسرحية كذلك بشر فارس وفرح أنطون ومحمد لطفى جمعة وإبراهيم رمزى ومحمود كامل وعباس علام وعلى باكثير .

وللدكتور أحمد زكى أبو شادى أدب تمثيلى رائع ، شعرا ونثرا وهو أدب مبكر ، ويقف مع أدب أمير الشعراء فى فن المسرحية ، ويظن أنه سبق ظهور مسرحية كيلو باترا بالعديد من الأوبرات التمثيلية وإن كانت هذه تحتاج إلى مزيد من التحقيق ، وفى كتابه « من نافذة التاريخ » كثير من التمثيليات .

المسرحية الشعرية :

استوى شكل المسرحية فى الأذهان على أنها لابد أن تكون شعرية ، فليس مسرحاً ما ليس شعراء ، بل إن فكرة المسرح المنثور لم تطرأ على بال أحد ، ثم قامت المدرسة الرومانتيكية بثورة على القواعد الكلاسيكية فى المسرح مهدلها شكسبير حين بدأ يتغاضى عن القافية فى شعره ويدخل فى مسرحياته بعضا من الشعر المنثور ، وهكذا أمكن للنثر ان يتسرب إلى

المسرحية من خـــلال مسرحيات شكسبير أولا ، ثم على أيدى الكتاب الواقعيين الذين طالبوا بالكتابة عن الناس الذين يقيمون فى الأرض من غير أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم آلهة ومن غير ملوك الأساطير الذين كانت تقام لهم مسرحيات الكلاسيكيين .

وكثرت المسرحيات النثرية وشاعت وأصبحت تقليدا جديدا ، وطرد الشعر من ميدان المسرحية شيئاً فشيئاً ، وإن كان ذا صلة بالمسرحية الشعرية ، فمازال كتاب يكتبون للمسرح بالشعر ، ومنهم اليوت وكريستوفراى .

ولأبى شادى مسرحيات شعرية منها : الآلهة ، وإحسان ، وأزدشير . وبنت الصحراء ، وأخناتون ، والزباء ، وقد كان أبو شادى من الرواد فى الأوبرات التمثيلية ، كما كان شوقى رائدا فى مسرحياته الشعرية ، ولباكثير مسرحيات شعرية منها : أخناتون ونفرتيتى ، ولعبد الرحمن الشرقاوى مسرحية « جميلة » . والحسين ثائرا ، والحسين شهيدا .

رائد الأدب المسرحى « توفيق الحكيم »

— ١ —

هذا الإنسان المبدع ، هذا الفنان الرائع . أسطورة العصر ، وجاحظ القرن العشرين .

ابن الثمانين أو يزيد، وصاحب مائة مسرحية شامخة فى أدبنا المعاصر، ومبتكر نظرية « التعادلية » ، والمحلق فى أجواء الفكر والثقافة والمعرفة الإنسانية ، توفيق الحكيم . .

إنه الرائد الأكبر للأدب المسرحى الحديث ، ومن توفيق الحكيم ، إلى نجيب محفوظ ، إلى ثروت أباظة، خطت الرواية العربية خطوات ما كان لها أن تخطوها فى قرون . لولا عبقرية توفيق الحكيم وإبداعاته وإلهاماته الخالدة .

وإذا كان توفيق الحكيم يقول عن الجاحظ : « إنه الأستاذ المباشر لأكثر زعماء القلم فى الأدب فى الأدب العربى المعاصر، لأنه رفع علم التجديد، وعلم الكتاب » كما يقول الحكيم فى كتابه « قلت ذات يوم » .

— فإننا نستطيع أن نقول إن الحكيم صورة من جاحظ البصرة العظيم ، وإن أثر الحكيم فى أدبنا المعاصر سيصاحب أثر الجاحظ على امتداد العصور والأجيال .

لقد علم الحكيم ، كما علم الجاحظ ، حملة القلم ، صدق التجربة ، وقوة

البيان ، وجمال الأسلوب ، وسعة الاطلاع ، وعمق الثقافة ، وتعدد المنابع الفكرية للكاتب . .

وسيبقى اسم الحكيم كما بقى اسم الجاحظ خالداً على مر العصور . ولقد كان للجاحظ ولألف ليلة وليلة أثر كبير فى أدب الحكيم ، فضلا عن الثقافة الإسلامية العربية .

— ٢ —

ومن « مسرحية البخيل » لموليير التى قدمها مارون النقاش عام ١٨٤٧ فى بيروت ، إلى المحاولات المتعثرة للأدب المسرحى فى دمشق وبيروت ، إلى المسرحيات الهازلة : الغنائية الساذجة ، والهزلية الماجنة ، والدموية الصاخبة التى مثلت على مسارح القاهرة قبل ثورة ١٩١٩ .

خرجت مسرحيات تاريخية وواقعية اجتماعية جادة ، لابراهيم رمزى ومحمد تيمور وعباس علام وفرح أنطون وإبراهيم المصرى ، ومحمد لطفى جمعه وغيرهم . . ولكنها لم تعمر طويلا ، لأن تيار الميلودراما الدموية الصاخبة قد اجتاحها بعد النجاح الواضح الذى ناله يوسف وهبى بمسرحية « الذبائح » لأنطوان يزبك مما دفعه إلى السير على هذا النمط ، مع المزيد من الدموع والدماء والمبالغة .

وفجأة يظهر مسرح الحكيم ، ليجد الفن المسرحى يتعثر فى أذيال الفشل ، ويسير كالأعرج فى ميدان مسدود ، فيكافح ويجد ويعمل من أجل خلق أدب مسرحى جديد فى أدبنا المعاصر ، يستطيع أن يقف مع روائع الغرب . وشوامخ التراث .

— ٣ —

والمسرح فى جوهره عند الحكيم قضية ومشكلة وليس حكاية (حدوتة)

ولا عرضاً للحياة ، فالكاتب المسرحى عنده يبدأ من القضية للحياة ، أما القصاص أو الروائى فيبدأ من الحياة إلى القضية .

ولقد عالج الحكيم فى مسرحياته التى زادت اليوم على المائة كل القضايا الإنسانية : الفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية ، كما عالج العلاقة الخالدة بين الإنسان وبيئته ، وبينه وبين زمنه ، وبين الرجل والمرأة فى مختلف الأطوار .

ومن الأشكال الفنية التقليدية والطليعية الجديدة ، والدراما الجادة التى تعانق روح المأساة ، إلى الكوميديا الخفيفة والمتأثرة بروح الفودفيل الفرنسى — تنوع مسرح الحكيم كل هذا التنوع الخصب الثرى . .

إذ سار — كما يقول الحكيم بنفسه فى مقدمة كتابه « المسرح المنوع » الصادر عام ١٩٥٦ — فى رحلة حياة طويلة ، فى وجهات مختلفة خلال أمد طويل ، وحاول فى قلق أن يعمل على ملء الفراغ الموجود فى الأدب العربى بالنسبة للأدب المسرحى . على قدر إمكانه وجهده .

ودور الحكيم فى خلق أدب مسرحى فى اللغة العربية دور بارز وكبير . ويمثل نقطة الانطلاق الرائدة فى أدبنا الحديث .

وقد ساعد الحكيم على بلوغ غايته تمكنه من التراث ، وإلمامه بالثقافات الحديثة العربية والغربية ، إلى ذكائه الحاد ، وخفة روحه ، وقدرته الفائقة فى الحوار ، وسرعة الحركة فى حواره وإقناع هذا الحوار لمختلف الطبقات القارئة لفنه المسرحى .

ومواهب الحكيم الكثيرة الذكية والحادة ومقدرته اللغوية ، هما بذلك من العوامل الكبيرة فى وصوله إلى قمة النجاح الكبير الذى ناله فى كتاباته المسرحية .

- ٤ -

ولقد ظل الحكيم طيلة السنوات التى كافح فيها بدأب من أجل خلق أدب مسرحى فى أدبنا العربى ، وظل وفياً كل الوفاء لمدرسته المسرحية فى فرقة عكاشة ، وما كانت تقدمه من غنائيات وهزليات مقتبسة ، وكان يشارك فى مدها ببعض هذه المسرحيات ، التى تكشف عن موهبة مسرحية مبدعة أصيلة فى نفس الفنان توفيق الحكيم .

وما زال الحكيم يذكر مدرسته الأولى هذه بمزيد من الحب على الرغم من الأشواط الطويلة التى سار فيها فى سبيل التجديد ، من أهل الكهف ، إلى شهر زاد ، إلى ما بعدها .

وليس ذلك بغريب ، فإن الجذور المسرحية الأولى التى ظهرت على خشبة مسرح الأزبكية عام ١٩٢٣ قد هيأ لها أن تمد ظلالها فى مسرح البولفار الفرنسى إذ كان كتاب « الفودفيل » المبدعون المشهورون يعملون ويحققون المزيد من النجاح الجماهيرى المرموق .

ومن أجل وفاء الحكيم لهذه المدرسة الأولى الأم فى حياته الفنية ، وعلى الرغم من النجاح الكبير الذى ناله فى « أهل الكهف » و « شهرزاد » نراه يرجع إلى إبداع الكوميديا الخفيفة ، مع ما غلب عليها من التأثير الفكرى الفرنسى الذى غلب على مواقفها وحوارها ، وروح الفكاهة والسخرية فيها .

وفى هذه المدرسة أخرج الحكيم مسرحياته : الضيف الثقيل ، والعريس وخاتم سليمان ، وعلى بابا ، والمرأة الجديدة .

كتب الحكيم مسرحية « رصاصة القلب » عام ١٩٣١ ، ونشرتها له « مجلتي » بدءاً من عدد ديسمبر ١٩٣٤ . وهي من أجمل نماذج الاتجاه الكوميدي الخفيف في مسرح الحكيم . فضلا عن أنها نموذج فريد نادر في أدبنا المسرحي الكوميدي العاطفي الراقي .

والحكيم في « يوميات نائب في الأرياف » يصور الفلاح المصري في صورة الذي يعاني الألم والعذاب والمشكلات الاجتماعية والنفسية المعقدة ، في مواجهة صريحة بين الواقع والقوانين التي تحكم هذا الواقع ، فهذه المسرحية هي صورة دقيقة للرؤية الواقعية لمصر عند توفيق الحكيم ، وهي مليئة بالنقد والغضب على الواقع .

وهو في « بيجماليون » يدور حول حيرة الفنان بين الحقيقة والحلم ، بين الفن والحياة ، وبين الواقع والمثال ، بين المرأة من جسد والمرأة من عاج ، وفيها يجسد الحكيم طموح الفنان ومواقفه ونزعاته وهي عمل مسرحي رفيع .

— ٥ —

مسرحية أهل الكهف :

عمل مسرحي فني متكامل ، بل ثورة تجديدية كبرى في الأدب العربي ، لأنها نقلة جديدة في تاريخ آدابنا ، فقد دعمت هذه المسرحية قيام فن جديد في أدبنا ، حتى لنستطيع أن نقول : أن فنا جديداً قد ظهر فيه ، ونسب إليه ونشأ ميداناً واسعاً قد فتح أمام الأدباء ، ليدخلوا إليه ، وأن وادياً فسيحاً قد ظهر أمام عيونهم ، وصار في وسعهم أن يهبطوا فيـه وأن يستغلوا عبقريتهم في كشف أسراره ، وأن يخرجوا منه إلى عوالم سحرية بعيـدة المدى . . حتى ليقول د . طه حسين عنها : « إنها أول قصة تمثيلية ألفت

فى الأدب العربى . . إنها قصـــة تمثيلية تغنى أدبنا ، وتضيف إليه ثروة لم تكن له .

إن مسرحية أهل الكهف اعترف بها النقاد المسرحيون جميعاً على أنها مسرحية كاملة فى بنائها الفنى ، ومضمونها الإنسانى ، وتقف بجانب روائع المسرح العالمى ، من سوفوكليس إلى ابسن ، وبرنارد شو ، وبيرانداللو .

ولقد نهج الحكيم نهج المسرح الأوروبى فى علاجه لموضوعه فى هذه المسرحية الرائعة ، واستمد من التراث الشرقى العربى ، الاسلامى والمسيحى ، أصول عمله الفنى فيها ، فكان مضمونها أول صراع ناجح من أجل استخدام هذا التراث واستلهامه فى المسرح العربى الحديث .

ومسرحية أهـــل الكهف تقوم على بعث أهل الكهف الثلاثة من شباتهم العميق ، الذى استغرق ثلاثة قرون ، ليستأنفوا الحياة ، ويدرس الحكيم بعد ذلك إمكان استئنافهم لها ، وينتهى من دراسته إلى أن ذلك مستحيل ، لأن الحياة ليست جوهراً فى ذاته ، بل هى مجموعة الروابط التى تربطنا بالناس والأشياء ، فإذا انقطعت هذه الروابط بحكم الزمن ذبلت تلك الحياة وماتت فى أجسادنا ، وهذا هو ماحدث فى المسرحية لأهل الكهف ، إذ رأيناهم يعودون فى النهاية إلى كهفهم ليستأنفوا سباتهم ، أو ليموتوا ، بعد أن تبين أحدهم أنه قد فقد إلى غير رجعة قطيع غنمه ، وفقد الآخر بيته وزوجته وولده ، ورأى سوقاً للسلاح تقوم مكان بيته الذى هو قطعة من حياته . وأما ثالثهم فقد عثر بفتاة تحمل اسم خطيبته القديمة بريسكا ، ولكنه لم يكد يتبين أن بريسكا هذه ليست إلا حفيدة لخطيبته القديمة الحبيبة حتى عاد هو الآخر إلى كهفه على الرغم من نجاحه فى جذب بريسكا الجديدة إليه ، حتى أنها تتبعه إلى الكهف » .

وفى المسرحية يبدو التيار الإسلامى متغلغلا فى أعماق نفس الحكيم ، الذى نراه يلجأ إلى القرآن الكريم وتفسيره ويجهد فى استخدام القصة وفق المنهج الغربى الذى يسير عليه الكتاب المسرحيون الأوروبيون وهم يستخدمون أساطيرهم الأغريقية والشعبية والدينية .

وعمق الثقافة الإسلامية فى نفس الحكيم واضح كل الوضوح فى حياته ، فنى أهل الكهف فى مطالع حياته ، وفى تهذيبه لتفسير الإمام القرطبى ، بل فى كتابته لمسرحية محمد صلوات الله عليه ، نجد آثار ذلك واضحة كل الوضوح ومضامين فكره الروائى فى كثير من المواقف والحالات هى مضامين إسلامية .

ولقد مثلت هذه المسرحية عام ١٩٣٥ وكانت قد نشرت قبل ذلك بعامين فى كتاب أحرز نجاحاً أدبياً منقطع النظير .

ومسرحية أهل الكهف وسواها من مسرحيات الحكيم الفكرية إنما كتبها لتقرأ لا لتمثل ، لأن النجاح فى المسرح المصرى آنذاك كان للمسرحيات الهزلية التى تستجلب صيحات الجمهور أو دموعهم .

وبهذه المسرحية دخل الحكيم صميم الميدان المسرحى الحقيق ، بل دخل مجال التأليف المسرحى العلى ، وبدأ مرحلة جديدة من حياته هى المرحلة التى أعقبت سفره إلى أوربا لينهل من منابع الثقافات العالمية ، وليبدأ التكوين الحقيقى لبنيته الفكرية ، حيث عاد عام ١٩٢٨ من فرنسا ليبدع وليعمل من أجل أدب مسرحى عربى حديث فيه إبداع الفنان ، وتجديد المفكر ، وخلق العبقرى ، وفيه من ثراء الفن وخصوبته وحيويته الكثير .

— ٦ —

مسرحية شهر زاد (١٩٣٤ م) :

وهى عمل فنى جديد يضاف إلى أعمال الحكيم السالفة وإلى « أهل الكهف » بصفة خاصة ، وهى تسير فى الاتجاه الفكرى والأسطورى الذى سارت فيه مسرحية الكهف .

إن الأساطير منبع حقيقى لعمل الفنان العظيم ، ومنجم ثرى يستمد منه المبدعون أجل الهاماتهم وأروعها . والمسرح الأغريقى غنى فى إفادته من الأسطورة والتراث الشعبي ، وظلت الأسطورة جزءاً حياً من إبداع الكاتب المسرحى فى العصر الرومانى ، وفى العصر الوسيط ، وفى عصر النهضة . . وجاءت نهضة المسرح الأوربى فى العصر الحديث مؤكدة لضرورة استخدام الأسطورة فى جوهر بناء المسرحية ، وأعمال أبسن وبرناردشو وسارتر وسواهم حافلة بالكثير من من الأساطير .

وإذا كان الحكيم قد استوحى أساطيره من القرآن الكريم فى « أهل الكهف » فإنه يستوحى من من تراثنا الشعبى ومن « ألف ليلة وليلة » أساطيره فى « مسرحية شهرزاد » الخالدة . والحكيم يؤكد ضرورة استخدامه للاسطورة من استخدام فلسفى فى « أهل الكهف » و « شهرزاد » إلى استخدام سياسى واجتماعى فى « براكسا » و « شمس النهار » و « السلطان الحائر » وإيزيس ومع الإطار الأسطورى ناقش قضايا معاصرة عديدة ، إذ أن هذه المسرحيات لم يكن لها علاقة بالتاريخ ولا بالماضى ، إذ أنها ليست مسرحيات تاريخية ، على الرغم من أن اطارها الخارجى اطار تاريخى فى بعض الأحايين .

و « شهر زاد » غنية كذلك بالرمز ، فهى مسرحية رمزية بكل معنى الكلمة . وإذا كان محتواها وأبطالها شرقيين ، فإن الحكيم فيها يستمد من من الفكر الأوروبى الحديث كل خصائصها ، وبخاصة من ميترلينك الذى ظهر واقترن مسرحه بظهور تيار الرمزية فى المسرح الحديث ، فمسرحياته الرمزية كانت تقف بجوار شوامخ المسرحيات الواقعية والعادية فى زمنه ، مع شاعرية حواره . وكل هذه السمات تحققت كل التحقق فى مسرحية شهر زاد الذى بدا الرمز فيها قوياً ، حتى لكأنه وهو يقدم شخصياته المسرحية يعمل عمل الساحر ، إذ تبدو هذه الشخصيات كأدوات فى يد قوة خفية تنبعث من واقع غير منظور .

وشهر زاد أدق وأرق فى ذوقها الفنى من «أهل الكهف»، وهى كذلك أرهف منها فى الحس وألطف ، وجوها الشرقى أمتع منظراً ، وأوقع سحراً ، وروحها الصوفية أعرق تأصيلا ، وأعمق لغزاً وسرا ، ومن « شهر زاد » ورث الحكيم لقب « عدو المرأة » . .

— ٧ —

المسرح السياسى والاجتماعى للحكيم :

والمسرح السياسى والاجتماعى فى أدب توفيق الحكيم مسرح أدى ويؤدى دورا كبيرا فى حياتنا ، ومن « الضيف الثقيل » عام ١٩١٩ ، إلى « براكسا » التى فاجأ الحكيم بها الناس عام ١٩٣٩ إثر اضطهاد بعض السياسيين له ، فكانت أروع مسرحية سياسية بالمعنى الفنى الدقيق فى أدبنا العربى ، وفيها تأثرات من أرستوفان ومسرحيته المعروفة «مجلس النساء» .. وتدور أحداث

المسرحية فى بلاد الأغريق ، ولكن مضمونها نقد للديمقراطية الزائفة التى لاصلة لها بحقوق الإنسان وكرامته فى الحياة .

وفى عام ١٩٦٠ ظهرت مسرحية « السلطان الحائر » للحكيم ، وهى أول مسرحياته السياسية بعد ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ، وعالج الحكيم فيها مشكلات ضمان الحرية للمواطنين ، وضرورة العودة إلى الشرعية فى الحكم عن طريق رأى الشعب .

وفى مسرحية « شمس النهار » التى ظهرت عام ١٩٦٤ ، والتى تأثر فيها الحكيم بمسرح بريشت ، يستغل الحكيم الحدوتة الشعبية للدعوة إلى أن يستمع إلى رأى الشعب فى اختيار حكامه بكامل حريته ، وإلى ضرورة التصاق الحاكم بشعبه ليتعلم منه قبل أن يحاول تعليمه . وهو فيها ينطلق من أجواء « ألف ليلة وليلة » ومن جوهر التراث القصصى العربى .

أما مسرحية « بنك القلق » ففيها نقد لاذع لأساليب المخابرات فى الانصات على حياة المواطن الخاصة .

وفى مسرحية « كل شىء فى محله » التى كتبها الحكيم عام ١٩٦٦ ، ونشرها عام ١٩٦٩ فى الطبعة الجديدة للمسرح المنوع ، يصور لاذع لقرية مفككة تسيطر عليها الفوضى والإهمال والتراخى والإيمان بأن كل شىء يمكن أن يوضع فى مكان أى شىء آخر .

وفى مسرحية « صلاة الملائكة » عام ١٩٤١ يدافع الحكيم عن قيم

المعسكر الغربى الديمقراطى ، وهاجم المعسكر النازى الفاشستى ، ويرفع الصوت عالياً يدعو إلى السلام ، وليندد بالحرب وتجارها ومثيريها .

وفى مسرحية « أشواك السلام » (١٩٥٨) هاجم أساليب الحرب الباردة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى ، ويدعو التعايش السلمى بينهما لخير الإنسانية .

ونرى الحكيم فى « رحلة إلى الغد » (١٩٥٧) ، و « لعبة الموت » (١٩٥٨) و « الدنيا رواية هزلية » (١٩٧١) ينبه إلى أخطار استخدام التقدم العلمى فى إفناء البشرية والقضاء على الحضارة ويدعو فى « الطعام لكل فم » ١٩٦٣ إلى توجيه هذه الطاقات لاسعاد الإنسانية وتوفير الطعام لملايين البائسين من الناس عوضاً عن استخدامها فى صنع القنابل الذرية .

وفى « تقرير قرى » (١٩٧٠) تتردد أفكار قضية غزو الفضاء ، وفى « شاعر على القمر » (١٩٧١) يتحدث عن قضايا الإنسانية فى القرن الجديد .. وفى مسرحية « عصفور من الشرق » يصور الحكيم مشكلة الصراع بين الشرق والغرب ، بين النزعة الروحية والنزعة المادية ، ويناقش فيها المذاهب السياسية والاقتصادية المعاصرة . وهى صرخة فى وجه الدعوة إلى الإنفصال المطلق عن الشخصية القومية والذوبان فى حضارة الغرب .

وعندما نعود إلى الوراء إلى أول مسرحيات الحكيم التى بدأ بها الكتابة للمسرح نقف أمام مسرحية « الضيف الثقيل » (عام ١٩١٩) التى يذكر الحكيم قصتها وكيف أنها دارت حول محام نزل عليه ضيف عجيب

أقام لديه شهراً بالقوة ، ولم تجد معه حيلة فى الخلاص منه ، وفى مسكن المحامى وهو مكتبه ظل الضيف يمارس عمله ، وفى غيبة المحامى يقابل المتقاضين ، ويقبض منهم مقدم الأتعاب ، ويؤدى دوره ، كأنه هو المحامى الأصيل .

إنها مسرحية أقرب إلى السياسة والتنديد بالاحتلال الإنجليزى البغيض الذى كان يزعم آنذاك أنه ضيف مقيم إلى أن تساعد الظروف الدولية على خروجه . . ولكن هذا الضيف الثقيل كان يخلق الأحداث الدولية التى تمكن لدعاويه الباطلة فى البقاء طويلا فى وطننا ، ويستغل كل مقدرات مصر وثرواتها وكأنه صاحب البلد الأصيل .

إن الحكيم لم يستطيع فى ظل الرقابة المفروضة آنذاك أن يخرج هذه المسرحية على المسرح ، ومن ثم لم تصل إلينا هذه المحاولة التى ظهرت فى خلال ثورة ١٩١٩ المعبر عن التحام الأدب بقضايا الشعب .

ونقف عند مسرحية « صحصح الحبوب » (عام ١٩٧٢) وهى مسرحية سياسية تمزج بين الفكاهة والسخرية فى نقد حياتنا السياسية التى كان تهيمن على كافة نواحيها آنذاك سياسة « النهلوة » والجهل والغرور والأدعاء ، وخاصة فى شركات القطاع العام ، وفى جانب التعليم والتربية والثقافة .

— ٨ —

وتتميز الكثير من مسرحيات الحكيم بنزعة اجتماعية كما فى « عودة الروح » أو روحية كما فى « عصفور من الشرق » وهو فى « راقصة المعبد » يحاول دراسة الصلة بين الفن والحياة ، وفى « الرباط المقدس » يحاول دراسة الفنان الحائر القلق . .

و « عودة الروح » تصور المجتمع المصرى فى مرحلة الثورة الوطنية؛ إن كل ذلك رد فعل من أجل الرغبة التى تفشل فى تحقيق غايتها ، فتحس بنوع من الخيبة مما يدفعه إلى الهروب من الواقع والاستظلال بظل الخيال . ومع الغرابة التى تبدو فى أعمال الحكيم فى بعض الأحايين ، فإن فنه يتميز بوحدته وبرمزيته وبأنه صلة بين الفن والحياة ، وأنه يؤدى رسالة نحو مجتمعه لأنه يعمل من أجل هـــذا المجتمع وفن الحكيم يقوم على مهارة فى رسم الشخصيات وقوة فى إبداع الحوار ، ويتميز بإيثار العمل المثمر على التحليل النفسى ، وبإدخاله عنصر فى قصصه . وهو فى ذلك متأثر بأعلام المسرح فى الغرب ، من أمثال ماترلينك ، وبرناردشو ، وأناتول فرانس ، وديكنز ، وأبسن ، وسوام .

والمسرح الاجتماعى فى أدب الحكيم مسرح متميز ، ومع ذلك فقد عرف بالمسرح الذهنى كما فى مسرحياته « أهـــل الكهف » ، و « شهر زاد » و (بيجماليون) و « أديب ملكا » ، « سليمان الحكيم » ، و « عودة الشباب » . وهى مسرحيات قد لا تحقق نجاحا جماهيريا بحكم طابعها الذهنى وهدوء الحركة الدرامية فيها ، ولكنها تعالج مشكلات إنسانية عامة .

— ٩ —

وهى فى أغلب الأمر فلسفة واقعية ، لا تتنافى مع أدب الحكيم ومحاولاته استكناه حقيقة الحياة ، والكشف عن مسارها .

وقد خص الحكيم مسرح النقد الاجتماعى بمجلد ضخم هو « مسرح المجتمع » الذى يحتوى على إحدى وعشرين مسرحية كتبها بين عام ١٩٤٦

وعام ١٩٥١ ، وعالج فيها جوانب كثيرة من مظاهر التخلف والفساد والانتهازية والنفاق فى مجتمعنا .

والحكيم فى مسرحياته : رحلة صيد ، رحلة قطار ، الطعام لكل فم

وغيرها.وفى دعوته إلى مسرح الراوى والحاكى فى كتابه « قالبنا المسرحى». وفى أعماله الجديدة التى ظهرت فى السبعينات ، . يمثل إبداع الفنان وعقل المفكر ، وتجارب الفيلسوف . . وأدبه ولا ريب إضاءة للعقل العربى فى عصر الأزمات والأضطرابات والثورات والحروب والكشوف الخارقة . .

— ١٠ —

المسرح الرمزى عند الحكيم :

وفى عام ١٩٦٣ نشر الحكيم مسرحيته « ياطالع الشجرة » ، وهى من مسرح العبث أو اللامعقول ، والحكيم فيها متأثر بأعلام المسرح العبثى فى أوربا من أمثال ، بيكت وآدموف ، ويونسكو .

وموضوعها هو صراع الإنسان مع الكون ، ومحاولاته المستمرة للكشف عن سره ، والأهتداء إلى حقيقته .

وقضايا الصراع الإنسانى الدائر داخل الإنسان بين عقله وقلبه قضايا يقوم عليها البناء الفنى لمسرحية « ياطالع الشجرة » ، وطالما حاول الحكيم إلغاء القيود الزمانية والمكانية ، حتى لقد كتب فى عام ١٩٣٩ فى (الرسالة)

يقول : إننى حر من أغلال الزمان والمكان » . وكتب فى شهر زاد فى حواريته أمام « حوض المرمر » يقول : « إنى أهبط إليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه لالقاك فى الماضى الذى فيه نعيش الآن » .

ولقد استقطب الحكيم فى مسرحيته « ياطالع الشجرة » عدة قضايا شغلته فى مسرحيات سالفة ، وعبر عنها فى إيجاز فني رائع ، ونضج فكرى كبير ، مستخدما قاعدة فنية قادرة على الإثارة المسرحية والفكرية جميعا ، وهى قاعدة المسرحية البوليسية العادية . . وصفة القانونى والمحامى ووكيل النيابة والمحقق تبدو دائما فى حوار الحكيم فيها ، بل فى غير هذه المسرحية أيضاً . وتجيب المسرحية عن سؤال لايزال الحكيم يواجه به نفسه ، وهو : كيف يوفق الفنان بين الفكر والفن فى مسرحية واحدة ؟

— ١١ —

وبعد : فماذا نقول عن الحكيم ، الأديب ، والفنان ، والمفكر ، والرائد العظيم ، الذى خط فى شموخ وعبقرية على سفر الزمن والحضارة آيات لاتنسى وتراثا خالدا باقيا على الأيام ، وترك فى حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية آثارا لن ينساها جيلنا ولا الأجيال المقبلة .

إن ما كتبه الحكيم هو قطعة من حياة مصر وروحها وتاريخها وتراثها الحضارى والإنسانى ، وإذا كان الكثير مما كتبه أدباؤنا سوف يذهب بددا ، مع تقلب الأيام وتطور الفكر والحضارة ، ومع التقدم الإنسانى الذى تمر به البشرية يوما بعد يوم ، فإن ما كتبه الحكيم سوف يبقى حيا خالدا فى ضمير الزمن والأجيال الحضارة ، وفى وجدان مصر وعقلها وتراثها العظم .

بقى أن تدعو إلى إخراج كتاب شامل — قائمة بيبليوجرافية — شامل لكل ما كتب الحكيم وما ألف ، وما كتب عنه ولكل آثاره وترجماتها المختلفة ، لتكون مرجعا فى أيدى الباحثين والدارسين ، ولتعين ولتعين طلاب الجامعات على دراسة أدب الحكيم وفكره وتراثه العظيم .

عبد الرحمن الشرقاوى

حياة الشرقاوى من عمر الحركة الفكرية والادبية فى عصرنا .

وهو من رواد القصة والرواية الذين يشار لهم بالبنان ، وهو كذلك من كتاب المقالة المبدعين ، وله مسرحيات شعرية عديدة منها ملحمة عرابى .

إنه أحد كتاب القصة الكبار . ورائد من رواد الشعر الجديد، وروائى مسرحى ومن رواد الدعوة إلى الأدب الواقعى وإلى التجديد . ومن أبرز الكتاب فى الصحافة فقد عالج بكتابته القضايا السياسية والاجتماعية وقضايا الفن والحياة بأسلوب جديد من زوايا الالتزام . . .

وقد ولد عبد الرحمن أحمد الشرقاوى فى قرية الدلاتون مركز شبين الكوم محافظة المنوفية فى ١٠ نوفمبر عام ١٩٢٠ .

وتلقى تعليمه فى مدرسة الدلاتون الأولية . . ومدرسة شبين الكوم الابتدائية . . المحمدية ، محمد على ، والمحمدية الثانوية مرة أخرى .

وتخرج فى كلية الحقوق جامعة جامعة القاهرة عام ١٩٤٣ .

واشتغل بالمحاماة لمدة عامين .

وعمل مفتشا للتحقيقات بوزارة المعارف العمومية واستقال عام ١٩٥٦ .

ثم تفرغ للعمل الأدبى بجريدة الشعب ،

ورأس تحرير مجـلة الطليعة الشهرية التي كان يصدرها اتحاد خريجي الجامعة عام ١٩٤٥ حتى أغلقت عام ١٩٤٦ .

وشارك مع صديقه الفنان حسن فؤاد في إصدار مجلة « الغـد » عام ١٩٥٢ .

وشارك في تحرير الصفحة الأدبية لجريدة « المصرى » ونشر فيها الكثير من القصص والمقالات والقصائد . وخاض فيها معارك دفاعا عن الأدب الحديث .

وأشرف على الصفحة الأدبية بجريدة « الشعب » ثم جريدة « الجمهورية » وخاض على صفحاتها معارك كثيرة دفاعا عن الشعر الحديث .

وعين عضوا في مجلس إدارة مؤسسة « الأخبار » .

ثم عين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة « روزاليوسف » عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٧ .

وعين سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدرجة وزير ١٩٧٧ — ١٩٧٩ .

ثم تفرغ للكتابة في جريدة « الأهرام » ١٩٧٩ .

وحصل على جائزة الدولة التقـديرية في الآداب ونال وسام الآداب والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٤ .

وانتخب رئيساً لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية في مؤتمر عدن عام ١٩٨١ .

وهو أول من ترجم قصيدة لأرجون إلى الشعر العربي عام ١٩٣٨ .

وقد قرأ كل الثقافات العربية والعالمية وأفاد منها .

وأول قصة قصيرة كتبها « فتي من الريف » ونشرها في مجلة « اخر ساعة » بتاريخ ١٠ سبتمبر عام ١٩٤٩ . ثم أتبعها بقصص أخرى في « الهلال » . « المصرى » . « قصص للجميع » . « الجمهورية » .

كتب القصة القصيرة في الأربعينات وأوائل الخمسينات وتوقف بعد ذلك ليكتب الأعمال الروائية والمسرحيات الشعرية وغيرها . ويغلب على أعمال الشرقاوى القصصية « الواقعية » ، ويولى المضمون اهتماماً أكثر من الشكل . فأعماله القصصية معالجة من التاريخ وتهدف إلى إبراز الفكرة التي تتمشى مع الواقعية :

والجدير بالذكر أنه يمزج التاريخ بالواقع وبخاصة واقع الريف المصرى .

وفي الرواية كتب عبد الرحمن الشرقاوى أربع روايات عن القرية : « الأرض » . « الشوارع الخلفية » . « قلوب خالية » . « الفلاح » صور فيها معاناة القرية وصراعها في سبيل تأكيد وجودها ورفع الظلم عن كاهلها . وهي مراحل زمنية متعاقبة في حياة كاتبها وفي تاريخ الشعب المصرى والقرية المصرية .

وفي رواية « الأرض » قدم واقع القرية في أوائل الثلاثينات أيام حكومة صدقي .

و « قلوب خالية » تدور أحداثها في الأربعينات عندما كانت الحرب العالمية

الثانية على أشدها . .

ورواية « الفلاح » تدور أحداثها عام ١٩٦٥ .

« والشوارع الخلفية » : يرسم فيها الصورة الخلفية لنفس أبطالها إلى جانب صورة حياتهم الظاهرة . . ويوفق فى تقديم هذا النسيج المتشابك المعقد الذى يكون حياتنا ونفوسنا بما فيها من شهوات وأطماع ومتع شخصية .

والرواية عند عبد الرحمن الشرقاوى تصور حياتنا الاجتماعية والسياسية معا . . وهو رائد « الواقعية » .

وإنتاجه القصصى متعدد فمنه :

١ — أرض المركة صور من كفاحنا الشعبى ١٩٥٢

٢ — أحلام صغيرة مجموعة قصصية سلسلة كتب للجميع ١٩٥٦

وفى الرواية كتب أربع روايات :

٣ — الأرض صدرت فى جزءين سلسلة الكتاب الذهبى ١٩٥٤

٤ — قلوب خالية سلسلة « الكتاب الفضى » ١٩٥٧

٥ — الشوارع الخلفية الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٨

٦ — الفلاح عالم الكتب ١٩٦٨

وفى المسرح الشعرى كتب العديد من المسرحيات ، مثل :

١ — مأساة جميلة دار المعارف ١٩٦٢

٢ — الفتى مهران المكتبة العربية ١٩٦٥

٣ — وطني عكا دار الشروق ١٩٦٨

٤ — ثأر الله أو الحسين شهيداً دار الهلال ١٩٧٠

٥ — النسر الأحمر دار المعارف ١٩٧٥

٦ — أحمد عرابى الأهرام ١٩٨١

وفى الفكر والدراسات الإسلامية كتب الكثير منها ، مثل :

١ — ثورة الفكر الإسلامى ١٩٥٨

٢ — محمد رسول الحرية عالم الكتب ١٩٦٢

٣ — قراءات فى الفكر الإسلامى ١٩٧٣

٤ — ابن تيمية الفقيه المعذب الموقف العربى ١٩٨٣

٤ — أئمة الفقه التسع دار اقرأ ١٩٨٢

٦ — على أمام المتقين — جزءان ١٩٨٤

وكتب مقالات فى الأدب والسياسة والفكر .

كما كتب للسينما عددا كبيرا من السيناريو والحوار وقدمت له رواياته: الأرض . الشوارع الخلفية . جميلة .

وقدم له المسرح القومى مسرحياته الشعرية وكانت بداية الشعر المسرحى الجديد .

وترجمت بعض مؤلفاته إلى عدد اللغات الأجنبية .

وكتب عن حياته وكتاباته عشرات المقالات والدراسات الأدبية .

أبرزها كتاب « الشرقاوى . . ثائرا » للكاتب الأديب مصطفى عبد الغنى .

وأعمال الشرقاوى موضوع دراسات ورسائل فى مختلف جامعات العـــالم(٤) .

(٤) راجع مجلة القصة ، عدد أكتوبر ١٩٨٤ دراسة بقلم الأستاذ محمد صبرى السيد .

القصة فى الادب العربى الحديث (١)

— ١ —

القصة عمل أدبى يصور حادثة من حوادث الحيـــــاة أو عدة حوادث مترابطة ، يتعمق القاص فى تقصيها والنظر إليها من جوانب متعددة ليكسبها قيمة إنسانية خاصة مع الارتباط بزمانها ومكانها وتسلسل الفكرة فيها وعرض ما يتخللها من صراع مادى أو نفسى وما يكتنفها من مصاعب وعقبات على أن يكون ذلك بطريقة مشوقة تنتهى إلى غاية معينة .

ويعرف بعض النقاد الغربيين القصة ـــ بأنها ـ حكاية مصطنعة مكتوبة نثراً تستهدف استثارة الاهتمام سواء أكان ذلك بتطور حوادثها أو بتصويرها للعادات والاخلاق أو بغرابة أحداثها .

والأنواع القصصية المعروفة هى :

١ — الرواية وهى أكبر الأنواع القصصية حجما ، وترتبط بالفرار من الواقع وتصوير البطولة الخيالية ، وفيها تكون الأهمية للوقائع ، وهى قصة مكتملة العناصر الفنية ، ووقائعها مستمدة من الخيال ، وهى أقرب شبها

---

(١) راجع : القصة فى الأدب العربى الحديث ليوسف نجم ، وفن القصة القصيرة لرشاد رشدى ، وفن القصص لمحمود تيمور والقصة فى الأدب المصرى الحديث لعباس خضر ، والفن الأدبى للحوفى ، وفجر القصة المصرية ليحيى حقى . وتطـــور فن القصة القصيرة فى مصر ١٩١٠ — ١٩٣٣ لسيد حامد النساج .

بالملاحم. ومن الكتاب من يجعل الرواية مرادفة لكلمة القصة للدلالة على كل ما احتوى على عنصر الخيال والأحداث والشخصيات.

٢ — الحكاية لهى سوق واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية ، لا يلتزم فيها الحاكى قواعد الفن الدقيقة .

٣ — القصة القصيرة [١] تختلف عن القصة بوحدة الانطباع ، وغالباً ما تحقق الوحدات الثلاث التى عرفتها المسرحية الفرنسية الإنكليزية . فهى تمثل حدثا واحدا ، فى وقت واحد وزمان واحد ، قد يكون أقل من ساعة والقصة القصيرة حديثة العهد فى الظهور ، وهى أكثر الأنواع الأدبية رواجا وأشهر كتابها إدجار الان بو الأمريكى ، ومن أشهر كتابها فى أدبنا : المازنى ، ومحمود تيمور ، ومحمود عزى ، وحسن محمود ، ولاشين ، وإبراهيم المصرى ، وسعد مكاوى .

والقصة القصيرة تهدف إلى تصوير حدث متكامل له بداية ووسط ونهاية بحيث تقوم بينها علاقة عضوية [٢] .

٤ — الأقصوصة ، وهى أقصر من القصة القصيرة وتقوم على رسم منظر ، كما يصنع يوسف إدريس فى أقصوصاته .

٥ — القصة وتتوسط بين بين الاقصوصة والرواية ويحصر كاتب

---

(١) راجع : الأقصوصة فى الأدب العربى الحديث لعبد العزيز عبد المجيد . القصة القصيرة فى مصر لعباس خضر . دراسات فى الرواية والقصة القصيرة للشارونى . القصة القصيرة للنساج .

(٢) راجع ١١٣ القصة القصيرة لرشاد رشدى .

الاقصوصة اتجاهه فى ناحية ويسلط عليها خياله ، ويركز فيها جهده ، ويصورها فى إيجاز وكتابة الرواية تستلزم خبرة بالحياة واسعة ولايحفل كاتبها بإيجاز أو اقتصاد ، من حيث يضطر كاتب الاقصوصة إلى التدقيق فى الاختيار .

وقد تعنى القصة عناية خاصة بالحادثة أو بالشخصية .

ومميزات القصة الفنية أن تكون نثراً لا شعراً ، وأن تكون واقعية ، وأن تتميز بالتحليل والبسط ، وعناصر القصة هى : المادة وهى الحادثة أو الحكاية ، والشخصية ، والصراع ، وزمان القصة ومكانها ، والفكرة ، والعقدة أو المشكلة والسرد ، والبناء [1] .

نشأة القصة وتطورها فى الآداب الاوربية :

نشأت القصة متأخرة عن الملحمة والمسرحية فى الأداب الحديثة وقد تحررت من القيود والتقاليد ، ولذلك راجت رواجا كبيراً ، وقد ظهر النثر القصصى فى القرن الثانى قبل الميلاد عند اليونان ، وكان آنذاك ذا طابع ملحمى حافلا بالمغامرات الغيبية وبالسحر والأمور الخارقة .

وظهرت القصة فى الادب اللاتينى فى نهاية القرن الأول الميلادى مكسوة بطابع هجائى ، ثم تأثرت بعد ذلك بالقصة اليونانية فى نزعتها الملحمية ، وبذلك اكتست القصة طابعا خياليا ، جعل القصة الخيالية تسبق إلى الوجود القصة التاريخية .

وفى العصور الوسطى ظهرت قصص ذات طابع شعبى ، متأثرة بالقصص الشعبى فى الأدب العربى ، ومن هذه القصص قصص الفروسية

(١) راجع ١٥٣ — ٢٠٦ الادب وفنونه لعز الدين إسماعيل .

والحب ، وعلى الراجح فإن هذه القصص العاطفية كانت أثراً من آثار اتصال الغرب بالشرق في الحروب الصليبية وفي الاندلس ، مما هو صورة للحب عند العذريين العرب ، وصورة لما جاء في كتاب «الزهرة»(١) لأبي بكر محمد بن داود الاصفهاني الظاهري المتوفى سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩م ، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الاندلسي المتوفى ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م ، وعلى نمطها ألف أندريه لوشا بلان كتابا باللاتينية سماه « فن الحب العف بعد منتصف القرن الثاني عشر الميلادي »

وفي عصر بدء النهضة أي في القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت قصص الرعاة وكانت أقرب إلى الواقع من قصص الفروسية — ثم ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قصص الشطار ، وهي قصص تمثل التقاليد والعادات للطبقات الصغيرة في المجتمع ، وقد وجدت أول الأمر في أسبانيا ؛ ولعلها وجدت كذلك معأثرة بأمثالها من القصص في الأدب العربي مما تمثله قصص التنوخي في كتابيه (الفرج بعد الشدة ؛ ونشوار المحاضرة) وقصص (المقامات العربية) التي اشتهرت بين الأدباء العرب في أسبانيا ، بل بين غير العرب فيها أيضاً ، وبتأثير الكلاسيكية وقواعدها بدأت القصة تعنى بالتحليل النفسي .. وفي آخر القرن الثامن عشر وبتأثير الرومانتيكية نهضت القصة في آداب أوربا ، وتطورت من قصص العادات والتقاليد السابقة إلى القصص ذات القضايا الاجتماعية ، وتأثرت القصة أكثر بالنزعة الرومانتيكية فظهرت القصة التاريخية بفضل (ولترسكوت) (١٧٧١ — ١٨٣٢) منشيء القصة التاريخية في أوروبا ، وذاعت هذه القصة التاريخية في عصر الرومانتيكية وماتت بانتهائه في القرن التاسع عشر .

(١) منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٤٨ أدب وقد طبع في بغداد

ثم نشأت بعد ذلك القصة الواقعية . وذلك هو تطور القصة في الأدب العربي من أقدم عصوره [1] .

نشأة القصة وتطورها في الأدب العربي القديم :

أما القصة في الأدب العربي القديم ، فقد بدأت منذ العصر الجاهلي في قصص قصيرة ترويها مصادر الأدب العربي كالأمالي والأغاني والفرج بعد الشدة ونشوار المحاضرة وغيرها ، وكان طابع القصة العربية في أغلب الأمر أخلاقياً ، ونعلم أنه كان للعرب قصص وأساطير وأسمار تعبر عن حياتهم تعبيراً صادقاً ، منذ العصر الجاهلي ، وفي الجاهلية كان النضر بن الحارث يقص قصص الفرس وأساطيرهم ، وكذلك كان أبو زبيد الطائي وهو من الشعراء المخضرمين وتوفي عام ٣٩ هـ عن نحو مائة وخمسين عاماً [2] يزور بلاد الفرس ويلم بسيرها ، ويقص قصصهم وأساطيرهم . وقص الأعشى في شعره كثيراً من قصص الفرس والعرب ، وكذلك عدى بن زيد ، كما كان أمية بن أبي الصلت يقص قصص التوراة والإنجيل .

ولما ظهر الإسلام ، واتسعت الفتوحات ، وجال العرب في كل مكان ، واطلعوا على كثير من أقاصيص الفرس والروم والهنود والمصريين وغيرهم

---

(١) أما القصة القصيرة فمن أشهر كتابها « إدجار ألان بو » الأمريكي ، ولا تستغرق قراءتها أكثر من نصف ساعة إلى ساعتين ، أما الرواية فهي أكبر الأنواع القصصية ، وهي تمتاز بالفرار من الواقع وتصويره البطولة الخيالية .

(٢) ١٢٧ — ١٣٩ : ١٢ الأغاني .

من الأمم القديمة ، اتسع خيالهم ، ونمت مواهبهم فى فن القصة ، وتوسعوا فى ذلك اتساعاً كثيراً .

وبالتأليف فى فن السيرة وفى التاريخ اتسع مجال القصة فى الأدب العربى، ولوهب بن منبه (ت ١١٤ هـ - ٧٣٢ م) كتاب « التيجان » فى ملوك حمير [١] وهو مطبوع فى حيدر آباد ، وينسب الكتاب لابن هشام [٢] .

وألف أبو مخنف الأزدى فى أيام العرب وأحاديث الخلفاء والولاة وفى الخوارج والفتوح ، وقد عاش فى الدولة العباسية واشتهر فيها [٣] .

ولما جاء العصر العباسى اتسعت العناية بالقصة وكثرت القصص والأساطير فى الأدب العربى ، وألفت فيها كتب كثيرة . من ذلك : المحاسن والأضداد للجاحظ ، والمكافأة لأحمد بن يوسف (٣٤٠ هـ) ، ومنها قصص « العقد الفريد » و « الحيوان والمحاسن والأضداد للجاحظ » ، وقصص « الأمالى » للقالى ، وروايات الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، وقصص المقامات ، وحكايات محمد بن القاسم الأنبارى (المتوفى عام ٣٢٨هـ)، والفرج بعد الشدة ونشوار المحاضرة وهما للتنوخى (٣٨٤ هـ) .

ومن أهم القصص العربية القديمة : أسمار التوحيدى ، والتوابع والزوابع لابن شهيد ، وألف ليلة وليلة ، ورسالة الغفران لأبى العلاء ، وحى بن يقظان لابن طفيل .

أما القصة على لسان الحيوان نثرا وشعرا فهى فن أدبى وجد فى الأدب

---

(١) المتحف البريطانى ثانى ٥٧٨

(٢) ص ٢٥٣ : ٢ تاريخ الادب العربى لبروكلمان .

(٣) ٢٥٣ : ٢ بروكلمان ، تاريخ الادب العربى .

العربي القديم بترجمة ابن المقفع لكتاب « كليلة ودمنة » من اللغة الفارسية إلى العربية .

القصة في أدبنا الحديث :

من أوائل القصص في الأدب المصري مجموعة من القصص الشعبي على طراز ألف ليلة وليلة للشيخ محمد المهدي الحفناوي في تصور البيئة المصرية وهي مفقودة ، وقد خلدتها ترجمة مارسيل الفرنسي — أحد علماء حملة نابليون على مصر — لها إلى الفرنسية ، واسم هذه المجموعة — « تحفة المستيقظ ومقامات المارستان » وهي على لسان شخص خيالي اسمه « عبد الرحمن المنحوس » ثم قصة علم الدين لعلي مبارك ، وهي قصة تمثل شيخاً أزهرياً تتلمذ عليه مستشرق انكليزي وتعلم على يديه اللغة العربية ودعاه الإنجليزي لزيارة بلاده ، وفيها يصف علي مبارك ما دار بينهما من حوار قبل السفر وبعده .

وبتأثير الآدب الأوربية واتصالنا بها وجدت لدينا القصة ، ودخل هذا الفن الأدبي إلى أدبنا الحديث ، فظهر أول ما ظهر من الآثار القصصية الفنيـة :

١ — حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي ١٨٥٧ — ١٣٤٩ : ١٩٣٠) وقد زاوج فيه بين الجد والدعابة والسخرية ، وتناول ما جل ودق من شئون الحياة ، باللمحة الدالة حيناً والتفصيل الواسع أحياناً ، وتغلغل إلى أعماق النفس المصرية درساً وتحليلا[1] ، وقد ملأه بالصور التي تشبه الصور « الكاريكاتيرية » في النقد الاجتماعي وتحليل الأشخاص ، متأثراً بفن المقامة في الأدب العربي .

---

(١) راجع ص ٢١ - ٢٢ قصة الأدب في مصر للمؤلف .

وبالأدب القصصي الأوربي. فني قصص الكتاب من المقامات أسلوبها والراوي والبطل، وفيها من الأدب الغربي موضوعها في النقد الاجتماعي، ومنها القصصي البارع وقد ظهر عام ١٩٠٧ . وعلى ضـوء « حديث عيسى بن هشام » ليالي سطيح لحافظ « وشيطان بنتاءور » لشوقي، «ولادياس» لشوقي أيضاً الذي توجد فيه عناصر فنية أخرى من « ألف ليلة وليلة » .

وتخلص الأدب القصصي شيئاً فشيئاً من آثار التقليد للقصة العربيـة القديمة، مع احتذاء الأصول الفنية للقصة من الآداب الأوربية ، فترجمت قصص عدة من اللغات الأوربية ، مع التحوير فيها لتطابق الذوق العربي كقصة : بول وفرجيني للكاتب الفرنساوي « سان بيير » التي ترجمها محمد عثمان جلال وسماها « الأماني والمنة في حديث قبول وورد جنة » كما ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه « الفضيلة » ، وترجم في كتابه « الشاعر » مسرحية « سيرانودي برجراك » للشاعر الفرنسي « إدمون روستان » وكذلك فعل حافظ إبراهيم في « البؤساء » التي ترجمها من أدب « هوجو » ، ثم الزيات في ترجمته لآلام فرتر من أدب « جوته » . وترجم جورجي زيدان (-١٩١٤) قصصه التاريخية متأثراً باتجاه ولترسكوت (١٧٧١— ١٨٣٢ م) .

ثم عني الأدباء بتأليف القصة متأثرين بالاتجاهات الأدبية فكتب محمد حسين هيكل قصته « زينب » ، والعقاد قصته «سارة» ، ومحمد فريد أبو حديد قصصه المشهورة « زنوبيا – المهلهل – سنوحي – أنا الشعب » وكتب توفيق الحكيم قصة « عودة الروح » وكتب عبد الرحمن الشرقاوي قصته « الأرض » وكتب نجيب محفوظ قصصه « خان الخليلي – زقاق المدق – بين القصرين – اللص والكلاب .

وهكذا كانت المحاولات الأولى لكتابة القصة العربية تتسم بالتردد وعدم الأصالة، كما نجدها فى القصة التاريخية عند سليم البستانى وجميل نخلة المدور وفرح أنطون، وفى قصة المغامرات عند حافظ الدمنهورى ويعقوب صروف وأمين الريحانى، وفى القصة الاجتماعية فى مقامات المويلحى وعند حافظ إبراهيم والمنفلوطى، ومحمد لطفى جمعة، ثم محمود تيمور رائد الأقصوصة.

ومن رواد القصة العربية الأوائل: جورجى زيدان رائد القصة التاريخية وجبران رائد الأقصوصة، وميخائيل نعيمة الذى تكتمل عنـــده عناصر الأقصوصة الفنية، وتبـــدو عنده النزعة الإنسانية لاسيما فى قصة لقاء، أما حسين هيكل فى قصته زينب فيتسم بطابع محلى جانحاً إلى التحليل النفسى وقد ألفها هيكل عام ١٩١٢ وقد نظر فيها إلى الريف والفلاحين تلك النظرة التى تقول بأن مناظر الريف وعادات أهـــله وأخلاقهم جديرة بالتسجيل والإعجاب[١].

وقد رأى محمود تيمور فيها لوناً واقعياً يهبط بالقارىء من سماء الخيال إلى الأرض التي نحيا عليها، وهى أول قصة مصرية بالمعنى الحديث، وتدور حول قصة حب جمع بين زينب وإبراهيم.

وهيكل لم يكد[٣] يسترده وطنه بعـــد رحلته فى سبيل العلم الجديد، وارتوائه من الأدب الأجنبى، حتى يتلفت حوله ليرى: أين اللون القصصى فى أدبنا العربى؟ فلا يجد إلا تلك القوالب الجامدة التى علاها الصدأ وأخلقها الزمن، فينبعث مقدماً ذلك المثال الطريف من القصة المصرية.

---

(١) على الراعى - دراسات فى الرواية المصرية ص ٣٦.
(٢) ١٦ شفاء الروح لمحمود تيمور.
(٣) ٤ : ٦٤ صور من الأدب الحديث للخفاجى.

والمخضرمون من الأدباء يذكرون أن صحيفة « السفور » تجلت فيها طلائع النزعات الحديثة في الأدب والفن ، وعلى أنقاضها علا صرح « السياسة الأسبوعية » ، فرأينا كتاب « السفور » الذين لمعت أسماؤهم فيها يعاودون نشاطهم من هذا المنبر المتهد ، خرجت « السياسة الأسبوعية » بمباحثها ودراساتها كأنما هي جامعة تضم مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد ، ولعلها كانت وليدة الضرورات والملابسات الاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن ، إذ كانت الجامعة الحكومية لما تزل في مهدها ، طلابها نفر قليلون ، على حين يتطلع شاب العصر إلى المعرفة والتأدب ، فكان على « السياسة الأسبوعية » أن تروى ظمأ الجهور الراغب في التثقيف والتنوير .

وكان لإقبال شوقي والعقاد والمازني وهيكل على الأدب القصصي أثر في دعم مكانة القصة ورفع صروحها ، واحتلالها مكانة مرموقة في أدبنا الحديث بعد مقامات المويلحي ومترجمات المنفلوطي .

والقصة المصرية إما : تاريخية ، أو تحليلية ، أو اجتماعية تسعى لخلق أدب مصري صرف وتنزع نحو الواقعية .

ويمثل القصة التاريخية جورجي زيدان ونقولا حداد الذي يمتاز بشعبيته ولكنه يخلو من الأصالة ، ومحمد فريد أبو حديد ، الذي يتميز على جورجي زيدان بتحليله الدقيق للبطولة في واقع حي ، ويتخذ من القصة وسيلة لإحياء الفكر .

والقصة التحليلية تعتمد على التحليل النفسي محاولة الكشف عن خبايا أبطالها النفسية ، ويمثلها عباس العقاد في قصته « سارة » التي يحلل فيها الحب ويظهر فيها تأثير « بورجيه » . . ويمثل القصة الاجتماعية كل من الأخوين عيسى ومحمود طاهر لاشين ومحمود كامل المحامي لاسيما في قصة « حواء الظلام » ، أما يحيى حقي فإن قصته « قنديل أم هاشم » مثال لاختلاف كل من الشرق والغرب .

ومحمود تيمور من أعلام القصة المصرية المعاصرة ، وقد تطورت قصصه من الواقعية الصرفة إلى التحليل لاسيما فى رسم الشخصيات ، والقصص الأسطورية عنده تبدأ فى قصة « نداء المجهول » ، إلى « كليوباطرا » وقد بدأ بنزعة مصرية انتهت به إلى نزعة إنسانية والمؤثرات الأجنبية فى قصصه ترجع إلى أدب : دى موباسان ، وزولا ، وبلزاك ، ووايلد ، وتورجنيف ، وقصص محمود تيمور الواقعية كان طابعها الإغراق فى الواقعية أحياناً ، وهو قاص ليس ملتزماً ، وصلاته بالمجتمع المصرى صلات واقعية .

وقدم تيمور للأدب العربى الحديث خدمات جليلة طيلة أربعين عاما ، بالتنويه به والتعريف بأعلامه ، ووضع أسس علمية لدراسته وتحديد خصائصه .

ويعد فى طليعة الرواد لفن القصة والأقصوصة فى الأدب العربى المعاصر ، ومن المبتدعين لملامح أصيلة فى هذا الجانب الفني الروائى .

وأديب واقعى النزعة ، ومن دلائل ذلك قصصه الطويلة : إلى اللقاء أيها الحب ، والمصابيح الزرق .

وهو صاحب أسلوب متميز واضح السمات الأصيلة من بين أساليب أعلام الأدب المصرى الحديث ، وطابعه الصدق والبساطة . والقدرة الفذة الباهرة فى رسم الشخصيات وتصويرها وبعث الحياة فيها .

أما المازنى فتمتاز أقاصيصه الأولى بالوصف الاجتماعى ، وتبدو أصالته فى قصته « إبراهيم الكاتب » حيث يعرض المؤلف لوصف حب البطل لثلاث نساء معا وتبدو براعته فى تأليف القصة ، وهو يستعين بعناصر شخصية خاصة ، ويبدع فى إخفاء الدعابة والسخرية فى قصصه ، ويظهر عند المازنى تأثير كل من الأدبين الانجليزى والروسى .

— ٢ —

والقصة القصيرة تبدأ بمدرسة مجلة « السفور » (١٩١٥ — ١٩٢٥) لعبد الحميد حمدى ، ومن كتابها :

محمود عزى ، ومحمد تيمور ، ومحمود تيمور ، وحسن محمود ، وعيسى عبيد ، وشحاته عبيد (١٩٦١) ، وكان عزى رائد هذه المدرسة القصصية ، وله ثلاث عشرة قصة ، كتبها ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩٢٣

وتلى مدرسة السفور مدرسة مجلة الفجر (يناير ١٩١٥ — ١٩٢٧) وكان من قصاصيها : يحيى حقى[1] ، ومحمود تيمور ، ومحمود طاهر لاشين ، وأحمد خيرى سعيد ، وحسين فوزى .

ويقول على كامل فيضى : إن محمد تيمور اقتبس — كما لاحظ كامل التلمسانى — قصة « العشرة الطيبة » من رواية « ذو اللحية الزرقاء » للأديبين الفرنسيين : ميلك وهاليفى ، التى عرضت لأول مرة فى باريس عام ١٨٦٦ .

ورائد القصة القصيرة فى أدبنا الحديث فى رأى د . سيد حامد النساج هو : صالح حمدى حماد[2] ، وذلك بمجموعته أحسن القصص عام ١٩١٠ .

بينما يرى على كامل فيضى : أن محمود عزى هو أول رائد للقصة العربية

---

(١) راجع القصة القصيرة عند يحيى حقى لسيد النساج - المساء عدد ١٩٦٩/٧/٦ .

(٢) جريدة الأخبار — ٩-١٩٦٩

القصيرة فى مصر فقد نشر فى مجلة السفور ما بين عامى ١٩١٥ و ١٩٢٣ ثلاث عشرة قصة ، بينما لم تزد القصص التي نشرت لمحمد تيمور والتى تضمنتها مجموعة « ماتراه العيون » عن سبع قصص نشرت فى سنة ١٩١٧ .

أما عباس خضر فيؤكد أن محمد تيمور (١٩٢١ م) هو رائد القصة القصيرة لأن إنتاج عزمى دون مستوى إنتاج المدرسة الحديثة... وقد أكد يحيى حقى فى كتابه فجر القصة المصرية ريادة محمد تيمور .

وعبد العزيز عبد المجيد يؤكد أن قصة ميخائيل نعيمة «سنتها الجديدة» التي نشرت عام ١٩١٤ هى أول قصة فنية فى الأدب العربى .

ومحمد يوسف نجم : فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث في لبنان حتى الحرب العظمى » يذكر أن قصة ميخائيل نعيمة « العاقر » التى نشرها عام ١٩١٥ هى أول قصة فنية فى الأدب العربى الحديث .

ومحمد رشدى حسن : فى رسالته عن « أثر المقاومة فى نشأة القصة المصرية الجديدة » يرى أن محمد لطفى جمعة أول كتاب القصة بمجموعته القصصية « فى بيوت الناس » التى نشرت عام ١٩٠٤ ، ثم أصدر مجموعة « ليالى الروح الحائر » عام ١٩١٢ .

ولقد مر على الرواية والقصة القصيرة والمسرحية قرابة ستين عاما فى الأدب العربى : فأبو الرواية المصرية هو المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل باشا بروايته زينب . وآباء القصة القصيرة طه لاشين وحسين فوزى ومحمود تيمور وغيرهم .. وأبو المسرح هو أستاذنا توفيق الحكيم .

وقد كتب الدكتور طه والمازنى والعقاد الرواية .. وترجم الزيات آلام

قرتر ولكن هؤلاء العمالقة كانوا يكتبون الرواية فيما يكتبون : فالدكتور طه كتب فى التاريخ وكان أستاذا فى الجامعة : والمازنى كان يكتب المقالة ويقوم بالترجمة ويعمل بالصحافة . والعقاد كان يكتب فى السياسة وفى الأدب وفى العلوم وكان موسوعيا .. والزيات كان يكتب المقال الأدبى . فجميع هذا الجيل كانوا كتابا ولكن لا نستطيع أن نطلق على أحد منهم اسم الروائى .

والأمر مختلف فى القصة القصيرة: فالصفة الغالبة على الأستاذ تيمور هو كاتب القصة القصيرة والصفة الغالبة على أستاذنا الحكيم هو المسرحية وهو رائد فى حياة الرواية المصرية ولكننا أيضاً لا نستطيع أن نقول الروائى توفيق الحكيم .

إنما يبدأ هذا الاسم مع ظهور نجيب محفوظ وجيله فالرواية عنده هى الأساس .

ونجيب هـــو أول من وضع الرواية العربية على أسس عالمية . فقد استطاعت الرواية المصرية العربية بفضله أن تقف شامخة بجانب الإنتاج الغربى . وعلى يد نجيب عرفنا جويس وبروست وعرفنا تيار الوعى، وعلى يده عرفنا البناء الروائى المحكم . ولاشك أن نجيب درس أصوله الروائية الغربية دراسة وافية متأنية كان لها الفضل مع موهبته الخارقة فى إقامة هذا الصرح الباذخ المسمى نجيب محفوظ . . ترى هل نستطيع اليوم أن نجد الشكل العربى فى الرواية[1] ؟

---

(١) ثروت أباظة - الأهرام ١٩٨٤/١/٣٠ -

ليست القصة إلا رواية عن الإنسان ينقل فيها القصاص صوراً حية. وهناك أنواع كثيرة من القصص من الناحية الموضوعية . منها :

القصة السياسية ، القصة العلمية ، القصة التاريخ ، القصة الاجتماعية ، القصة الساخرة ، القصة الدينية ، القصة التربوية . . وباختصار نجد دائما قصصا تتناول كل فرع من فروع حياتنا المتشابكة المتداخلة تلك الحياة التي نعيشها الآن في عالم دائم التغير .

والقصة السياسية ليست بالشيء الجديد أو المستحدث في عصرنا هذا ولكن بلزاك مثلا كتب قصصا يبين فيها مثله العليا في السياسة ، ولم يقتصر الأمر عليه بل شمل الكثير من المثاليين الذين عبروا عن مثلهم السياسية في أسلوب روائي خيالي . الشيء الوحيد الجديد في عصرنا هذا هو أبعاد القصة السياسية وأهميتها بالنسبة للصراعات السياسية التي يعاني منها العالم الحديث .

وهناك نوعان رئيسيان من القصة السياسية :

١ — قصص تدور حول شخصيات سياسية وبالتالي حول السياسة نفسها .

٢ — قصص تحاول أن تحض القراء على اتباع مذاهب سياسية معينة وغالباً ما يكون هذا النوع دعائياً .

ويمكن الحكم على نوعية القصة السياسية عن طريق معيارين أساسيين مختلفين هما :

١ — قيمتها بالنسبة للتفكير السياسي .

٢ – قيمتها كعمل روائى أدبى .

ولكن بالرغم من وجود هذين المعيارين الاساسيين بالنسبة لتقييم ونقد القصة السياسية فإن هذا النوع بالذات من القصص ، قد يجد من بين النقاد من يكيل المديح أو الاتهام لقصة ما ، لا لشيء سوى أن القصة تتفق مع ميوله السياسية أو تتعارض معها ، بغض النظر عن قيمتها من الناحية الأدبية أو الروائية أو حتى الناحية السياسية .

وكتابة القصة السياسية ذات القيمة الروائية والسياسية معا أمر ليس سهلا كما يتصور البعض ، فالقصاص عادة عندما يبـدأ فى كتابة قصة من القصص يحاول أن يتخيل أولا شخصيات القصة ، ثم يبدأ فى سبك موضوع القصة حولهم . وعنـدما يعيش الروائى مع أبطال قصته وينسج حولهم الظروف المختلفة التى تتكون منها روايته فإنه من المتوقع أن تخرج القصة إلى النور وهى على مستوى روائى جيـد . ولكن عندما يضع القصاص الخطوط العريضة لقصته السياسية على أساس مهاجمته مبدأ معينا أو تأييد مذهب سياسى آخر ، فإنه بعد أن يضع هذه الخطوط العريضة يبدأ فى عملية خلق الأشخاص الذين سيقومون ببطولة قصته ، ويحملون الرسالة التى يريد أن يبلغها للقراء ، أى أنه فى هذه الحالة يخل بمبدأ أساسى من أسس التأليف القصصى ، أو بعبارة أخرى فإن السياسة هنا تتغلب على الفن القصصى . ولا يعنى هذا أن أغلب القصص السياسية تكون قيمتها الأدبية أو الروائية أقل من قيمة الأنواع الأخرى من القصص ، فهناك من القصاصين من يكون فى الأصل صحفيا سياسيا بارعاً يستطيع أن يكتب القصة السياسية بعاطفة جياشة تخفى أى نقص أدبى فيها .

والقصة السياسية الجيدة البعيدة عن الدعاية تلعب دوراً خطيراً فى أى مجتمع فهى وسيلة فعالة للتأثير على الجمهور من القراء ، وهى كقصة ، طويلة أم قصيرة ، أقرب إلى القلوب من المقالات السياسية الجافة . ففى القصة السياسية حياة يخلو منها المقال السياسى ، وهذه الحياة هى التى تجعل أثر القصة يتسلل داخل نفوس قرائها دون أن يشعروا به شعورا قويا . ومع تسلسل انفعالات القارىء ، ومع هذه الانفعالات وعن طريقها ، يبدأ التعبير عن آراء للكاتب وقد لا يستطيع التعبير عنها فى مقال مباشر نتيجة للرقابة على الصحف أو على التأثير الذى يريده الكاتب حيث يحدث بالتدريج فى نفس القارىء . وقد تستغل القصة السياسية أيضاً الإنتاج الفكرى فى بلد من البلاد .

وتلعب القصة السياسية دوراً بارزا الآن فى الحرب الباردة بين دول الغرب ودول الشرق .

أما القصة التاريخية فهى تلك القصة التى يمتزج فيها الخيال بوقائع تاريخية ثابتة . أو هى تلك القصة التى تقع أحداثها فى فترة لم يعاصرها القصاص مما يستدعى منه أن يقوم بدراسة هذه الفترة دراسة مستفيضة . وهذا يعنى أن القصاص فى هذه الحالة لا يكتب قصته بناء على تجربة شخصية ولكن يحاول أن يخلق شخصيات عاشت وماتت ، وأحبت وكرهت ، فى عالم يختلف تمام الأختلاف عن عالمه الذى يعيش فيه ومن هنا تنشأ صعوبة القصة التاريخية فأبطال هذه القصص يجب أن يكونوا منتمين إلى عصورهم التاريخية ويؤمنون بأشياء لم نعد نحن نؤمن بها ، وبأحاسيس تختلف كثيراً عن أحاسيسنا .

والقصة التاريخية أو الرواية التاريخية تختلف عن التاريخ نفسه .

فالتاريخ أو تاريخ الأشخاص يهتم بالمعلومات أساساً بينما تزودنا القصة التاريخية بالإحساسات أكثر من المعلومات ، وتجعل القارئ يتخيل أنه يشارك أبطال التاريخ حياتهم بالرغم من أن الزمن والموت يشكلان حاجزاً لا يقهر بينه وبينهم . وللقصة التاريخية أهمية كبيرة فهي تجعل قارئها يعيش التاريخ مع أشخاصه ومع عاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم ، وعن طريق تسلسل الرواية التاريخية يأتي ذكر الأحداث التاريخية عرضا دون أن تكون متعمدة أو أن تتخذ شكل المحاضرة التاريخية ، وبذلك يشعر القارئ فعلاً أنه يعيش في حقبة من حقب التاريخ وينفعل مع ابطال هذه الفترة التاريخية ويحس أنه يتجاوب مع انفعالاتهم هذه . والقصة أو الرواية التاريخية قد تجعل من مادة التاريخ الجافة مادة شيقة يقبل عليها الكثيرون . . وهناك قصص تاريخية دخلت تاريخ الأدب منها قصة «الحرب والسلام» لتولستوى، « واحدب نوتردام » لفكتور هيجو ، وغيرها .

وكاتب القصة التاريخية الحديث يجعل دائما نصب عينيه أن يحقق غرضين هامين أولها : أن يبحث عن الأحداث التاريخية التي تتقارن مع أحداث معاصرة ويلقي الضوء على حاضرنا عن طريق الاستفادة من عبر التاريخ .

وثانيهما : أن لكل شعب من الشعوب العريقة ماضيا تاريخيا به من الأحداث مايفخر به ويعتز ويثير في نفسه كبرياء الوطنية . . . ولهذا يحاول الروائي أن يبرز هذه الأحداث التاريخية التي يفخر بها شعبه ويلقي عليها الضوء فيثير بقصته وطنية الناس ويرضي كبرياءهم ، ويريحهم من بعض العناء

الذى يعيشون فيه تحت ضغط ظروف عالمنا الحالى المتغيرة . ولهذا النوع من القصص أهمية نفسيه كبيرة .

والقصة الساخرة سلاح حاد يستخدمه الروائى الساخر لتحقيق إصلاح اجتماعى عن طريق نقد المجتمع الذى يعيش فيه بالسخرية اللاذعة . ولعل من أبرز من كتبوا القصة الساخرة فى الماضى سرفانتس مخترع شخصية دون كيشوت ، وفولتير ، ورابليه .

ولكن القصة الساخرة فى عصرنا الحالى لم تعد تتميز بميزات الأدب الرفيع كما كانت أيام فولتير ، بل أصبحت أكثر واقعية مما جعلها مبتذلة فى كثير من الأحيان . ولكنها لاتزال كما كانت سلاحا من أسلحة الأصلاح الاجتماعى . . فليس هناك أقسى من الأسلوب الساخر فى النقد .

وهناك قصص هادفة تخدم المجتمع ، وهناك قصص قد تهدم المجتمع . هناك قصص تنادى بمبادىء سامية وتحاول نشرها ، وهناك قصص تثير الغرائز الدنيا تحاول استغلالها . وبالطبع هناك أيضاً تلك القصص التى لاتعدو سوى أنها وسيلة من وسائل التسلية وتضييع الوقت .

والقصة دائما تدور حول ناس عاشوا فى مجتمع من المجتمعات وهى تنقل لنا عبر أحداثها صورة لمعيشة هؤلاء الناس وصورة أخرى لعواطفهم وعاداتهم وتقاليدهم . والقصة فى هذه الحالة وسيلة من وسائل التثقيف فهى تكشف لنا الطبيعة البشرية على نطاق واسع . إن كل شخص منا يعيش عيشة شبه محدودة داخل دائرة معينة من الأصدقاء والناس والأعمال . . وليس لدينا وسيلة من الوسائل لكى نتصور كيف يعيش الناس من حولنا خصوصا إذا اختلفت طبقاتهم وثقافتهم وبيئتهم عن طبقتنا وثقافتنا وبيئتنا . وهنا تأتى

أهمية القصة . فهى فى رأى الكثيرين إحدى الوسائل الفعالة للكشف عن الطبيعة البشرية ، وهى أيضا وسيلة فعالة لتعريف الناس بطرق معيشة من يختلف عنهم من الناس طبقة أو جنسية أو ثقافة . ومعرفة الطبيعة البشرية مسألة هامة بالنسبة لكل من يريد أن يخرج من أفق مجتمعه الضيق إلى أفق المجتمع الإنسانى كله . والطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية لا يمكن إزاحة الستار عن أسرارها واختلافها إلا عن طريق معرفة البيئة ، وعوامل الوراثة ، وعلم النفس ، والعادات الجنسية ، والأنماط السلوكية ، وكل هذه المعلومات غالبا ما ترد فى القصة الروائية الطويلة التى يحاول فيها كاتبها تحليل المجتمع الذى يكتب عنه . وكما قلنا فى بداية هذا المقال القصة ليست إلا صورة حية للمجتمع الذى يعيش فيه القصاص .

- ٣ -

ولطه حسين أثر على القصة الحديثة ، ويقول عنه المازنى :

قصصى بارع ، وأديب روائى من الطبقة العالمية ، وخير للاديب المصرى فى رأيى أن ينضو عنه بردة العلم ، ويتناول قلم القصاص ، وأحسبه يوافقنى على أن كتابه « الأيام » سيبقى على حين قد يبقى أولا يبقى « حديث الأربعاء » ، و « فى الأدب الجاهلى »[1] .

و « الأيام » لطه حسين حافل بوصف حياة « الكتاب » الذى تعلم فيه كل مفكرينا وأدبائنا فى مطلع حياتهم ، والذين تأثروا فيما تأثروا فى أوائل نشاطهم بالشاعر الشعبى الذى كان يطوف بالقرى ويقص قصص عنترة

---

(١) ٧٧ مع طه حسين الكتابى .

وأبى زيد الهلالى وغـيرهما . . ومنها صور طريفة من حياة القرية وتفكير أهل الريف .

وبعد عشر سنوات من صدور الجزء الأول من الأيام صدر الجزء الثانى وقد قص فيه فترة من تاريخ حياته الأولى : كيف نقل من الريف إلى الأزهر . وكيف عاش تلك الحياة الجافة المؤلمة ، والمصاعب التى واجهته ، والـكتب التى قرأها ، والأساتذة الذين أخذ عنهم ، والزملاء الذين زاملوه فى الأزهر[1] .

وقد بلغ طه حسين كتابه « هامش السيرة » وفى « الوعد الحق » منزلة كبيرة فى فن القصة المعاصرة . . وطه حسين هو الممثل للأدب العربى المعاصر ، وقصته « أديب » تعرض لنا حالة اختلال ذهنى ، ويبدع فى « دعاء الـكروان » فى تحليله النفسى لنفس تتنازعها عوامل الحب والانتقام ، وأما « الحب الضائع » فتعرض لنا قصة امرأة تمثل مشاعر ضعف الحنان ، وأما « شهر زاد » فهى تنتمى إلى النوع السحرى ، وجميع أبطال طه حسين ثائرون ضد مجتمعهم ، وقصصه تتميز بقيمتها الاجتماعية والأخلاقية .

وشجرة البؤس ، ودعاء الـكروان ، والمعذبون فى الأرض ، ثلاثتها لطه حسين تدل على موهبة قصصية من الطراز الأول ، يصور فى الأولى

---

(١) ٦٤ وما بعدها — مع طه حسين — لسامى الـكيالى — وقد كتب طه حسين فى كتابه « ألوان » عن الجامعة القديمة وسفره إلى أوربا ، فهو يكاد يكون متمما لقصة حياته التى بدأها بالأيام .

ملامح المجتمع المصرى ، وبخاصة الطبقات الفقيرة فيه ، والثانية تحتوى على لون من القصص الإنسانى وقد أجاد فيها ، وقد كتبها بأسلوب إنسانى عميق ، والثالث تصوير دقيق للأسر الكادحة فى مصر .

وأما « شهر زاد » فتنتمى إلى النوع السحرى ، و كتاب طه حسين « فى الصيف » قصة رحلة ممتعة قضاها فى أوربا .

— ٣ —

ونجيب محفوظ (١٩١٢ — ٠٠٠) قصصى بارع ، صدر عام ١٩٣٨ مجموعته الأولى من القصة القصيرة ، التى هجرها بعد ذلك إلى القصة الطويلة ، حيث أخرج : عبث الأقدار عام ١٩٣٩ . وكفاح طيبة عام ١٩٤٤ ، والقاهرة الجديدة عام ١٩٤٥ ، وخان الخليلى عام ١٩٤٦ ، وزقاق المدق عام ١٩٤٧ ، والسراب عام ١٩٤٨ ، وبداية ونهاية عام ١٩٤٩ ، ثم ثلاثيته المشهورة « بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ما بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ، ثم اللص والكلاب عام ١٩٦١ ، ثم السمان والخريف عام ١٩٦٢ .

فإذا نظرنا إلى الثلاثية التى تقع فى نحو ١٢٠٠ صفحة وجدناها تحكى حياة أسرة مصرية منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم ، ومن خلالها نرى مصر ، بكل أحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبكل مقوماتها الثقافية والفكرية وبكل قيمها وتراثها وتاريخها فى نسيج عريض متكامل ينبض بالواقع الحى وبالتاريخ .

والواقعية عند نجيب محفوظ واقعية مهذبة ليست تصويراً جامداً للواقع وإنما هى رؤية الواقع فى مجاله العريض ومن خلال حركته التاريخية الشاملة

بحيث ترتبط الصورة والدلالة والحــدث ، والهدف هو الذى جعله يحرص الحرص كله على أن يقدم صورة تفصيلية متساوية لــكل من الواقع المادى والواقع النفسى مع ما يتطلبه هــذا من قدرة فنية خارقة وتملك لزمام الصنعة .

ويقول نجيب محفوظ : إننى الابن الروحى لتوفيق الحــكيم [١] .

---

(١) عدد ١٩٦٧/١/٣١ من مجلة آخر ساعة .

يوسف السباعى

١٩١٧ — ١٩٧٨

— ١ —

عرف يوسف السباعى طريقه للقراء منذ طفولته فقد كان والده محمد السباعى من أئمة النهضة الأدبية الحديثة ، يكتب المقال والقصة والترجمات يرسلها للنشر فى صحيفة « البلاغ » مع يوسف السباعى الذى يقرأ كل ما كتب والده . . وتولد موهبته الأدبية فيكتب يوسف السباعى فى مجلة مدرسة شبرا الثانوية أول قصة له بعنوان « فوق الأنواء » ويرسم المجلة ويكتب فى نفس العدد نشيد المدرسة . .

ثم يكتب وهو فى السابعة عشرة قصة « تبت يدا أبى لهب وتب » التى نشرها فى مجلة « مجلتى » عام ١٩٣٥ والتى كان يصدرها أحمد الصاوى محمد . ثم ينطلق فى كتابة القصة القصيرة فيكتب قصة العدد لمجلة « مسامرات الجيب » كل أسبوع . . وقد صدرت له ٢٢ مجموعة قصصية أولها « أطياف » عام ١٩٤٧ وآخر مجموعة قصصية « ليالى دموع » ١٩٥٥ وله ست عشرة رواية أولها « نائب عزرائيل » ١٩٤٧ وكانت آخر رواية هى « العمر لحظة » ١٩٧٢ كما ألف أربع مسرحيات « أم رتيبة » ١٩٥١ ، « وراء الستار » ١٩٥٢ ، « جمعية قتل الزوجات » ١٩٥٣ ، « أقوى من الزمن » ١٩٦٤ ، وله عشرة كتب تجمع مقالاته الصحفية وأراءه فى المجتمع والحياة ، وكتاب واحد فى أدب الرحلات « طائر بين المحيطين » ١٩٧١ ... والقصة فى أدبه تمثل أغزر إنتاجه الأدبى بمختلف اتجاهاته ، فاتجاه الفنتازيا يجمع بين الواقع والخيال مثل « نائب عزرائيل » ١٩٤٧ ، « أرض النفاق » ١٩٤٩ ، والواقع والحلم فى

المنت وحدك » ١٩٦٩ و « الأرض والفضاء ، أما الواقعى فيظهر فى « السقا مات » ١٩٥٢ و « نحن لا نزرع الشوك » ١٩٦٨ ، والاتجاه الفكاهى يظهر بصفة خاصة فى مسرحياته ، والاتجاه الاجتماعى يتضح من تصويره طبقات المجتمع الشعبية التى عاصرها وعايشها وتعاطف معها .

أما الجانب الذى برزت فيه معظم قصصه فيتمثل فى الاتجاه الميتافيزيقى والفلسفى ، والذى تناول فيه مشكلة الموت والموت الفجائى بوجه خاص والذى ترسب فى أعماقه منذ وفاة والده محمد السباعى عندما كان يوسف السباعى فى الرابعة عشرة من عمره فكان له أثره الذى لا يمحى والذى ألح عليه فى أكثر من رواية وعالجه فى رواية « السقا مات » ١٩٥٢ التى كان البطل الحقيقى فيها هو الموت . كما أرخ يوسف السباعى لثورة ٢٣ يوليو وسجل مسيرتها فى رواياته على نحو ماجاء فى « رد قلبى » ١٩٥٤ ، ومعركة التأميم والتحول الاجتماعى فى رواية « نادية » ١٩٦٠ ، وأحداث الوحدة بين مصر وسوريا فى رواية « جفت الدموع » ١٩٦١ ، والانفصال ومأساته المريرة فى « ليل له آخر » ١٩٦٣ ، والسد العالى أهم منجزات الثورة فى مسرحية « أقوى من الزمن » ١٩٦٤ ، كما سجل مأساة فلسطين فى «طريق العودة» ١٩٥٦ وأيضا فى « ابتسامة على شفتيه » ١٩٧٠ وحرب الاستنزاف واشراقة حرب أكتوبر المجيدة فى « العمر لحظة » ١٩٧٢ ، وتعتبر ثلاثيته الرومانسية المثالية من أرق ما كتب فى الرومانسية المثالية فى « إنى راحلة » ١٩٥٠ ، و «بين الأطلال» ١٩٥٢ ،و «فديتك ياليلى» ١٩٥٣ ، الرومانسية التى تجسد عالم الوجـــدان واللاشعور وآخر كتبـه « مصر المشـكلة والحل » ١٩٧٨ .

— ٢ —

وقد ولد يوسف السباعي في حارة الروم بالدرب الأحمر أحد أحياء القاهرة الشعبية في ١٠ يونيه عام ١٩١٧ .

وتعلم في مدرسة محمد على الابتدائية ومدرسة شبرا الثانوية وتخرج من الكلية الحربية عام ١٩٣٧ وعين ضابطا بسلاح الفرسان ، وحصل على دبلوم معهد الصحافة بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٥٢ وعين نائبا لمدير سلاح الفرسان . وعين سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٥٦ وسكرتيرا عاما لمنظمة تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية ١٩٥٧ .

ورأس تحرير مجلة « الرسالة الجديدة » ١٩٥٣ حتى ١٩٥٨ و « آخر ساعة » ١٩٦٧ وعين رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ورئيس تحرير مجلة المصور ١٩٧١ . ووزيرا للثقافة عام ١٩٧٤ ونال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٧٥

وعين رئيسا لمجلس إدارة جريدة الأهرام في ٢٨ مارس ١٩٧٦

كما أسهم في إنشاء نادي القصة وجمعية الأدباء واتحاد الكتاب .

واستشهد في نيقوسيا بقبرص في ١٨ فبراير ١٩٧٨ وقد صدرت عنه في حياته دراسات عديدة منها « الفكر والفن في أدب يوسف السباعي » اشترك فيها عدد من النقاد والأدب ، « فن الرواية عند يوسف السباعي » للدكتور نبيل راغب ، « الرؤيا الابداعية في أدب يوسف السباعي » تأليف الدكتور عبد العزيز شرف .

عبد الحميد جودة السحار

١٩١٣ — ١٩٧٤

أصدر[1] عبد الحميد جـــودة السحار أكثر من خمسين كتابا منها فى الرواية :

أحمس بطل الاستقلال (١٩٤٣) فى قافلة الزمان (١٩٤٧) أميرة قرطبة (١٩٤٨) غادة رشيـــد (١٩٤٩) الشارع الجديد (١٩٥٣) قلعة الأبطال (١٩٥٤) المستنقع (١٩٥٧) وكان مساء (١٩٥٨) الحصاد (١٩٦٠) جسر الشيطان (١٩٦٢) السهول البيض (١٩٧٠) الحفيد (١٩٨٣) وغيرها

وفى القصة القصيرة: فى الوظيفة(١٩٤٤) همزات الشياطين (١٩٤٦)صدى السنين (١٩٥٣) امرأة وألحان (١٩٥٥) كشك الموسيقى (١٩٧٥) ...

ومن تحليـــل مضمون أعماله القصصية نجد أنها تركز على علاج العيوب الاجتماعية وتدعو لتخليص مجتمعنا من شوائبه أمــلا فى الوصول إلى المجتمع الأمثل على نحو ما نجد فى (النصف الآخر) (أم العروسة) و (الحفيد) .. كما أن رواية (جسر الشيطان) مليئة بالمواقف الانسانية الصادقة وفيها من عناصر الاثارة والتشويق ما يجعل من قراءتها متعة كبيرة وتعد من أنضج أعماله الروائية .

وفى أعماله الاسلامية والعربية مثل تاريخ الفتوحات وأبطال الإسلام وأمجاد العرب فى أوربا نجد أن السحار كان حريصا على تبصير الجيـــل

---

(١) الأهرام عدد ١٩٨٥/١/٢٧ من مقال الأستاذ محمد صبرى السيد .

الصاعد من الناشئين بأمجادنا الماضية ودور الأمة الإسلامية فى إرساء قواعد الحضارة الإنسانية فى مختلف العصور .. وفى الوقت نفسه قدم تاريخ الثورة العرابية من خلال قصة (قلعة الأبطال) ، كما قدم حرب بورسعيد سنة ١٩٥٦ فى روايته الطويلة (السهول البيض) الأمر الذى يوضح أبعـــاد القيمة الانسانية الصادقة فى أدبه ودعم المواقف الايجابية وطنيا وإسلاميا فى الشخصية المصرية والعربية .. كما اتجه إلى الفكر الإسلامى الذى كتب فيه العديد من مؤلفاته والتى نجد من وراء كتابتها قوله « لقد بهرتنى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فعكفت على قراءة كتب السيرة وكنت كلما تعمقت فى دراستى ازداد إعجابى بشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فهو الانسان الكامل والأسوة الحسنة » . . . ومن مؤلفاته فى الإسلاميات : محمد رسول الله والذين معه فى عشرين كتابا - أبو ذر الغفارى (١٩٤٣) بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم (١٩٤٤) سعد بن أبى وقاص (١٩٤٥) أبناء أبى بكر الصديق (١٩٥٢) أهـــل البيت (١٩٥٠) وغيرها .. مجموعة قصص الأنبياء والخلفاء الراشدين وقصص السيرة ، وأهل البيت ..

وأصدر : المسيح عيسى بن مريم عام ١٩٥٩

ولد عبد الحميد جودة السحار فى ٢٥ أبريل ١٩١٣ بحى « باب الشعرية » بالقاهرة وتلقى تعليمه فى المدرســـة الحسينية الابتدائية . وتخرج فى كلية التجارة إدارة الأعمال عام ١٩٣٧ وعمل مترجما فى مخازن سلاح الطيران إلى أن وصل رئيسا لمجلس إدارة الشركة العامة للتجارة بوزارة الاقتصاد وعمل رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة السينما وعشق القراءة منذ الطفولة إلى أن بدأ يكتب القصة القصيرة فى « الرسالة » و « الثقافة » وغيرهما

وبـــدأ يكتب الرواية التاريخية : فكتب « أحمس بطل الاستقلال » وسلك نفس المنهج الذى بدأ به عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ وأنشأ عبد الحميد جودة السحار « لجنة النشر للجامعيين » لتذليل عقبة النشر أمام الكتاب .. وبدأ بنشر أعماله إلى جانب أعمال نجيب محفوظ وبا كثير ومحمود البدوى وأمين يوسف غراب ومحمد عبد الحليم عبد الله .. وغيرهم .

ثروت أباظه والرواية العربية[1]

— ١ —

قلم ثروت أباظه بزرع الفن القصصي والروائي في أدبنا ، فأصبح على يديه نسيجا من تراثنا مندمجا فيه غير غريب عليه ، ويمكن القول أنه في أعماله القصصية والروائية كان أكثر اقداما من جيله على تحقيق هذا الفهم القائم على الأصالة والمعاصرة في جرأة وتحرر ، من خلال رؤيا فنية تجعل إبداعه مرتبطا أوفق ارتباط بالذوق العربي .

وهو لا ينكر أن هذا يحتاج إلى جهد كبير وإلى تبصر واع بالتراث الروائي والمسرحي في الغرب والشرق على السواء . ولكن متى كان الفن شيئا مريحا . إن الكتاب فيما يرى رهبان في محراب الفن يقدمون أرواحهم ولا يعودون من الجزاء إلا بالقليل أوماهو أقل من القليل .

« ولعل هـذا يصدق أعظم ما يصدق على الأدباء المصريين بالذات الذين يفنون زهرة شبابهم وكهولتهم وشيخوختهم ليقدموا أعمالا فنية عميقة ثم هم لا يجدون الجزاء من الجمهور الذى يستوى عند معظمه العمل الرفيع مع العمل المسف ولا يجدون الجزاء المادى حتى ليبلغ الأديب منهم مشارف الشيخوخة ثم يفوتها ويظل مع ذلك محتاجا أن يعمل أو يصبح معرضا للحاجة والفقر والعوز .

والأديب الحق يكتب لأن قدره هو أن يكتب وقد ترهقه وتؤوده الهوة السحيقة التى تفصل بينه وبين غالبية الجمهور المستقبل لعمله .. وقد يزداد ألما ووحشة حين يجد نفسه وحيدا مع الفن الصادق .

فهـو — يفصح — في نقوش من ذهب ونحاس — عن أن القصة

---

(١) راجع كتاب : الرؤيا الابداعية فى أدب ثروت اباظة — للدكتور الناقد عبد العزيز شرف .

ليست شيئا بنفسها ، وهى لا تكون قصة إلا إذا قرئت ، والصنعة الفنية وحدها هى التى تجعلها مقروءة .

وليس بخاف أن التكنيك الروائى — كما يقول دى فوتو — مسألة تجريبية إذ لا توجد له قواعد ثابتة ، ومما لا شك فيه أن جميع تجارب التكنيك فعالة . فهل تحدث أثرا ؟ إذا فعلت فهى صحيحة ، ولا بد أن يمضى القارىء فى القراءة بإيمان حتى النهاية التى يضعها القاص وكلما يقوى ويزيد هذا الايمان ليبلغ تلك النهاية فهو صحيح . ولو حدث تأثير قوى فانه قد يشع بالايمان فى فقرات لم يكن فى الإمكان تطبيق أى قواعد عليها ، والسخرية المتعمدة بالقواعد التى قد تكون فى موضع آخر ضمان نجاح الفنان هى فى الحقيقة جزء من مهارة القاص الماهر .

ومهما تكن المشكلة التى يواجهها قصاص العصر الحاضر — كما أنها واجهت من قبل قصاص العصر الماضى — فانه — كما تقول فرجينيا وولف — يجب على القصاص أن يبتدع الوسائل التى تجعله حرا فى تسطير ما يختار . كما أنه يجب أن يتحلى بقدر من الشجاعة، يمكنه من أن يقرر أن (هذا) الشيء لم يعد يهمه بعد بقدر ما يهمه (ذاك) . ويبنى على (ذاك) وحدة أعماله . إذ أن هذه الأشياء الجديدة التى يهتم بها المحدثون هى التى قد تكون قابعة فى أعماق النفس . وذلك ما فعله روبرت أباظه فى روايته نقوش من ذهب ونحاس) .

وهذا الاتجاه عند روبرت أباظه يجعلنا نسير مع (دى فوتو) فى أن تعريف (كونراد) المشهور للقصة بأنها (تجعلك تسمع ، تجعلك تشعر .. وقبل ذلك كله تجعلك ترى) . ليس فيه الحقيقة كلها ، فالقصة تترك المنطق

الداخلي للشيء مسموعا ومحسوسا ومرئيا . والأهم من ذلك أن هذا التعريف يغفل الحالة الديناميكية التي شرحها دي فوتو وهي ارتباط القارئ بهذا المنطق الداخلي ، ذلك أن القصة كما نرى عند ثروت أباظة تجعلك تسمع وتشعر وترى إلى حد تصديقها ، فهي تربطك بالأحداث في الصفحات والعلاقات بالشخصيات بطريقة تجعلك تحس فترة من الوقت أن منطقهم وعواطفهم مرتبطة بك . ولعلنا نجد هذا المعنى أوضح ما يكون عندما تقرأ استهلال الفصل الرابع من (النقوش) : « لماذا يتوقف العقل عند بعض الناس ويتصرفون تصرفات حمقاء مع أنهم من ذوي العقل الراجح الذي استطاع أن يمكن لهم ويترلهم منزلة محترمة عند الناس » .

وهكذا يضعنا ثروت أباظه في عمله الجديد أمام المشكلة المركزية للسرد القصصي وهي مشكلة تخص صلة الكاتب بعمله ، ففي المسرحية يكون الكاتب غائبا ، فهو قد اختفى وراءها غير أن مشاعر الملحمي يروي القصة مثلما يرويها قصصي محترف ، واضعا تعليقاته ضمن القصيـــدة مقدما السرد المناسب (باعتباره يتميز عن الحوار) بأسلوبه الخاص .

وقد قام ثروت أباظه بدور الشاعر الملحمي في عمله الجديد (نقوش من ذهب ونحاس) متجاوزا الطريقة التقليدية و (الطبيعية) في السرد . فالكاتب حاضر في جانب عمله الفني متصل بقارئه ، يريد له أن يندمج في الحدث ، وأن يقف على دوافع الأفعال والتأثر بها .

فثروت أباظه يتجاوز مجرد العرف الأرسطي ، كما يتجاوز نظرية زولا في نقل قطاع الحياة موضوعيا ، فليست الرواية عند ثروت أباظه عالما مستقلا يتأمله القارئ على أنه محوط بصفحات تفصلها عن العالم الخارجي ،

ولكن ثروت أباظه يريد للقارئ أن يشترك في الرواية مع نماذجها البشرية . وهذا أشبه بما سمى هدم (الجدار الرابع) في المسرح .

وهذا ما نعنيه حين نقول أن ثروت أباظه يمارس فنا (أكثر عصرية) وهو فن الرواية التي مثلت دائما مرحلة متأخرة في الحياة الملحمية للشعوب، فالملحمة بالنسبة للرواية تمثل ما يمكن أن نعتبره مع توماس مان ـ عصرها الكلاسيكي القديم .

وحين نقول إن ثروت أباظه قد شق بهذه الرواية طريق الرواية العربية الخالصة ، فاننا نعني أنه قد تمثل في رؤياه الابداعية بذور هذا الفن في تراثنا العربي ، مؤكدا ما ذهب إليه توفيق الحكيم ، حين قال إن أدباء الفصحى في العصور المتقدمة قد عنوا باللفظ أكثر مما يجب ، وظهر القصص الشعبي في صورة (عنترة) و (مجنون ليلى) و (كثير عزة) .. الخ .. وسارت الحضارة الإسلامية فسار معها الأدب الخيالي الاجتماعي الشعبي ، فاذا نحن أمام عمل فني رائع ، هو (ألف ليلة وليلة) ثم نبت في كل شعب من شعوب الاسلام قصصه الذي يطبعه بطابع عصره ، فكان في مصر قصة (أبو زيد الهلالي) و (سيف ذي يزن) و (الظاهر بيبرس) الخ ..

« ومن الغريب أنك إذا تأملت (التصميم) الفني والبناء الروائي لهذا الأدب الشعبي ، وجدته ـ من حيث الفن لا اللغة ـ هو السائر في الطريق الصحيح محاذيا تلك الفنون الجديدة التي قامت بقيام الحضارة الجديدة ، فلقد كان من المستغرب حقا أن الباحث يرى حضارة إسلامية عظيمة ذات فنون زاهرة وعلوم راقية ، ولا يجد في أدبها أثراً انشائيا مثل (الشاهنامة) أو (الالياذة) أو (كليلة ودمنة) .. الخ حتى كاد يتهم العقلية الاسلامية

بعقمها ولكن الأدب الشعبي الإسلامي صحح الوضع أمام التاريخ العلمي ، وأثبت أن الحضارة الإسلامية سارت في مجراها الطبيعي ، مع هذا الفارق :

وهو أنه في الحضارات الأخرى الهندية أو الفارسية أو الإغريقية ، كان خاصة الشعراء والأدباء هم الخالقون لتلك الآثار . أما في حضارة الإسلام فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لأدباء الشعب .

ومن أجل ذلك وجدنا ثروت أباظة يعنى بتكامل الرواية من حيث تعبيرها بأمانة ودقة عن الصور الحية من خلال تكامل الوصف الزمني لملامح الشخصية بالحوار الداخلي وبالحوار المعلن ، وتلك هي العناصر الرئيسية في تكوين الرواية ، ويعني بها : الوصف المكاني والوصف البشري الخارجي والداخلي والحوار الذي يعبر عن الانفعالات ، والأحداث التي تدور بين الأبطال سواء كانت حواراً داخلياً أو باطنياً .

بهذه الرؤيا الفنية تمثل المأثور الشعبي وفن الملاحم بخاصة ذلك الفن الملحمي — كما يقول مان — ذا روح مهيبة رصينة غنية بالحياة ، فسيحة كأنها البحر في حركته الممتدة ، لا تهدف إلى العبارة المقتطفة وإنما تريد الكل . تريد الدنيا بما فيها من أحداث لا يحصرها العد ، ذلك أن الرواية ليست في عجلة من أمرها . الصبر والإخلاص والاحتمال والتمهل الذي يحملها الحب متعة وما يصدق على الشاعر يصدق على الرواية أيضاً : « كونك لا تستطيع أن تنهي حديثك ، هو بالذات ما يجعلك عظيما » .

لذلك نجد في أدب ثروت أباظة هدوء الملحمة ، وصفا ها ، وموضوعيتها إن روايته تبقى على مسافة من الأشياء ، لأنها تقترب من الملحمة كفن

(أبولونى) كما يسميها أصحاب علم الجمال . لأن أبولو الذى كان يجيد الرماية عن بعد ، هو إله المسافات وإله الموضوعية والسخرية — إن الموضوعية هى السخرية.. وحينما يتمثل ثروت أباظة روح الملحمة ، فإنه يتمثل روح السخرية ذلك أن الفن نظرة شاملة واضحة ورصينة ، نظرة الحرية المطلقة والهــدوء والموضوعية . هكذا كانت نظرة جوته الذى كان فناناً صادقاً إلى الحد الذى جعله يقول : (إن السخرية هى ذلك القدر الضئيل من الملح الذى لا يمكن بغيره أن يكون للطعام مذاق) ولم يكن عبثاً إعجابه طوال حياته بشكسبير ، ففى دنيا شكسبير المسرحية تسود هــذه السخرية الفنية ، حتى إنها تجعل نتاجه موضع اعتراض شديد من جانب رجل أخلاق كبير مثل تولستوى وعلى هذا الفهم يتحدد مفهوم السخرية فى أدب ثروت أباظة ، فهى سخرية ملحمية ، سخرية القلب ، سخرية قائمــة على الحب والعطف على الأشياء الصغيرة .

ولما كانت الملاحم — كما يقول الدكتور يونس — ذوات وظائف حيوية وإيجابية ، فإن الشعب المصرى شارك فى إنشائها بتعديل صورتها ، بحيث تلائم طبيعته ومزاجه من ناحية ، وبحيث تساير رأيه فى نفسه ، وفى أبناء عمومته وملته ، وعلى ذلك فإننا نقول إن الوجدان الشعبى المصرى الذى تمثله ثروت أباظة فى أدبه ورؤياه الإبداعية يقوم من هــذه الملاحم مقاماً مزدوجاً ، يعبر بها عن ذاتيته العامة ، ويتذوقها ويتفاعل معها ، ويتأثر بهذا أيضاً . . فهو المؤلف والمتذوق فى آن واحد ، ولا حاجز عنده بين العملين ، ولا فارق بين الموقفين . . إنها زاوية واحدة ينظر بها إلى نفسه ، وهو يصور هذه النفس.. ومن ثم التقى فى رؤيا ثروت أباظة تجسيم الفن الملحمى للمثل

العليا ، وتشخيص الفضائل الشائعة كما يتصورها بنقده للحياة المصرية ، وهو يرسم نقداته لبعض الخصال وبعض الفعال رسما قريبـاً من الكاريكاتير .

— ٣ —

فالفن الروائى عند ثروت أباظة ، يمثل ضمير الشعب الذي يحقق أمانيه بالملاحم ، وهذا الشعب — يعرف النهاية أو يرسم النهاية ، ولا يقـوم التشخيص على الكشف عنها ، بل يقوم على انتظارها ، وهى انتصار البطل المثل لقومه المجسم للخـير ، ولا يمكن أن ينظر الشعب شيئاً آخر غير هذا .. والأبطال الثانويون يعملون على التكامل النفسى للشعب ، فهم يجسمون بعض الصفات ، وبعض المزايا ، وقد يحدث خلاف جانبي بينهم يأتى ثمـرة لصراع ثانوى بين الذات المفردة أو المجتمعات الصغيرة وبين الذات العامة ، ولا بد أن تتغلب الفكرة القومية العامة آخـر الأمر ، خضوعاً للوجدان المشترك .

ففى (شىء من الخوف) مثلا يؤكد ثروت أباظة اندماج الفن الروائى بالحياة فى وجدان الشعب وصدورهما عن مزاج واحد ، شأنه فى ذلك شأن الأدب الملحمى حين يرفع شبهة كل حاجز بين الابداع والتذوق .. بين الإنشاء والانشاد ، فقـد قدم شخصية حافظ بضمير الغائب ، ولـكن هـذه الشخصية ماتلبث أن تستعمل ضمير المتكلم ، فالشخصية تستخدم ضمير الغائب حين تتحدث عن وحدة الوجود الزمنية والمكانية بأرض مصر ، وتستخدم ضمير المتكلم حين تريد أن تعترف بتجربة حبها ، ثم يعـــود الضمير إلى الغائب وهكذا .

ويدمج ثروت أباظة بين الرمزين الذاتى والجماعى ليصور الإنسان المصرى

حين يتعرض للطغيان ، وحين يقاوم ، وحين ينتصر فى النهاية لمبادئه ، وشرفه على النحو الذى يذكرنا بالأدب الملحمى فى مصر ، حيث تعلق وجدان الشعب بالمثل الديمقراطية فى الحكم ، فالوجدان الشعبى المصرى يقوم من ملاحمه مقاما مزدوجاً ، يعبر بها عن ذاتيته العامة ، ويتذوقها ويتفاعل معها . ويتأثر بها أيضا . ومن ثم التقى فى وجدانه تجسيم المثل العليا وتشخيص الفضائل الثابتة كما يتصورها بنقده لحياته وحياة من حوله ، وقد تمثل ثروت أباظة هـذا الوجدان الشعبى فى « نقوش من ذهب ونحاس » حين صـور مصر ملفوفة فى سرابيل من الظـلم والظلام وكل فرد منها مكشوف الصدر للاعتداء على جسمه وماله وعرضه ومستقبله وآماله بل وماضيه .

ولذلك جاء فن الرواية فى أدب ثروت أباظة متمثلا المنهـج الملحمى الشعبى فى التمهيد لظهور البطل ، وهى تبـدأ قبل خروج نماذجه البشرية إلى الدنيا وتمر بمراحل من الارهاص والتبشير . ثم تأخذ فى متابعة النمـوذج البشرى خطـوة خطوة ، وتثقفه بما ينبغى لمثله أن يثقف ، وتهيئه لأحداثها الـكبرى..وأعماله المألوفة لا يأتى العجب فيها من الشذوذ ، وإنما من المبالغة فى المألوف نفسه .

ويتأكد لنا حرص ثروت أباظة فى أعماله جميعا على تحقيـق استجابة القارىء ، للتعبيرات الخاصة ، وإقناعه بأن ما يحدث فى صفحاتها إنما يقع حقيقة ، وأن هذا الذى يقع يحدث لأناس يشبهون القارىء تماما فى تكوينهم وحكمهم ، وبأنهم — كما يذهب دى فوتو إلى ذلك — (يسلكون سبلا باعتبارها شيئـا عاديا بالنسبة لهم فى الظروف التى تبـدو متـلائمة . مع الحياة والأحداث كما يفهمها ، ومتوافقة مع الدقائق الخاصة للحياة والأحداث التى تصفها القصة) .

— ٣ —

وهكذا يمكن القول بأن ثروت أباظة فى تمثله للادب الشعبى من جهـــة وللسرد القصصى فى القرآن الـكريم من جهة أخرى ، قد استطاع بحق أن يشق الطريق الجديد للرواية العربية الخالصة ، فالادب الشعبى الذى تمثـــله فى بنائه الروائى ، (من حيث التصميم الفني والبناء الروائى هو السائر فى الطريق الصحيح) كما قال الحكيم ، ولذلك أثبت أن حضارة الاسلام سارت فى مجراها الطبيعى .

وحين يستلهم ثروت أباظة السرد القصصى فى القرآن ، فانه بذلك يصحح ماوقع فيه الادب العربى حين نأى عن الانتفاع بالقرآن انتفاعا فنياً ، فلقد أتى القرآن بجديد فى فن الـكتابة — على حد تعبير الحـكيم — لا اللغة وحدها بل القصص — لقد أستخدم (الفن القصصى) ، فى التعبير عن المرامى الدينية ولـكن المدهش — كما يقول الحـكيم أيضاً — أن الادب العربى لم ير فى القرآن إلا نموذجا لغويا .. ولم ير فيه النموذج الفنى . فلم يخطر له استلهاما فنيا مستفيضا .. إن وحى الادب العربى لم يرد أن يتحرك .. لا إلى أعلى ، ولا إلى اسفل .. لا نحو القرآن ولا نحو الشعب) .

وهكذا انطوت قرون ، وما زال هذا السد قائماً بين النثر العربى ، بسجعه وبلاغته المصطنعة ، وبين خيال الشعب ورغباته وآماله . ولو أن أدبا الفصحى هدموا هذا السد من قديم ، ونزلوا عن بعض جمودهم ، وعبروا عن مطالب عصرهم وشعبهم ، لـكان الادب العربى اليوم فى مقدمة الآداب العالمية . إلى أن طلع أخيرا فجر العصور الحديثة فبزغت أشعة التجـــديد مرة أخرى ، ورأينا الادباء يستوحون (ألف ليلة وليلة) فما ينشئون ، ويدرسونه ، كما أن أعمال القدماء كالقصص الاسلامية فى القرآن وغيره قد صححه توفيق الحـكيم

حينما أصدر « أهل الكهف » ، واتجه الادب إلى استلهام هذا المصدر استلهاما فنيا !

ويكون هذا المصدر الكريم عنصراً أساسياً من عناصر الرؤيا الابداعية في أدب ثروت أباظة الذى لم يعن باستلهام السرد القصصى فى القرآن فحسب ولكن بدراسته أيضاً دراسة جمالية يذهب إلى أن « أحدث ماوصل اليه الفن القصصى هو النسق الذي سار عليه السرد فى القرآن الكريم » . يقول ثروت اباظة : « قواعد الفن القصصى نبتت من الاستقراء . فالرواية حين بدأت فى الظهور منذ خمسمائة عام ونيف ، لم يكن لها قواعد بطبيعة الحال ، شأنها فى ذلك شأن الشعر فى التراث العربى فحين ألفت روايات كثيرة — نجح منها ما نجح ، وفشل منها مافشل — بدأ النقاد يتساءلون لماذا نجح الناجح ولماذا فشل الفاشل ، كانت هذه القواعد » .

وإذا كان القرآن الكريم قد خرج بالادب العربى من سيطرة سلطان الذاكرة » نحو عالم النثر الحقيقى ، فان القرآن الكريم أيضاً هو الذى فتح على العرب عهداً جديداً هو عهد القراءة بما فى القراءة من معان[1] . قال تعالى فى أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم : «اقرأ باسم ربك » .

وإذا كان العرب قد اهتزوا للحدث النبوى « فى القرآن » فان النقاد لم ينظروا إلى قصص القرآن حين وضعوا قواعدهم القصصية » كما يذهب إلى ذلك ثروت أباظة[2] وليتهم اتجهوا إلى قصص القرآن الكريم . . « إن القواعد واردة علينا من الادب الغربى »

(١) البشير بن سلامة : نفس المرجع ص ٤٥

(٢) السرد القصصى فى القرآن الكريم ص ٣

وما أحسب أن بين النقاد هناك من يفكر في القرآن إلا على أنه كتاب سماوى : أما روعته اللغوية والفنية فبعيدة عن أذهانهم كل البعد » .

وقد عجب ثروت أباظة حين وصل إلى هذه المعجزة في القرآن الكريم وعجب أن لم يلتفت اليها أحد من نقادنا يقول :

« انى أوشك أن أعتقد ان الذين أنشأوا فن القصة فى الغرب قرأوا هذا القرآن وتعلموا منه . واذا تركنا السرد (٢١) ونظرنا إلى الالفاظ وكيف هى مطمئنة فى مكانها ، تهدد فترجف الافئدة وتهلع النفوس ، وتسارع إلى مغفرة من ربها عسى أن يهديها إلى صراط مستقيم) .

ولذلك لاحظنا أن ثروت أباظة يستلهم أعماله الروائية من القرآن الكريم ، كما نجد فى العناوين المستوحاة من كتابنا الكريم مثل : « شيء من الخوف » و « خائنة الأعين » .

وكذلك تحتل الرؤيا الابداعية فى أدب ثروت أباظة بالتراث ، لان الادب لا يستطيع أن يعيش إذا كانت فروع له من جذور بعيدة عن تراثه .. فالادب الانجليزى مازال يعتبر رواده الاوائل هم الاباء الشرعيين لفنون أدبهم الحديث على الرغم من أن المسرح والرواية والقصة فروع قديمة أصلية فى الادب الانجليزى إلا ان الادب الانجلوزى مازال يحتفل برواده الاوائل ولا يتعالى عليهم ولا يقطع صلاته بهم .

ذلك أن ثروت أباظة يرى أننا نكتب الادب العربى للشعب العربى ،

---

(٢١) راجع : ثروت أباظة و السرد القصى فى القرآن الكريم ص ٢ وما بعدها

ويستطيع القارئ في العراق وسوريا والأردن أن يفهم عنا نحن الكتاب المصريين وأن يدرك المشاعر التي تموج بها نفوسنا وأن ينبض بنبضنا ويتنفس الهواء الذي نتنفسه .

واللغة انما توجد حين تكون في الامكان ، التحدث بها . ومعنى هذا — كما يقول ديوي — أن السامع أو المنصت شريك لا غنى عنه . وكذلك لا يكون العمل الفني تاما أو مكتملا الا حين يعمل في خبرة أشخاص آخرين غير صاحبه (أو مبدعه) ولذلك تؤكد الرؤيا الابداعية عند ثروت أباظة أن لا أدب بغير لغة .. فاللغة عند ثروت أباظة هي الوسيلة التي تصل بالعمل الفني إلى مستقبليه . فلا بد للكاتب ان يكون عليما بلغته حتى يصل بها الى حيث يريد من نفوس قرائه ..

والعلم باللغة ليس مجرد معرفة بألفاظها وانما معرفة بأسرار الالفاظ ومسراها وإشعاعها وارتباطها بالمعاني المختلفة في نفوس الناس . وهو لذلك يرفض الإتجاه الذي يذهب إلى أن الروائي أو القصاص لا يحتاج إلى لغة عربية جميلة أو سليمة لكتابة القصة .. ويتجهون إلى العامية .

ذلك أن الواقعية التي يستندون اليها هي عند ثروت أباظة ليست نقلا للواقع وانما هي أبداع قصصي له . . فالقصة عنده تستلهم الحياة ولا تنقلها وتستكشف ما وراء الاحداث من أعماق وأسرار .

وهكذا نجد أن الواقعية الفنية في رؤيا ثروت أباظة الابداعية أمراً مختلفاً على الاختلاف عن واقعية الحياة . . واللغة جزء من هذه الواقعية وجمال السرد يحبب القارئ في العمل الفني ويجعله يشعر بأن الكاتب يحفل به ويحترمه ويقدم له اجمل ما عنده والجمال في الأسلوب عند ثروت أباظة لا يباعد

بين القصة والقارىء لانه ليس استعراضاً أسلوبياً وإنما سبك لاحداث القصة وتوفير الانسجام بين عرضها ومضمونها وشكلها جميعاً .

حتى الحوار فى أدب ثروت أباظة يكون باللغة العربية البسيطة .. لانه يرى أن القارىء قادر على أن يجد متعة فى معايشة الحوار العربى .. وقد استطاع توفيق الحكيم ومن بعده نجيب محفوظ ثم تبعهما ثروت أباظة أن يكتبوا حوارهم بلغة سهلة عربية يخيل لقارئها أنها عامية . ولم يشك القراء ذلك بل كانوا أكثر متعة بها .

— ١ —

ان رؤيا ثروت أباظة الابداعية تدرك تماما أن الفن ليس شيئا سهلا انه جهد ضخم وعلى من يرود طريقه أن يحتمله أو يبتعد وتكشف الرؤيا الابداعية فى أدب ثروت أباظة عن معرفة كاملة باللغة العربيــــة وجرسها وموسيقاها وأثر كل لفظة من ألفاظها فى الاذن والنفس .

ذلك أنه يحفل بالعنصر الجمالى فى الادب ،واذا كانت كل لغة — كائنة ما كانت واسطتها — تتضمن مادة وصورة ، فاننا ونحن بصدد أدب ثروت أباظة نعنى بدراسة عنصرين هما : ماذا يقول ، وكيف يقول . وإذا كنا قد حاولنا التعرف على إجابة العنصر الأول من خلال دراسة مضمون رسائله الابداعية فاننا نحاول هنا دراسة العنصر الثانى ، تأسيساً على أن المادة التى يتركب منها أى عمل فنى انما تنتمى غالباً إلى العالم المشترك أكثر مما تنتمى إلى الذات الفردية ومع ذلك فاننا نسلم مع ديوى بأن فى الفن تعبيرا عن الذات لأن الذات تتمثل تلك المادة بطريقة خاصة متمايزة ، لكى تعاود إخراجها إلى العالم المشترك فى صورة يكون من شأنها بناء موضوع جديد .

والمادة التى يعبر عنها الاديب لايمكن أن تكون شيئاً ذاتياً خاصا .

وانما الفردي — كما يذهب ديوى الى ذلك — هو (الأسلوب) الذى يصطنعه الاديب فى التعبير عن تلك المادة ، ولذلك نجد ثروت أباظة يتعامل مع الرواية على أنها عمل فنى ، الأمر الذى يجعل أسلوبه شيئاً فريدا . لان الطريقة التى يعالج بها المادة العامة أو العناصر المشتركة — كما رأينا فى الفصول السابقة — يحيلها إلى مادة جديدة .

ومهما كان العمل الفنى ، فانه انما يكون بالفعل لا بالقوة — عملا فنيا حين يحيا فى صميم خبرة فردية ، ذلك أن هذا العمل الفنى — كما يقول ديوى — انما يتجدد على الدوام أو يعاد خلقه باستمرار فى كل مرة يكون فيهـــا موضوعا لخبرة جمالية .. يقول :

إنه من العبث ان يتساءل المرء عما كان يقصده الفنان (فعـــلا) من وراء إنتاجه ، فان الفنان نفسه قد يجد فى عمله معانى مختلفة فى الايام والساعات المختلفة ، فى المراحل المختلفة من تطوره . ولو كان فى وسع الفنان أن تستخلصه من العمل الفني بأمانة ، مستفيداً إلى صميم خبرتك الحيوية الخاصة . تقول ثروت أباظة : « من المؤكد أنه لا يجوز للناقد أن يشرح الرمز فى العمل الفنى لان الرمز بطبيعته يستطيع ان يحتمل الكثير من التأويلات وقد يختلف هذا التأويل ما بين قارى وقارى ، وتحديد معنى واحد للرمز يفقر العمل الفنى ويحد الخيال عند القراء ، ولا يمنيهم كما لا يثرى العمل الفنى » .

وكثيرا ما يكون الرمز فى العمل الفنى رسالة هامة من الكاتب إلى القارىء والجهر بالهمس يفسده ويضيع على الكاتب ما يهدف اليه كما يضيع على القارئ الاستمتاع بهذا الهمس .

انما واجب الناقد ان يبين الجهد الفنى الذى بذله الكاتب فى عمله وكل ناقد يتناول العمل بروح عدائية لايعرف الوظيفة الحقيقية للنقد أو الناقد .

وأجمل به أن يترك العمل الفنى لمن لا يقف منه موقفاً فيه هذا العداء .

على أنه يجب على الناقد أن يحب العمل الفنى الذى سيتعرض له وينفذ إلى خلاياه وإلى الشعيرات الدقيقة من كيانه.. وبهذا يزيد العمل ثراء ويزيد القارىء معرفة به .

ولتوفيق الحكيم رأي نعجب به ونردده دائماً . فهو يرى أن الناقد المنصف هو الذى يعرف الجانب الذى يتميز به كل كاتب ويبلور هذا الجانب ويزيده توضيحاً عند القارىء .

ولو أن النقاد فعلوا هذا لما وقفوا موقفهم من أعمال تيمور ومحمد عبد الحليم عبد الله وباكثير وأمين غراب والسباعى رحمهم الله وإحسان عبد القدوس .

فكل كاتب من هؤلاء له ناحية هو فيها متفوق والا لما أصابهم ما أصاب من نجاح ولكن النقاد فى شبه تحزب وقفوا منهم موقفاً صامتاً فترة طويلة من الزمان . أغلب الامر أن هذا الموقف كان إطاعة لاوامر صادرة اليهم ، ولكنهم برروا هم صمتهم بأنهم لا يقبلون أعمال هؤلاء الكتاب . ومن أجل هذا حدث هذا الانفصام الواضح بين الكتاب والقراء من ناحية وبين

النقاد من ناحية أخرى وكأنما هؤلاء يعيشون فى بلاد أخرى غير البلاد المصرية . . أو إن شئت فقل فى أمة أخرى غير الأمة العربية » .

فالفن الروائى فى أدب ثروت أباظه يتميز بوحدة موضوعية تتيح لاجزاء الرواية تحقق الخبرة الشعورية ، حينما تندمج مع باقى خواص العمل الروائى بحيث يمكن القول بأن هناك علاقة متبادلة بين فن الرواية وفن التصوير ، من حيث قيام هذا الامتزاج أو الاندماج الكامل ، بين (الشكل) والنموذج من جهة ، وبين اللون والمكان والضوء من جهة أخرى ، أو على حد تعبير الدكتور بارنز عن الصورة : ان (التأليف أو الامتزاج الذى يتحقق بين جميع الوسائط التشكيلية يعنى أنها بمثابة اندماج انسجامى يتم بينها جميعاً) وان النموذج بمعناه المحدود ، يعنى التصميم او الخطة هو مجرد الهيكل الذى يطعم بالوحدات التشكيلية .

وهذه الخاصية فى ادب ثروت اباظة ، مستفادة من تمثله للنموذج القرآنى فى السرد القصصى ، ولعل ذلك يتضح فى قوله عن قصة يونس :

(ان السرد فى هذه الآيات القليلة يحقق مبدأ الاقتصاد الفنى بأجمل مايمكن ان يتحقق . وقد يقول البعض: ان الواقعية حين بدأت كانت تحرص على التفاصيل . ولعل هؤلاء لا يدركون أن الواقعية نفسها قد تطورت ، وأصبح القصاص اليوم يكتفى ببعض خطوط عريضة تحدد ملامح الصورة ، وعلى الأحداث بعد ذلك أن تكمل الملامح إذا كان لابد لها أن تكامل .

ذلك لان الواقعية حين بدأت وأعجب الناس بها كان القارىء غير قارئ اليوم . لقد كان القارئ يريد من الكاتب أن يخلق له الجو الذى

يحيط بالقصة حتى يعيش فيه مع أشخاص القصة ، فيصبح القارى وكأنه بطل من أبطال الاحداث وان كان بطلا محايدا لا يجرى الأحداث وانما يجرى معها مشاهدا .

أما قارى اليوم فقد أصبح من الصعب خداعه وأصبح الكاتب يترك لقارئه أن يخلق هو الجو الذى يظن أنه يجمل بالقصة أن تدور فيه . وهكذا أصبح القارى اليوم يشترك مع المؤلف، وأصبحت متعة القراءة أكبر ، لأن القارى، يحس الآن أنه عنصر مهم من عناصر العمل الفنى الذى يقرؤه ، وهذا التغيير فى شكل القصة وفى نوع القارى لم يطرأ إلا فى السنوات القريبة الماضية (حين أصبح القارىء أكثر تحضراً ، وأكثر ألفة بالفن القصصى) .

— ٥ —

وإذا كنا من خلال تحليل مضمون أعمال ثروت أباظة قد رأينا أن هذه الأعمال تقترن بتاريخ خاص ومكان معين ، فإننا نستطيع القول أن ما ولدته تلك المناسبات قد اتخذ صورة مادية معينة استطاعت أن تنفذ إلى خبرات الآخرين . وهنا نجد أن (الموضوع) فى (هارب من الأيام) أو (شئ من الخوف) مثلا هو (الحرية) وما نجم عن تحقيقها من نتائج ، وأما المادة فى كل عمل من هذه الأعمال فهى (الرواية) نفسها وأما موضوع كل منها المطروق فهو شتى الخبرات السابقة التى مرت بالقارىء عن الطغيان والقسوة والاستبداد والظلم بالنسبة إلى المخلوق الحى . على الرغم من التشدق بالشعارات دون أن ترتبط بمضمونها الحقيقى، ولعل فى ذلك تفسيراً للسبب الذى دفع بثروت أباظة إلى أن يجعل رمز (الوطنية) كشعار مرفوع دون

أن يأخذ حقه من التقديس والممارسة مجسداً فى شخصية (وطنية) القيطة ، تماماً ، فالشعار الفارغ هو شعار اقيط .

وحينما نستعرض عناوين روايات ثروت أباظة . ابن عمار — هارب من الأيام — قصر على النيل — الضباب — شىء من الخوف — أمواج بلا شاطىء — جذور فى الهواء —أوقات خادعة — خائنة الأعين — نقوش من ذهب ونحاس — . . . إلخ ، سنجد أن هـذه العناوين لاتخرج عن كونها مسائل اجتماعية ، فهذه العناوين تحقق هوية الموضوعات حتى يسهل إدراكها .

ولكننا نلاحظ أن ثروت أباظة قد ترجم الشكل الموسيقى إلى شكل روائى ، حينما اتخـذ لفصول رواياته — عـدا ابن عمار — أرقاماً بدلا من العناوين ذلك أن الموسيقيين يطلقون على أعمالهم فى العـادة بعض الأرقـام بالاستناد فيما ظهر إلى منتاح كل مقطوعة . فى حين أنه كان فى (ابن عمار) متأثراً بالفن التشكيلى فى الرواية ، حينما آثر — شأنه فى ذلك شأن المصورين — أن يطلق على فصول أو لوحات رواية أسماء دالة ، وهى الصفة التى ميزت عناوين رواياته بوجه عام .

وتفسير ذلك أن الفنان لايميل إلى ربط أى موضوع فنى بمشـاهد أو أحداث يستطيع الجمهور المتلقى أن يتعرفها بخبرته السابقة ، كما يذهب ديوى إلى ذلك ؟ فقد تحمل إحدى الروايات اسماً مجرداً لـ (قصر على النيل) أو (هارب من الأيام) أو (شىء من الخوف) أو (نقوش من ذهب ونحاس) ، وهذه الأسماء أشبه بأسماء اللوحات فى الفن التشكيلى ، ومع ذلك فان كثيراً من المستقبلين لهـذه الأعمال قد يظنون أنه لا بد لهم من أن يقحموا على

بادراكهم لتلك الرواية ذكرى شيء معين سبق لهم أن رأوه فى مثل تلك الساعة المعنية .

وإذا كانت هناك نقطة واحدة تتقارب عندها الحاسة الخلقية والحاسة الفنية — على حد قول هنرى جيمس — وذلك فى ضوء الحقيقة الواضحة جداً وهى أن أعمق خواص العمل الفنى هى دائماً صفة ذهن صاحبه . فإننا بإزاء ثروت أباظة نجد سمات تميز رؤياه الابداعية ، منها الاخصاب الفكرى والوفرة الثقافية التعددية والاحساس بالمسئولية تجاه الحياة وتجاه الأجيال، فضلا عن قدرته على التحليل النفسى لنماذجه البشرية ، الأمر الذى يجعل أعماله الابداعية تتسم بالجمال والصدق . ويكفى الرواية هدفا — كما يقول جيمس الذى ترجم له ثروت أباظة أحد أعماله — أن تتكون من هذين العنصرين .

— ٦ —

وثروت أباظة كاتب مجيد فى فن المقالة ، ومن نماذج أدبه فيها مقالته المشهورة التى نشرتها الأهرام فى مارس ١٩٨٥ بعنوان (أغريب أنا إذن) .

مصرى أنا بكل نسمة هواء أنشقها،مصرى أنا بكل لحظة من لحظات حياتى،مصرى وهى رغد وسعادة وهناء،ومصرى أنا وهى مهزومة،ومصرى أنا وهى منتصرة . مصرى أنا وهى تغذى الاسلام والعروبة بدمائها الذكية وبخزمالها . ومصرى أنا وهى محتلة بالامبراطورية أو محتلة بحثالة البشرية وشراذم الدول ومطاريدها ،ومصرى أنا وهى تسترد أرضها جميعها . مصرى أنا وهى مكبلة،ومصرى أنا وهى حرة عزيزة كريمة .

على ترابها لعبت دمى كل نقطة فيه مصرية خالصة . تعامت فى مدارسها

وعرفت قريتها من أبعد أعماق قريتها، وعرفت الشارع والحارة والعطفة والزقاق ليس فى مدنها مدينة لم أزرها زيارة عابرة أو زيارة متأنية .

لم أغب عن مصر فى حياتى أكثر من شهر .. فلغتى لغتها وتصرفى تصرف الخاص من أبنائها واشارتى مطبوعة على جوارحى من اشارات أبنائها . لا أتصور أن إنسانا ما يمكن أن يكون مصريا أكثر مما أنا مصرى .. لم أشعر فى حياتى بغير نبضها وما يعنيني فى العالم مجد إلا مجدها .

أنا بعض من أنفاس الليل والنهار بين ربوعها . أنا ذرة من ترابها ، أنا نقطة من نيلها ، أنا ورقة من أشجارها ، أنا نبته من حقولها أنا صدى الآذان فى سمائها .

فماذا حل بى فى هذه الأيام . لقد أصبحت وأنا ذلك الرجل أحس أنى غريب فى مصرى هذه التى أنا منها نفحة وهى منى كل أمى وكل زوجى وكل ابنى وكل بنتى وكل بيتى .

ولكنى غريب فيها هذه الأيام ... أترى هى غربة عن مصر أم غربة عن الزمن .. أنا غريب ... فمن أى المصدرين غربتى . أهى غربة عن بلدى . أم غربة عن زمنى .

لكم تمنيت أن تكون غربة عن الزمن .. إذن فيشركنى فى غربتى كل أبناء جيلى فى شتى أنحاء العالم ولكن كم أنا اسيف حزين .

أنا غريب عن مصر هذه ولست غريباً عن الزمن أنا أقدر وأقبل ولا أعجب لمجرى الحياة فى شتى دول ومختلف الأمصار . أنا عنها غريب بدمى وبمولدى وبنشأتى .

ولكن ما يجرى فى مصر اليوم جعلنى أحس فى كثير من لحظات يومى أنى غريب . فأنا بين واحدة من اثنتين كلتاهما أشد مرارة من الاخرى: إما أن هذه ليست مصرى التى ولدتنى . إما أننى أنا لم أعد أنا الذى عهدت نفسى .

أجلس أمام التليفزيون وأسمع كلاماً يقولون عنه شعراً . وأنا رجل صناعتى فى الدنيا الأدب والشعر ، أعرفه منذ نطقت الكلام وحفظته ورويته وصنعته . ليس ما أسمع شعراً ولا هو نثر وكنت قد تعلمت فى مدارس مصر أن الأدب هو البيان والبيان أهم ما فيه هو الوضوح . لا بيان فيما أسمع ولا وضوح .. إنه كلام لا أعرف كيف ركب صاحبه ألفاظه ليجعل منها جملا غير مفيدة .. هل ما أشاهد وأسمع جملة مركبة أم جريمة ترتكب .. ولكن التليفزيون المصرى الذى يحمل لواء الدولة . . . الدولة المصرية .. يذيع هذا الكلام .

فأنا إذن غريب عن مصر .

وأقرأ أخبار الناس فأجد النبالة قد رحلت عنا وأجد الطهارة أصبحت استثناء وأصبحت السرقة وخيانة الأمانة والاختلاس والاعتداء على أموال الشعب هو الأصل . لا ... ليست هذه مصر .

لاشك أن لكل زمن لصوصه وناهبيه ولكنهم كانوا هم الاستثناء وكان الأصل هو الأمانة فكيف انقلب الأمر كل هذا الانقلاب .

كان الأمين على خزانة إذا مس منها مليما حوكم سواء أعاد ما اختلس أو لم يعده ، لأن الجريمة تتم بمجرد تحويله المال الذى كان لديه أمانة إلى مال

خاص له . ولأننى أعلم اليوم أن الجريمة تسقط إذا هو أعاد المال الذى اختلسه إلى الخزانة . والكارثة أن هذا يحدث بحكم مجرى العمل اليومى وليس بحكم القانون الذى لم أكن أتصور أن يحطمه فى يوم من الأيام مجرى العمل اليومى .

فأنا إذن غريب عن مصر .

اقتصاد مصر يدمر وتنصب عليه الأيدى العابثة من كل جانب والعمال لايعملون والانتاج يتضاءل والتبجح يتسيد ولاعقوبة لمسىء ولامثوبة لمتقن . ويختلط الكسول الجامد الحس الوقح بالنشيط ذى الحياء الأبى ويصبح كلاهما سواء فى المنح والعلاوات والترقيات .

فأنا إذن غريب عن مصر .

المتعلمون أشد جهلا من الأميين، والمنارة الكبرى من الأزهر الشريف أصبحت جامعة مثل كل جامعات العالم وهى التى كانت متفردة لامثيل لها فى العالم أو فى التاريخ ومن كرسيها الموصول بالعمود صنعت كراسى الجامعات جميعا وتصدع حصن اللغة العربية وهدمت حصونها وأصبحت لغة القرآن غريبة مثلى فى بلد الأزهر الشريف واحد الجامعات وعلمها الفرد .. واسمع فى التليفزيون والاذاعة لغة غير اللغة التى أعرفها . لاهى العربية التى تعلمناها ولاهى العامية التى نشأنا نسمعها وإنما هى شىء آخر حقير لالون له ولا دلالة ولا مفهوم .

فأنا إذن غريب عن مصر .

وأرى الأفلام .. وويل لمصر من أفلامها دعارة وخدر وسكر وانحدار

كل هـذا بغير القصة التى تعودنا قراءتها ومشاهدتها على شاشات السينما .

فأنا إذن غريب عن مصر .

وأبحث عن مسارح الدولة فيقولون إن الممثلين الكبار نزحوا إلى حيث المال الوفير فى السينما والتليفزيون وأسأل وهل بدأ هؤلاء الممثلون كباراً أما كانوا شبابا شداة صنعوا مستقبلهم على خشبة المسرح ثم انتقلوا إلى سما النجوم وحضيض المال . فلماذا لا يعمل المسرح بالشباب الجديد المتخرج فى المعاهد الفنية والنصوص المصرية موجودة فى تاريخ المسرح المصرى وفى حديثه والنصوص المصرية العالمية لا تمتنع على أحد يستطيعون أن يعرضوها مترجمة أو ممصرة . لا أجد الجواب .

وقد نشأت منذ أنا طفل لا يكاد يمر أجد فى مصر مسارحا عددا .

فأنا أذن غريب عن مصر

وأرى مسلسلات التليفزيون أشاهد منها ما يمثل فى الريف فأجد ريفاً غير الذى عجنت فى جنباته كل جارحة من جوارحى .

إنه ريف لا أعرفه ولا يعرفنى . لا هو إلى الدلتا ينتسب ولا هو إلى صلة بالصعيد يمت . الريف يصنعه المؤلف وفق هواه ويحسب انه اذا قلب القاف جيما على لسان الممثل فقد صنع الريف .

واذا كانت الرواية فى القاهرة فالهول .. الأخذ والزيف الشين وكأننا يعرف القاهرة وما فى بيوت القاهرة . إنها قاهرة أخرى غير تلك التى يرزؤنا بها المؤلفون فى التليفزيون .

فاذا تغاضينا عن التضليل فى رسم مصر من ريفها إلى حضرها وحاولنا أن نبحث عن لمحة من فن أو ومضة أصالة من الدراما فسعينا خائب وبحثنا هباء وقد رأينا أفلاما مصرية غاية فى الروعة ورأينا مسرحا مصريا غاية فى الرفعة والاصل فى الفن أن يزداد على الأيام أصالة وشموخا وتفردا . والأصل فى الفنانين ان يزيدوا البنـــاء الذى تركه لهم السابقون سموقا وعـــلوا ولـــكن للاسف هدموا البناء القديم وما أقاموا مكانه شيئاً . وما هكذا مصر .

فانا أذن غريب عن مصر

وأخرى لاتقل هولا عما يحيط بنا . ان عضو النيابة هو وكيل النائب العام . والنائب هو الرجل الذى أنابه الشعب ليحرك له الدعوى العمومية ضد كل من يعتدى على حق من حقوق أفراد الشعب وهو من باب أولى المنوط به تحريك هذه الدعوى اذا اعتدى شخص ما على قيم هـــذا الشعب وتراثه وثقافته . فكيف إذن يقيم وكيل من وكلا النائب العام الدعوى على التراث الأدبى وهو جزء من تاريخ هذا الشعب .

ان وكلاء النائب العام محتم عليهم ان يعرفوا ماهو التراث الأدبى ومحتم عليهم أن يكونوا على وعى بجانب كبير منه . ترى هل فكرت النيابة العامة فى هذا التراث وفى عدد الأجيال الضخم الذى صاحب فيه هذا التراث الشعب المصرى . الم يتكر لحظة لماذا لم يقم مئات السنين بتحريك الدعوى العموميـــة طوال هذه السنوات أم يريد هو اليوم أن يصحح خطأ وقعت فيه أجيال النيابة المتعاقبة على مدى التاريخ أم تراه يبتدع فى وظيفة النيابة العموميـــة بدعة جديدة . فيشهر وكيل النائب العـــام الذى هو وكيل الشعب سلاحه على

الشعب بدلا من أن يقوم بوظيفته الاصلية فيكون سلاحا لصالح الشعب أنا لا أدرى .

فأنا أذن غريب عن مصر

وأخرى أدهى من كل ذلك وأمر . أرى الشيوعيين قد طفوا على سطح الاعلام المصرى فى شتى نواحيه ومجالاته وأوشكوا أن يصبغوا مصر المؤمنة الأصلية بلون الدم . وقد عاشت مصر حياتها جميعاً وهى مصر الازهر حتى بعد أن أصبح الأزهر جامعة . وعاشت مصر من مشرق القاهرة تخدم الحضارة لا العدوان والحب لا القهر والاخاء لا التمزق . وان تكن فترات قدمرت بها نضب فيها الحب وتسيد العدوان فقليلا ما كانت تمكث هذه الأوقات .

— ٧ —

وهكذا نجد ثروت اباظة من ادبائنا القلائل الذين يتسمون بالاصالة والمعاصرة ووضوح الشخصية وعمق الثقافة . ويشغل حاليا منصب رئيس اتحاد الكتاب ومنصب رئيس القسم الأدبى لجريدة الاهرام ، وكان يعمل من قبل فى المحاماة ، وهو بجانب ذلك قد شغل مناصب كبيرة من الهيئات الادبية والصحفية مثل :

— رئيس اتحاد الكتاب

— عضو مجلس الشورى

— رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة الاذاعة والتليفزيون سابقا .

— سكرتير عام نادى القصة .

— رئيس مجلس إدارة جمعية الادباء .

— عضو فى لجنة جوائز الدولة التشجيعية فى القصة والرواية والتمثيلية وذلك منذ إنشائها .

— عضو المجلس الأعلى للثقافة

— عضو نقابة الصحفيين

— عضو نقابة المحامين غير المشتغلين

— عضو نادى القلم الدولى

— ٨ —

وقد ولد محمد ثروت إبراهيم الدسوقى أباظة فى القاهرة فى ٢٨ يونيه عام ١٩٢٧ ، لكن والده انتظر حتى ذهب إلى بلدته ـ غزالة مركز الزقازيق محافظة الشرقية — وسجل تاريخ ميلاده فى ١٥ يوليو عام ١٩٢٧

• تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة المنيرة والعباسية ونال شهادة إتمام الدراسة الإبتدائية عام ١٩٣٩ .

• ثم مدرسة فاروق الأول الثانوية ومدرسة فؤاد الأول الثانوية ١٩٤٦ .

• تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٥٩ .

• بدأ القراءة منذ طفولته فقرأ كتب كامل كيلانى . ثم قرأ أعمال أدباء مصر توفيق الحكيم . طه حسين . عباس محمود العقاد . أحمد شوقى الذى حفظ شعره . ثم عزيز أباظة الذى كان يقوم بتصحيح التجارب لمسرحياته بالمطبعة .. كما تأثر بالشعر العربى تأثراً كبيراً وبالتراث النثرى عند كتاباته . وقرأ جميع الروايات العالمية فى الأدب العربى والأدب الروسى ، وأعجب بستندال وبلزاك من الأدب الفرنسى ، وديكنز من الأدب الإنجليزى ، وشتاينبك من الأدب

الأمريكي ، وقد ترجم له « في مغيب القمر » ، كما أعجب بوليم سادريان وإرنست هيمنجواي وتولستوي ودستوفيسكي .

وأول قصة قصيرة كتبها بعنوان « أكرم من حاتم » نشرت في مجلة « صرخة العرب بالعدد الأول الصادر في يناير ١٩٥٥ .

وقد نشرت له المجلات الأدبية إنتاجه الأدبي في سن مبكرة ، كمجلة « الثقافة » التي كان يشرف عليها الدكتور أحمد أمين ، ومجلة « الرسالة » التي كان يصدرها ويرأس تحريرها أحمد الزيات.. وذلك منذ كان ثروت اباظة في السادسة عشرة من عمره . وكتب بعدها في أغلب الصحف والمجلات مثل : المصري . المصور . الجيل الجديد آخر ساعة . الهلال . أخبار اليوم الجمهورية . الأهرام . القصة . الإذاعة والتليفزيون . مجلة الشعر . وغيرها .

وأول رواية كتبها « ابن عمار » عام ١٩٥٤ ، وهي قصة تاريخية عن الأندلس قررتها وزارة التربية والتعليم على الطلبة .

وفازت روايته « هارب من الأيام » التي تصوّر جو القرية بما فيها من خير وشر وأطماع ، بجائزة الدولة التشجيعية في الرواية — في أول عام لها — عام ١٩٥٨ .

وقامت جامعة « ليدز » بإنجلترا بتدريس قصصه بقسم اللغات السامية بها في ٣٠ مارس ١٩٦٠ .

وعمل رئيسيا للقسم القضائي بجريدة القاهرة عام ١٩٥٤ .

وأشرف على مجلة « القصة » منذ عام ١٩٦٤ وأصبح رئيسا لتحريرها حتى الآن .

وهو عضو بجمعية مؤلفى الدراما باتحاد الكتاب الدولى عام ١٩٧١

وقد انتخب أمينا لصندوق حق المؤلف فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٣ .

وقد عين مستشارا أدبيا للنصوص الأدبية بهيئة السينما والمسرح والموسيقى فى ٢٤ مارس ١٩٧٤ .

واختير رئيسا لمجلس الإدارة ورئيس تحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون» فى ١٢ سبتمبر عام ١٩٧٥ .

وعين كاتبا ورئيسا لتحرير القسم الادبى بجريدة الاهرام عام ١٩٧٦ .

اشترك فى الندوات الأدبية بمصر والخارج وفى الاذاعة والتليفزيون والهيئات الأدبية ، ومثل مصر فى العديد من المؤتمرات الأدبية فى مصر والخارج .

وقد كتب أكثر من ٧٠ تمثيلية إذاعية ، وأكثر من ١٠٠ قصة قصيرة ، ١٥ رواية ، ومسرحيتين ، و ١٠ كتب فى الدراسات الأدبية والترجمة والمقالات .

• له عشرات المسلسلات فى الصحافة والاذاعة والتليفزيون

• قدمت أعماله فى الاذاعة والتليفزيون والسينما والمسرح

• نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٨٣ .

انتخبه كتاب مصر رئيساً لاتحادهم الذى يضم حملة القلم فى الدولة .

— ٩ —

ومؤلفات ثروت اباظة تشـــمل ما يلى :

أولا ـــ الروايات :

١ ـ ابن عمار ١٩٥٤
٢ ـ هارب من الايام ١٩٥٦
٣ ـ قصر على النيل ١٩٥٨
٤ ـ ثم تشرق الشمس ١٩٥٩
٥ ـ لقاء هناك ١٩٦٠
٦ ـ الضبـــــاب ١٩٦٤
٧ ـ شئ من الخوف ١٩٦٦
٨ ـ أمواج بلا شاطئ ١٩٧١
٩ ـ جذور فى الهواء ١٩٧٥
١٠ ـ أوقات خادعة ١٩٧٥
١١ ـ خائنة الاعين ١٩٧٥
١٢ ـ نقـــوش من ذهب
ونحاس ١٩٧٩
١٣ ـ خيوط السماء ١٩٨١
١٤ ـ طائر فى العنق ١٩٨٢
١٥ ـ أحلام فى الظهيرة ١٩٨٣

ثالثا ـــ المسرحيات :

١٦ ـ الحيـــــاة لنا ١٩٥٥
١٧ ـ خيانة الحياة ١٩٦٧

ثالثا مجموعات قصصية :

١٨ ـ الايام الخضراء ١٩٥٨
١٩ ـ ذكريات بعيدة ١٩٦٣
٢٠ ـ هذه اللعبة ١٩٦٧
٢١ ـ حين يميل الميزان
٢٢ ـ لأنه يحبها ١٩٧٧
٢٣ ـ السباحة فى الرمال ١٩٧٨
٢٤ ـ نوع من الحب ١٩٧٠
٢٥ ـ وبقى شئ ١٩٧٩
٢٦ ـ من أقاصيص العرب
(تمثيليات) ١٩٦٩

بحوث أدبية :

٢٧ - السرد القصصى فى القرآن

٢٨ - شعاع من طه حسين

٢٩ - القصة فى الشعر العربى

٣٠ - الشباب والحرية

٣١ - خواطر ثروت أباظة

ترجمة :

٣٢ - فى مغيب القمر — لشتاينبك

٣٣ - عذراء اللوردين — لماكسويل أندرسون

٣٤ - دورة اللب - لهنرى جيمس

كتب عن حياته وأعماله :

— النماذج البشرية فى أدب ثروت أباظة للدكتور الناقد عبد العزيز شرف

— الدين والفن فى أدب ثروت أباظة لمهدى بندق

— ثروت أباظة الفلاح الارستقراطى لمحمود فوزى

— الأعمال الروائية والقصصية لثروت أباظة — لابراهيم سعفان ومحمد قطب

— قضية الحرية عند ثروت أباظة لعبد العزيز مصطفى

— القصة القصيرة عند ثروت أباظة لحسين عيد .

النقـــد الأدبي

يبرز النقـــد الأجنبي كفن من فنون الأدب الحديث ، ومن أشهر النقاد : د . شوقي ضيف ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ، ود . محمد مندور ، ود . محمد السعدي فرهود ، ود . عبد العزيز شرف ، ومؤلف هذا الكتاب .. وسواهم :

د . شوقي ضيف ناقـداً

- ١ -

شوقي ضيف ظاهرة أدبية في حياتنا الثقافية المعاصرة ، فهو أديب ، ومحقق للتراث ، ورائد في مجال الدراسات الأدبية ، وهو قبل كل شيء ناقد من طراز رفيع .

وإذا كان شوقي ضيف قد تأثر بجيل الرواد : طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الوهاب عزام ، وأحمد أمين .. فإنه ما لبث أن استقل بشخصيته الأدبية المتميزة ، مفكرا وناقداً ومشرعاً للأدب ، وحتى صار معلما من معالم حياتنا الفكرية والأدبية الراهنة ، بل صار دلالة أصيلة على قدرة مصر الفكرية على التجديد والبعث .

ومن منطلق « الحياة من أجل الفكر والبحث والمعرفة والإفادة » ، نهض شوقي ضيف بمسؤلياته العلميـــة ، وأضاف الجديد من النظريات العلمية ، التي تثري الفكر ، وتغذي التراث بالأصالة والمعاصرة معا ، والتي

كتبها بعقل مستنير ، وبصيرة نفاذة ، وإشراق روحى متألق ، ومدارسة ، بل معايشة ، لشتى المصادر والأصول الثقافية والفكرية والأدبية فى تراثنا الخالد .

ومن ميلاده عام ١٩١٠ إلى حصوله على الليسانس من قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٥ حيث كان أول الخريجين إلى حصوله على الماجستير مع مرتبة الشرف عام ١٩٣٩ برسالته عن النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصبهانى ، إلى حصوله على الدكتوراه عام ١٩٤٢ برسالته عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » إلى عمله العلمى فى جامعة القاهرة ومختلف الجامعات فى الوطن العربى ، وفى شتى اللجان والهيئات الأدبية . . تاريخ طويل ممتد حافل بالإبداع والتجديد .

وكتبه فى شتى العصور الأدبية ، وفى النقد والبلاغة والتفسير وعلوم العربية ، ودراساته عن الشعر العربى وأعلامه فى مختلف العصور ، ومن بينها كتابه « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » الذى صحح نظرية خاطئة نادى بها الباحثون المعاصرون من مستشرقين وعرب ، وذهبوا فيها إلى أن الشعر الأموى كان محاكاة للشعر الجاهلى ، وأن حركة التجديد فى الشعر العربى لم تبدأ إلا فى العصر العباسى ، حيث ذهب شوقى ضيف إلى أن حركات التجديد بدأت فى الشعر على أيدى الشعراء الأمويين ، وأن الشعر الأموى كان مستقل المذهب ظاهر الشخصية ، وكذلك كتابه « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » يصحح نظرية خاطئة أخرى تقول إن الشعر العربى فى عصوره المختلفة كان موجها لخدمة الطبقات العليا ، كما كان بعيدا عن تصوير مشاعر الشعب العربى وأحاسيسه ، فأثبت الدكتور ضيف فى الكتاب

عكس ذلك تماما ، وأن الشعر إنما كان تعبيرا صادقا عن الشعب ، وطبقاته العاملة ، وآماله الطموح فى الرفاهية والتقدم والبقاء ... كل هذا النتاج العلمى الجاد فى مختلف ألوانه يمثل موهبة خلاقة متجددة قادرة على العطاء .

وبحوثه ودراساته فى النقد الأدبى تدل على ذوق مرهف ، وبصيرة نفاذة إلى جوهر العمل الأدبى وأصوله ، ومن بينها كتابه « فى النقـد الأدبى » ، وكتابه الآخر « فصول الشعر ونقده » .

وكتابه « الشعر العربى المعاصر » الذى رصد فيه كل حركات التجديد عند شعرائنا الرواد فى مختلف أنحاء العالم العربى والمهجر الأمريكى ينقض النظرية القائلة بأن الشعر العمودى المعاصر عجز عن مواكبة حركات التجديد وأن الغرض من الشعر الحر هو التجديد ، فهو يثبت أصالة الشعر العمودى ، ممثلا فى أروع نماذجه عند الشعراء الرواد فى أنحاء الوطن العربى ..

— ٢ —

يتناول شوقى ضيف فى كتابه « فصول فى الشعر ونقده » تقويم التراث الشعرى ويشرح تطور موسيقاه على مر العصور ، ويوضح اتجاهات الشعر فى العصر الحديث ، ونواقص الإيقاع فى النغم الشعرى الجديد ، وغير ذلك من الموضوعات .

أما كتاب « فى النقـد الأدبى » فهو سجل حافل فى تحليل الأدب وتقويمه وتفسير جماله الفنى وتعليله ، وفى دراسة الشخصية الأدبية .

وناقدنا لا يجانب النقد الموضوعى ، ولا يخاصم النقد التأثرى ، فهو

لايلغى طريقة المعاصرين الذين يخضعون تحليلهم الشعر لأذواقهم ، بل يعمل على التخفيف من غلواء هذه الطريقة ، بحيث لا تصبح القصيدة مجالا يتحركون فيه بآرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم ، بل إن المطلوب أن يتحرك فيها الشاعر نفسه ، فليكن محلل القصيدة أو مفسرها تأثريا ، ولكن ليضغط نفسه وآراءه وأحاسيسه فى إطارها ، وليرجع إلى ذوقه ، لا إلى الذوق العام الذى يتألف من عاداته ومعتقداته وأهوائه ، والذى يجعل نقده خاضعا لآراء شخصية ، والذى هو أخطر ما يكون على تحليل أية قصيدة أو الحكم عليها بالجودة والرداءة .. بل إلى الذوق الخاص ، الذى كونه من قراءاته ومن دراساته للشعر ونصوصه فى عصوره وأطواره المختلفة حتى يكون تحليله وحكمه سليمين .. فتحليلنا أو نقدنا يجب أن ينصب على تصوير الحالة الوجدانية التى طافت بالشاعر ، وأنطقته شعره أو قصيدته [١] .

والتجربة الفنية فى الأدب والشعر عند ناقدنا ، إنما هى تجربة نفسية كاملة ينقل إلينا فيها الفنان أشتات الأحاسيس والمشاعر ، مما يعود إلى مجتمعه وميوله أو يعود إلى ذاته ، وشعوره ولا شعوره الفردى والجماعى [٢] .

والتجربة أولى بها أن تكون تجربة نفسية ، للعقل عمل فيها ، ولكن بشرط أن لا يخرجها من عالمها ، عالم الرؤى والأحلام ، والصور الطريفة ..

---

(١) ١٢٥ و ١٢٦ فى النقد الأدبى - الطبعة الرابعة - ١٩٧٦ - دار المعارف - القاهرة .

(٢) ٨٣ فى النقد الأدبى .

ولعله من أجـل ذلك كان الخيال عنصرا كبيرا فى التجربة الشعرية ، فهو عنده جوهر الأدب والنقد ، بل هو سر بلاغة الصورة وجمالها وروعتها[١] .

وفى دراسة ناقدنا الكبير للشخصية الأدبية يدلف إلى هـذه الدراسة بذوق الفنان ، وبصيرة العالم معا[٢] .

إنه يحتم على من يتصدى لمثل هذه الدراسة أن تتسع مداركه ، ليقف على المكونات الحضارية والثقافية والاجتماعية والاقليمية . التى طافت بزمن الأديب ومكانه ، وطوقت آثاره بمعالم خاصة . وهو إلى ذلك كله ينبغى أن يكون ملما بأصول الأدب وقواعده ، حتى يستطيع الحكم على آثار الأديب حكما موضوعيا[٣] .

ويحدد معالم منهج على أصيل ثابت لتصوير الشخصيات الأدبية .

— ٣ —

ويقف ناقدنا من الصورة والمضمون موقفا نقديا واضحا ، فهما عنده وجها النموذج الأدبى ، إذ أن مادة النموذج وصورته لا تفترقان[٤] .

وعنده أن الموسيقى هى من أهم خصائص الصياغة الشعرية ، فلا يوجد شعر بدون موسيقى[٥] .

---

(١) ١٤٩ فى النقد الأدبى .
(٢) ١٧٣ المرجع نفسه .
(٣) ٦٧ فى النقدى الأدبى ـ شوقى ضيف .
(٤) ١٦٤ فى النقد الأدبى .
(٥) ٥٨ فصول فى الشعر ونقده ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .

ومن أجل ذلك وقف من القصيدة المحافظة موقف الناقـد المنصف ، فرأى أن شيوع الشعر الجديد لن يدفع القصيدة التقليدية عن مكانتها[١] . وهو يؤكد أن أركانا كبيرة من بنيان الإيقاع الشعرى الوزون سقطت عن إيقاع الشعر الحر الجديد[٢] .

وأنه من أجل ذلك لابد للشعر الجديد من أن يتواصل تواصلا وثيقا مع القصيد وأنغامه(٣) ، وأن هذا الشعر لن يتم نجاحه نجاحا حقيقيا إلا إذا تكاملت فيه الألحان العذبة ، والإيقاعات الصافية(٤) .

ويدعو ناقدنا إلى العناية بالقيم الفنية الخالصة فى الأدب .. ومن أجل ذلك ألح على الشباب ليعنوا بلغة أدبهم ، لأن كثيرا مما ينتجونه لاتتكامل فيه القيم الفنية المعروفة فى الصياغة الأدبية(٥) .

ويتحدث طويلا عن الشعر والتصوير الموسيقى ، ويحلل التجربة الشعرية ، ويشرح الوحـدة العضوية للقصيدة ، ويؤكد أهمية دور الخيال فى الصورة الشعرية ، ويحتم توفر الموهبة والأصالة والأبداع فى العمل الأدبى .

— ٤ —

وفى كتابه « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » ، يؤكد ناقدنا أن الصلة

---

(١) ٣٠٠ فصول .
(٢) ٣١٥ فصول .
(٣) ٥٢ فصول .
(٤) ٣٠٠ فصول .
(٥) ١٩٨ فى النقد الأدبى .

بين اتجاهات شعرنا المعاصر ومقومات شعرنا الموروث باقية خالدة لا يمكن انفصامها ، فشعراؤنا مع تمثلهم للشعر الغربي ونماذجه ، وتجديدهم شعرهم شكلا ومضمونا يحسون أن أسلافهم في أعماق نفوسهم ، كما يحسون أنفسهم وبيئاتهم وعصرهم .

وعندما تحدث ناقدنا الدكتور شوقي ضيف عن « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » ، صحح الخطأ الذي ذاع على ألسنة الكثير ، من أن شعراء العربية كانوا بمنأى عن شعوبهم ، وكانوا شعراء قصور فحسب فأثبت أنهم أصبحوا تملم الأنفاس عن أحاسيس الشعوب العربية وعن وجدان عصرهم وجيلهم ، وبذلك لم يفصل بين الشعراء ومجتمعاتهم ، مؤكدا أن الشاعر هو ابن عصره ومجتمعه .

وعندما درس البارودي عرض بالتفصيل لعصره وسيرته ، وما اختلف عليه من مؤثرات ، وحلل شعره ، وأبان عن منزلته الشعرية وريادته للبعث الجديد في الشعر العربي ، حتى صار رائده الذي حمل شعلته إلى الأجيال الجديدة مهما اختلفت اتجاهاتها بين التفكير والتجديد .

وفي دراسته لشوقي وقف طويلا على المؤثرات المديدة في حياته وشاعريته وعلى مواقف شوقي بين التيار القديم والجديد ، وعلى موقف النقاد من شوقي وموقف شوقي من النقاد .

وبذلك أكد الصلة بين الشاعر ونقاده ، وبينه وبين عصره وجيله ، وبين الموهبة والإبداع ، وبين الاصالة والمعاصرة ، وبين التراث والخلق الفني .

— ٥ —

وعندما نقف أمام نص أدبي لناقدنا الكبير رأي فيه ندرك إلى أي مدى نفذ بروحه الشفافة ، وبذوقه الأصيل ، وبثقافته الواسعة ، إلى جوهر النص ومضمونه ، دون عنـــا أو التواء ، وذلك أثر واضح لروحه النقدية ، ولنظرته التحليلية الواسعة لمضامين النص ، ولأصول الأدب والفن .

ومنذ عشرين عاما على وجــه التقريب سألني الأستاذ يحيى حقي عن مختاره لكتابة روائع من الشعر القديم وتحليلها إلى مجلة المجلة .. فلم أتوان في أن أقول له : أن أصفى المعاصرين موهبة وأكثرهم قدرة على النفاذ إلى روح النص الشعري هو شوقي ضيف .

ولا زلت أقول إن ميزان النقـــد في يدي شوقي ضيف ميزان عادل ، لا يحيف على جودة ، ولا ينتقص موهبة مجيد ، ولا يحكم إلا حيث تكون أسباب الحكم قوية وعادلة .

وأحب أن أقول : إن شوقي ضيف من أكثر الرواد طموحا في مذهبه النقدي ، وأصالة في فهمه لتيارات الأدب ومدارسه ومذاهبه ، ولأصوله وشتى خصائصه ، وذلك مما يجعل له مكانا متميزا في نقــــدنا الحديث .

وآخر أعمال الدكتور « شوقى ضيف » العلمية ، الجزء الخامس من موسوعته تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بعصر الدول والأمارات : فى الجزيرة العربية بجميع أقاليمها المعدة — الحجاز — نجـــد - اليمن — البحرين — عمان — حضرموت — ظفار . وفى العراق . وإيران .

ويتناول هذا الجزء فترة زمنية طويلة ، تمتد من عام ٣٣٤ هـ ، حيث حيث يبـدأ حـكم البويهيين لدولة الخـلافة العباسية ، ويمتد عبر القرون الرابع والخامس والسادس والسابع الهجرية ، ويسير فى امتداد العصور التالية حتى العصر الحديث .

ومصادر الأدب العربى فى هذه الفترة ، وفى هذه الأقاليم الشاسعة . ضاع الـكثير منها فى مختلف الأحداث والمحن السياسية التى مرت بالعالم الإسلامى ، ومع ذلك فإن هذا الجزء يضىء تلك الفترة إضاءة كاملة ويكشف عن مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية فيها ، ويتناول مئات الدول والأمارات التى ظهرت على رقعة الجناح الشرقى للعالم الإسلامى فى تلك المدة الطويلة ، كما يعرض بالحديث لآلاف من الاعلام الذين ظهروا فيها من مفـكرين وعلماء وأدباء وشعراء ونقاد ، ولاعمالهم العلمية والادبية التى أدوها لبلادهم أو لغتهم وأدبهم طيلة حياتهم المثرية ، ويصحح كثيرا من المعلومات الادبية الزائفة ، ويعرض لعشرات المصادر المجهولة التى يستقى منها مادته العلمية الدسمة الغنية ، ولو أحببنا أن نعرض لذلك كله لاحتجنا إلى صفحات طوال .

وهذا الجهد العلمى الشاق ، الذى ينوه بالعصابة أولى القوة والشباب من العلماء والباحثين ، هو نفسه خير من يحدثنا عن صنيع الأستاذ الجامعى الدكتور « شوقى ضيف » .

وفى مقدمة الكتاب وخاتمته تحدث الدكتور عن منهجه وصنيعه فى هذه الدراسة الشاقة ، وبين المقدمة والخاتمة وعلى امتداد نحو سبعمائة صفحة ، تتوالى فصول هذه الدراسات ومباحثها . مما يحتاج معه الدارس والباحث والمستفيد إلى وقفات طويلة للتأمل وللأفادة .

الدكتور محمد مندور

٥ يوليو ١٩٠٧ — ١٩ مايو ١٩٦٥

- ١ -

يعد الدكتور مندور من طبقة الرواد فى تاريخنا الفكرى والثقافى والأدبى ومن طليعة العاملين فى شتى مياديننا الاجتماعية ، ومن كبار كتابنا فى الأدب والنقد والصحافة والاجتماع .

وهو فريد فى كتابة المقالة الصحفية ، إذ حمل عبء التحرير فى الكثير من الصحف والمجلات السياسية والأدبية منذ ما يقرب من الاربعين عاما .

وكان الدكتور فى صدر حياته الأدبية والجامعية ـ وعلى أثر عودته من أوربا بعد دراساته الكلاسيكية العميقة فى فرنسا ـ يميل إلى إيثار الناحيـة الجمالية فى الأدب ويدعو إلى العناية بالصياغة فى الأدب والشعر ويفضـل الشعر المهموس على الشعر الخطابى كما يتضح من كتابه « فى الميزان الجديد » . ولكنه على إثر اشتغاله بالسياسة والاحتكاك بالجماهير أخذت البذرة الاجتماعية المستقرة فى نفسه والتى تظهر أماراتها فى كتابة « نماذج بشرية » تنمو وتتزايد بتأثير الحملات السياسية والاجتماعية التى قادها فى الصحافة ، حتى أصبح ممن يدافع عن الأدب الواقعى الجديد ويشجعه ، ويناصر فكرة الأدب للحياة وتطور المجتمع ، حتى ليعد رائدا للفكر التقدمى فى ثقافتنا المعاصرة ، ولم يكن فى هذا التطور أى افتعال إرادى ، وإنما جاء نتيجة لملابسات حياته وتطور اهتماماته ، بانتقاله من الحياة الأكاديمية إلى الحياة العامة .

وهو الذى عرف بالتيارات والمذاهب الأدبية العالمية ، التى وضحت

لنا حركة الأدب والنقد عند الغرب ، بعد أن استعرض تاريخ النقد المنهجي عند العرب القدماء ، وهو في اتجاهه العام ديمقراطي واقعي .

وقد أسهم إسهاما كبيرا في خلق الوعي السياسي والاجتماعي الذي تمخضت عنه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولذلك آزر هذه الثورة منذ ظهورها وأيد أفكارها الوطنية والاجتماعية .

وفي المرحلة الأكاديمية من حياته تأثر بالثقافة اليونانية والفرنسية وبخاصة بأفلاطون وبرجسون ، ومن بين النقاد العرب يظهر في كتابه «النقد المنهجي عند العرب » إيثاره الآمدي صاحب « الموازنة بين الطائيين » وموازنته لمذهبه الذي يفضل سلاسة البحتري على تعقيدات أبي تمام ومحسناته البديعية التي طغت حتى أفقرت الشعر العربي وصيرته زخارف لفظية وعبثا بالالفاظ ، وأفرغته من كل أصالة وتجديد وابتكار ، بل وأحيانا من كل مضمون إنساني فكرياً كان أو عاطفياً ، وفي هذا ما يفسر تحمسه لشعر المهجريين الذي سماه بالشعر المهموس وأثار بسبب هذه الحماسة غضب الشعراء التقليديين .

وفي مرحلة حياته العامة يظهر تأثره بالمؤرخ اليوناني القديم « توسيديد » الذي ترجم له في مجلة الثقافة خطبته الرائعة في تأبين موتى حرب « البيلبونيز » وحلل فيها الديمقراطية الأثينية وأسسها الفلسفية والروحية الجليلة . كما تأثر بأصحاب المذاهب الاشتراكية الذين كان قد قرأ لهم أثناء إعداده للعلوم الاقتصاد السياسي في جامعة باريس ، وبخاصة « سان سيمون » صاحب نظرية « لكل حسب كفايته ولكل كفاية حسب إنتاجها » .

وخاض الدكتور معارك أدبية كثيرة ، ومن ساجلهم أستاذنا الكرملي

والعقاد ورشاد رشدى والدكتور محمد أحمد خلف الله ، وللدكتور منـدور أسلوبه المتميز المستقل حتى لقد كان فى بدء عودته من فرنسا يفكر فيما يبدو باللغة الفرنسية ، ويترجم هذه الأفكار فى عملية مزدوجة إلى اللغة العربيـة ، مما أكسب هذا الأسلوب جدة وأصالة ونفاذا .

وهو يعتبر المازنى من خير كتابنا المعاصرين إن لم يكن فى قمتهم ، كما يعتبر مطران الرائد الحقيقى لتجديد الشعر فى الشرق العربى ، ويحمل إعجابا خاصا بالكاتب المهجرى الكبير ميخائيل نعيمة الذى تأثر منذ نشأته الاولى بكتابة « الغربال » كما قاده كتاب « بلاغة العرب فى القرن العشرين » إلى شعراء المهجر وشعرهم المهموس الذى تحمس له حماسة بالغة وأطلق عليه عبارة « الشعر المهموس » التى تعتبر جديدة فى نقدنا المعاصر .

— ٢ —

وللدكتور مندور مؤلفات عديدة تحمل طابعه الفكرى والأدبى والتقدمى وتنم عن أصالة وابتكار وتجديد وموهبة عميقة متميزة ، ومن بينها :

١ — دفاع عن الأدب طبع سنة ١٩٤٣ وهو لجورج ديهامل ـ ترجمة وتعليقات .

٢ — من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث ، طبع سنة ١٩٤٤ ، ترجمة لأربعة من أساتذة السوربون .

٣ ـ نماذج بشرية ـ نشر سنة ١٩٤٥ ، وكتبت مقدمته زوجته الشاعرة ملك عبد العزيز .

٤ — النقد المنهجى عند العرب ـ طبع سنة ١٩٤٦

٥ ـ فى الميزان الجديد ـ نشر سنة ١٩٤٥

٦ ـ منهج البحث فى اللغة والأدب ـ ظهر سنة ١٩٤٦ عن دار العلم للملايين ترجمة من لانسون ومييه .

٧ ـ تاريخ إعلان حقوق الانسان : ترجمة لألبيرباييه ، وطبع سنة ١٩٤٨

٨ ـ فى الأدب والنقد ـ نشر سنة ١٩٤٩

٩ ـ مسرحيات شوقى ـ طبع سنة ١٩٥٤

١٠ ـ إبراهيم المازنى ـ ظهر سنة ١٩٥٤

١١ ـ خليل مطران ـ طبع سنة ١٩٥٤

١٢ ـ الشعر المصرى بعد شوقى ـ ظهر سنة ١٩٥٥ .

١٣ ـ الأدب ومذاهبه ـ نشر سنة ١٩٥٥

١٤ ـ ولى الدين يكن ـ طبع سنة ١٩٥٦

١٥ ـ إسماعيل صبرى ـ طبع سنة ١٩٥٦ . وهو والكتب الستة الأخيرة نشرها معهد الدراسات العالية التابع لجامعة الدول العربية .

١٦ ـ ترجمة مدام بوفارى لفلوبير ـ طبع سنة ١٩٥٧ (من مطبوعات كتابى) .

١٧ ـ وللدكتور كتاب مخطوط بالفرنسية عن « أوزان الشعر العربى » التى حللها بعد تسجيلها بآلة الكيموجراف (مسجل الموجات) وحللها إلى عناصرها الموسيقية المختلفة .. وقد نشر نتائج هـذا البحث فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٣

وقد زار معظم البلاد العربية والغربية . وزار روسيا ورومانيا فى شهرى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٥٦ رئيسا لوفد الادباء المصريين ، وزار قبل وفاته الجزائر وليبيا .

حصل على الليسانس فى الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٢٩ ودرس بالخارج فى بعثة الجامعة المصرية إلى جامعة باريس : من سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٩ حيث درس فى السربون اليونانية القديمة والفرنسية وآدابهما وفقه اللغة الفرنسيه ودبلوم معهد الاصوات ، ودرس فى كلية الحقوق وحصل منها على الدبلوم العالى فى الاقتصاد السياسى والتشريع المالى .

ونال درجة الدكتوراه فى الادب العربى من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ عن « النقد المنهجى عند العرب » .

ومقدمة كتابة « فى الميزان الجديد » تفسر اتجاهه الذهنى فى ميدان الكفاح من أجل الأدب، وهو اتجاه عمل لأجله الدكتور وتأثر به فى حياته العملية ، ولكنه بعد هذه المرحلة عنى فى الأدب والنقد بالمضمون الأدبى أكثر من عنايته بشىء آخر ، يقول الدكتور : « منذ عودتى من أوروبا أخذت أفكر فى الطريقة التى نستطيع بها أن ندخل الأدب العربى المعاصر فى تيار الآداب العالمية وذلك من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته على السواء . ولقد كنت أومن بأن المنهج الفرنسى فى معالجة الادب هو أدق المناهج وأفعلها فى النفس . وأساس ذلك المنهج هو ما يسمونه « تفسير النصوص » . فالتعليم فى فرنسا يقوم فى جميع درجاته على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها ، وفى أثناء ذلك يتناول الاساتذة النظريات العامة والمبادىء الأدبيـــة واللغوية بالعرض عرضا

تطبيقاً تؤيده النصوص التي يشرحونها . والجامعات الفرنسية لا تلقى بها محاضرات ولا دروس عن العلوم النظرية التي تتصل بالادب ، فلا نحو ولا بلاغة ولا نقد، بل ولا تاريخ أدب فرنسي ، وإنما يعالج كل ذلك أثناء شرح النصوص ، ومن هنا قلما نجد في اللغة الفرنسية كتابا في النقد الادبي النظري على ما نجد في اللغة الإنجليزية مثلا .

هذا المنهج التطبيقي هو الذي استقر عليه رأيي وإن كنت قد نظرت إلى ظروفنا الخاصة وحاجتنا إلى التوجيهات العامة ، فحرصت على بسط النظريات العامة خلال التطبيق، كما اعتمدت على الموازنات لإيضاح الفروق التي لا تزال قائمة بين أدبنا وأدب الغرب ، وهـــذا ما أرجو أن يجده القارئ في الجزء الخاص بالادب المصري المعاصر من هذ الكتاب ، حيث لم أكتف بنقد روايات أو دواوين الحكيم وبشر فارس وعلى محمود طه ومحمود تيمور وطه حسين ، بل عالجت في كل حديث مسألة عامة كالاساطير واتخاذها مادة الشعر أو القصص ، وفن الاسلوب والادب الواقعي ، ومشاكلة الواقع في القصة وما إلى ذلك . وفي كل حـــــديث قدرت قيمة ما نفعله وما يفعله الاوربيون في غير مجاملة ولا تحامل .

ولقد أثارت تلك المقالات ردوداً وأحاديث . وأحسست أننا سننزلق إلى المناقشات العامة التي يصعب تحديدها في مجال الادب ، فلم أر بداً من أن أوضح اتجاهي العام بنقد بعض النصوص نقداً موضعياً أحاول أن اضع فيه يد القارئ على ما أحس من مواضع الجمال والقبح ، ووقع اختياري على بعض قصائد وكتابات لادباء المهجر ، وأحسست في أدبهم من الصدق على والالفة ما وقع في نفسي موقع الاسرار التي يتهامس بها الناس ، وأكثر

الظن أن الكذب فى التهامس أقل بكثير منه فى الجهر ، ولربما كانت هذه الحقيقة النفسية هى السبب الأول فى تسميتى لهذا الأدب بالأدب المهموس .
ولقد تساءل نفر من الأدباء عن سر إعجابى بهذا الادب وافترضوا الفروض التى قد يقبل الذوق السليم بعضها بينما يأبى البعض الآخر . ولقد سجلت بعضاً من أصداء هذه المناقشات فى ذلك الجزء من الكتاب وذلك لما نفثت فيها من حرارة الإيمان ، ثم لأنها تقمم آرائى وتوضحها بما تعالج من مسائل عامة .

وفى أثناء دراستى لتلك النصوص — التى تحدثت عنها وعن غيرها مما تناولت بحكم عملى فى الجامعة مدرسا للأدب — أخذ يتكون فى نفسى منهج عام للنقد . ولقد ركزت هذا المنهج فى جزئين من هذا الكتاب يجدهما القارئ فى الفهرست تحت عنوان : مناهج النقد وتطبيقها على أبى العلاء ، المعرفة والنقد — المنهج الفقهى ، وباستطاعة القارئ أن يلاحظ أنه منهج ذوقى تأثرى وذلك على تحديد لمعانى تلك الالفاظ ، فالذوق ليس معناه النزوات التحكمية ، وجانب كبير منه — كما وضحت فى مقالى عن الادب ومناهج النقد — ماهو إلا رواسب عقلية وشعورية نستطيع إبرازها إلى الضوء وتعليلها ، وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التى تصح لدى الغير ، وإن كنت لا أنكر أنه ستبقى فى نهاية الأمر أشياء من الشاق أن نحمل الغير على الإحساس بها ولقد سبقنى إلى تقرير ذلك كبار نقاد العرب أنفسهم كالآمدى والجرجانى على نحو ما يرى القارئ فى مقالاتى عن المعرفة والنقد .

ثم إننى وإن كنت أؤمن بأنه ليست هناك معرفة تغنى عن الذوق

التأثرى ، إلا أننى مع ذلك أحرص على أن يكون الذوق مستنيراً ، وفى هذا المجال مجال الاستنارة أميز بين نوعين من المعرفة : فهناك المعرفة الادبية اللغوية وهذه هى الاساس ، فقراءة مؤلفات كبار الشعراء والكتاب هى السبيل إلى تكوين ملكة الادب فى النفوس وليست هناك سبيل غيرها ، وذلك على أن تكون قراءة درس وفهم وتذوق ، وأما مادون ذلك من أنواع المعرفة كالدراسات النفسية والاجتماعية والاخلاقيـــــة والتاريخية وما إليها فهى وإن كانت عظيمة الفائدة وتثقف الاديب ثقافة عامة وتوسع آفاقه — إلا إنى لا أريد أن تطغى على دراستنا للادب كفن لغوى ، وأنا مؤمن بأنه من الواجب ان يستقل الادب بمنهجه عن غيره من العلوم ، وانه من الخطر ان يطبق علية منهج اى علم آخر ، أو أن يأخذ بالنظريات الشكلية التى يقول بها العلماء فى الميادين الاخرى .

الدكتور محمد السعدى فرهود

شخصية كبيرة من نقادنا المعاصرين كتب فى النقد العديد من المؤلفات، ودرس شكرى دراسة نقدية جديدة على الأدب العربى، وكتب عن ابن زيدون وعن العديد من أعلامنا بروح الناقد المبدع .

وقد ولد بمدينة الزرقا بمحافظة دمياط ، وحصل على الابتدائية الأزهرية من معهد دمياط سنة ١٩٣٩ وعلى الثانوية من معهد الزقازيق الأزهرى سنة ١٩٤٤ وتخرج فى كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٨ وحصل على دبلوم من معهد التربية العالى للمعلمين سنة ١٩٥٠ ودبلوم الدراسات العليا للمعلمين سنة ١٩٥٤ ودورة الصحافة المدرسيه سنة ١٩٥٦ ودبلوم معهد الدراسات العربية العالية فى الدراسات الأدبية واللغوية سنة ١٩٥٦ م ، والماجستير بتقدير ممتاز فى الدراسات الأدبية سنة ١٩٥٨ والدكتوراه فى الأدب العربى الحديث سنة ١٩٦٧ بمرتبة الشرف الأولى .

وبدأ وظيفته مدرسا بمدرسة سوهاج الثانوية سنة ١٩٥٠ ثم اختير للتدريس بالمدارس النموذجية سنة ١٩٥٤ وهو أول مدرس للغة العربية بالمدرسة الثانوية النموذجية للمتفوقين سنتى ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ .

وشغل عدة وظائف أخرى منذ سنة ١٩٥٧ منها :

١ ـ عضو فنى وباحث بإدارة البحوث الفنية والمشروعات بوزارة التربية والتعليم « ١٩٥٧ » .

٢ ـ عضو فنى ووكيل إدارة قسم آسيا بالسكرتارية الفنية للجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية بوزارة التعليم العالى « ١٩٥٩ » .

٣ — مدير مساعد المركز الثقافى العربى بالرباط بالمملكة المغربية «١٩٦٠» .

٤ — مدير إدارة الخطة بوزارة العلاقات الثقافية الخارجية « ١٩٦٤ » .

٥ — مستشار بوزارة الإرشاد القومى « ١٩٦٦ » .

٦ — عضو مكتب وزير الدولة لشئون الأزهر « ١٩٦٦ » .

٧ — وانضم إلى هيئة التدريس فى قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ثم رقى أستاذاً للأدب والنقد فى التاسع من مارس سنة ١٩٧٧ م .

٨ — واختير وكيلا لكلية اللغة العربية بأسيوط سنة ١٩٧٣ ووكيلا فعميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة سنة ١٩٧٦ حيث شارك فى انشائهما ووضع أسس العمل بالكليات الإقليمية الناهضة بجامعة الأزهر .

٩ — انتدب فى سبتمبر سنة ١٩٧٩ وكيلا لجامعة الأزهر للدراسات العليا والبحوث . وفى أغسطس سنة ١٩٨٠ عين نائبا لرئيس الجامعة لشئون الدراسة والتعليم والطلاب .

١٠ — عين وكيلا للأزهر — بدرجة وزير — فى ١٩٨١/١٢/١٦ وهو أول وكيل للأزهر يعين بهذه الدرجة .

١١ — عين رئيسا لجامعة الأزهر فى أول سبتمبر ١٩٨٣ .

والدكتور السعدى :

— عضو المجلس الاعلى للجامعات بمصر .

— عضو مجمع البحوث الإسلامية .

— عضو مجلس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

- عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- نائب رئيس رابطة الجامعات الإسلامية .
- عضو المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى .
- عضو المجلس القومى للثقافة والآداب والفنون .
- عضو مجلس إتحاد الأذاعة والتليفزيون بمصر .
- رئيس اللجنة الدينية باتحاد الأذاعة والتليفزيون .
- رئيس مجلس إدارة بالمركز الدولى الإسلامى للبحـوث السكانية بجامعة الأزهر .
- رئيس مجلس إدارة مركز صالح عبد الله كامل للدراسات والبحوث الاقتصادية بجامعة الأزهر .
- أشرف على أكثر من ٦٠ رسالة ماجستير ودكتوراه ، وناقش أكثر من مائة وخمسين رسالة جامعية فى الدراسات الأدبية والدينية والتربوية .
- أستاذ غير متفرغ بكلية اللغة العربية بالمنصورة للاشراف على الدراسات العليا بها منذ تعيينه وكيلا للأزهر .
- مقرر اللجنة العلمية الدائمة للترقية إلى وظائف الاساتذة بجامعة الأزهر
- بدأ منذ أول يناير سنة ١٩٨٣ تفسير القرآن الكريم فى برنامج يومى باذاعة القرآن الكريم من القاهرة تحت عنـوان (على هامش التلاوة) والبرنامج مستمر .

مؤلفاته :

- له عدة مؤلفات فى الدراسات الإسلامية والأدبية والنقدية منها :

فى البيان القرآنى : (١) تفسير سورة الرعد (٢) تفسير سورة إبراهيم

في البيان النبوى : (١) التعريف بالحديث الشريف (٢) فى رحاب الهدى النبوى (٣) الهداية السعدية شرح الأربعين النووية .

فى الدراسات الأدبية : (١) ابن زيدون وشعره (٢) الوصف فى شعر المتنبى (٣) الاتجاهات الفنية فى شعر عبد الرحمن شكرى (٤) التيار الفكرى فى شعر شكرى (٥) التيار الاجتماعى فى شعر شكرى (٦) النديم الأديب (٧) النبع الصافى (٨) الكوثر العذب .

فى الدراسات النقدية : (١) اتجاهات النقد الأدبى العربى (٢) قضايا النقد الأدبى (٣) المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق (٤) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب .

فى الدراسات البلاغية : (١) أسرار البلاغة فى التشبيه والتمثيل (٢) مبحث التقديم فى دلائل الإعجاز (٣) العبارة وتأليفها بين كتابى نقد النثر والبرهان .

فى الدراسات اللغوية : (١) فن القريض (٢) من أدب الكاتب .

وقد حصل الدكتور فرهود على وسام الآداب والفنون من الطبقة الأولى وزار كثيرا من الدول العربية والإسلامية والغربية ، وحضر العديد من المؤتمرات الثقافية والأدبية والإسلامية ، وشارك فى توجيه الثقافة فى مصر وفى البلاد العربية مشاركة فعالة . .

وآراؤه النقدية كثيرة ، ويدعو إلى النقد اللغوى التأثرى، وإلى المذهب الجمالى فى النقد ، وهو المذهب الذى طبقه عبد القاهر الجرجانى .

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

١٩٠٢ — ١٩٨٣

من رواد النقد العربى الحديث وأعلامه وكتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » يضعه فى أعلى مكان فى النقد الأدبى .. إلى كتبه النقدية الأخرى من مثل : النقد الأدبى من خلالى تجاربى وغيره .

وقد تحدثت عن السحرتى فى قسم الشعر أثناء حديثى عن مدرسة أبولو الشعرية ، مما يجعل من التكرار أن أتحدث عنه هنا فى هذا الفصل .. فلأدع ذلك إلى بحث آخر .

وقد صدر من كتاب « الشعر المعاصر » طبعة جديدة عن دار تهامة بجدة بتقديم الناقد الكبير الاستاذ الاديب السعودى عبد الله عبد الجبار .

وصدرله بعد وفاته كتاب جديد بعنوان « الأصالة الأدبية »

د . عبـــد العزيز شرف

أعمال الدكتور عبد العزيز شرف النقدية التي تحدثنا عنها في قسم الشعر أعمال متميزة ، ترفعه إلى منزلة عالية في النقد .

ودراسته للهمشري تعـــد من أروع الأعمال النقدية في الأدب الحديث . .

ومقالاته النقدية التي ينشرها في الصفحة الادبية في الاهرام وفي الصحف والمجلات المصرية والعربية ، تمثل فكرا نقديا رفيعا حريا بالدراسة والتأمل

وإني لأرجىء الحديث عنه ناقدا بتفصيل... إلى بحث آخر بإذن الله .

د. محمد عبد المنعم خفاجى

فى قسم الشعر تحـــدثت عن الـكتب والدراسات النقدية التى كتبها ، وتحدثت عن منهجه فى النقدفى كتبه.. ومن أهم ما ألفه فى النقد : أصول النقد ، والفـكر النقدى والأدبى فى القرن الرابـع ، ومـذاهب الأدب ، والنقد العربى الحديث ومذاهبه ، وفصول فى النقد . ودراسات فى النقد الأدبى ... وغيرها .

ومن ثم أرجى الحديث بتفصل عن ذلك كله إلى موضع آخر .

* * *

كامل كيلانى

رائد أدب الطفـــل

١٨٩٧ - ١٩٥٩

- ١ -

كان كامل كيلانى — رحمه الله — طاقة فريدة، وجملة مواهب فى موهبة، ورائدا من رواد الأدب الحديث فى مصر والعالم العربى، وكان له شخصيته القوية فى الفكر المصرى على مدى ثلث قرن من الزمان، سبق وفاته، فهو أديب وشاعر وناقد، وقصاص، ومؤلف، ومحقق للتراث، ورائد لأدب الأطفال فى اللغة العربية، وهو قبل ذلك وبعد ذلك كله راوية، ومحاضر، ومسامر ونديم، وهو من أروع النماذج التى ليس لها مثيل فى حياتنا الأدبية على أمتداد عصور طويلة.

فى عام ١٩٣٦ فى ضحى يوم من أيام الشتاء، كنت فى زيادة للوزير الأباظى، إبراهيم دسوقى أباظة، فى منزله، فى شارع إسماعيل باشا أباظة فى السيدة زينب، ودلفت إلى حجرة الاستقبال، فوجدت أديبنا الكبير كامل كيلانى جالساً مع صاحب المنزل. وتشعب الحديث، ووردت أثناء كلمة (فقرة)، واختلفنا فى الفاء: مفتوحة أم مكسورة.. فالأباظى يرى فيها الفتح، وشيخنا الكيلانى يرى الكسر، وأنا أرى فيها الاثنين، الفتح والكسر. وما لبث الكيلانى أن قام إلى الهاتف، وطلب منزله، وقال لهم: اكشفوا لى فى لسان العرب على كلمة (فقرة)، وقولوا لى رأى ابن منظور فى الفاء.

وفى ليلة من ليالى شتاء عام ١٩٥٧ سهرنا سهرة طويلة فى منزل الأديب السعودى الشيخ محمد خليل عنانى فى الهرم ، وجاء الوزير السعودى الشيخ محمد سرور الصبان ، وبعد لحظات جاء شيخنا الجليل كامل كيلانى ، ثم قدم بعده الشاعر محمد مصطفى حمام ، وكانت ندوة ، سمر ، وحديث عن الأدب والشعر والنقد ، وكان كامل كيلانى فى الندوة كأنه الأصمعى فى مجلس الرشيد ، تألق فكر ، وحضور بديهة ، وسعة رواية ، وعذوبة لسان ، ويقظة جنان ، وكان رائعا فى تشعب فنون الحديث والرواية . وكان حمام المعظم بجواره كأنه لميذ فى درس الأستاذ ، يتألق ، ولكن دون تألق الكيلانى الجبار . .

وفى المعادى فى قصر الشيخ الصبان الفخم فى أمسية من أمسيات ربيع عام ١٩٥٨ ، انعقدت ندوة للأدب من شهودها أحمد حلمى باشا رئيس حكومة عموم فلسطين آنذاك ، والشيخ المضيف ، وحمام ، الكيلانى ، والحومانى محمد على — وكنت أنا وأصدقائى : الأديب السعودى عبدالله عبدالجبار ، والشاعر السعودى إبراهيم الفلالى ، والشاعر السعودى حمزة شحاته ، والشاعر السعودى محمد سعيد بابصيل ، والكاتب السعودى عبدالله خطيب ، والأديب السعودى الكبير الشيخ محمد خليل عنانى ، وسواهم . ودارت الندوة ، وتشعب الحديث من الأدب إلى الشعر والنقد ، وكان الكيلانى يمثل الثقل الكبير فيها ، بعظم روايته ، وكأنه شاعر خليفة ، أو نديم ملك .

وبحسبكم أنه إذا تحدث الكيلانى ، أرهفت الآذان ، وذهل الإنسان ، لهذا البلبل الصداح ، الذى يتحدث ولو استمر حديثه إلى الصباح ، وكأنه

يغنى ، ويقول وكأنه ينظم الدر أو يصنع السحر ، وقـــال فى حديثه ما تشاء . .

ومرت الأيام ، وقرأنا نعى الكيلانى ، وشعرنا بفداحة الخطب فيــه ، ولم نملك ولا يملك أحد ، إلا استعادة الذكرى فى هذا الباقعة العبقرى ، الذى طالما هز المشاعر والعقول والأرواح .

من أين كان للكيلانى كل هذا السحر . وكيف تأتى له أن يصعد فى دنيا الأدب والشعر والفكر ، إلى مثل هذه الذروة الرفيعة السامقة .

إن ثقافة الكيلانى الواسعة ، وقراءته الطويلة ، والمامه الكبير بالتراث ، وحرصه الشديد عليه ، وعنايته الأكيدة به . . كل ذلك — مع مواهبه العديدة ، جعله يحتل مكانه العالى بين أدباء عصره . وبين شيوخ الرواد من جيــله . .

يروى الأستاذ عبد الرحيم محمد عبد الرحيم فى رسالته التي أعــدها عن كامل كيلانى نقــلا عن كتاب نقيب الأدباء ومنشىء الجيــل محمد صادق عنبر الذى صدر عام ١٩٣٥ ، أن مفتش اللغة العربية محمد شرف سليم زار مدرسة أم عباس الابتدائية بالقاهرة ، ودخل بعض فصول السنة الثالثة ، وسأل الطلبة ، فنهض فتى نحيــل الجسم ، قصير القامة ، اسمه كامل إبراهيم الكيلانى ، وأخذ يجيب على أسئلة الزائر بطلاقة وفهم ، ويرتجل الشعر أمامه ارتجالا ، فاختبروه فى محفوظاته ، حيث تأكد له أن هذا التلميذ الصغير يحفظ ألفى بيت من الشعر ، إلى ألفية ابن مالك فى النحو . . فاعترته

الدهشة . وكتب عنه فى تقريره الذى رفعه عن المدرسة ، يبدى إعجابه الشديد .

- ٢ -

ولد كامل كيلانى فى حى القلعة فى العشرين من أكتوبر عام ١٨٩٧ ، وتوفى فى التاسع من أكتوبر عام ١٩٥٩ عن اثنين وستين عاما . والتحق بمدرسة أم عباس الابتدائية عام ١٩٠٧ وهو فى العاشرة من عمره . ثم دخل مدرسة القاهرة الثانوية ، وظل فيها أربع سنوات ، وحصل بعدها على شهادة البكالوريا ، وذلك عام ١٩١٥ .

وفى عام ١٩١٧ التحق بالجامعة المصرية الأهلية القديمة . وفى ثورة ١٩١٩ وقف قلمه بل ولسانه وبيانه على وطنه وشعبه ، فكان له فى كل يوم قصيدة ، وفى كل مناسبة خطبة وطنية فى حى القلعة و يثير فيها الجماهير ، ويؤجج عواطفهم ومشاعرهم الوطنية للعمل من أجل حرية مصر . ونقلته الوزارة إلى مدرسة الأقباط الثانوية فى دمنهور . وفى عام ١٩٢٢ ترك التدريس إلى وظيفة بوزارة الأوقاف ، حيث كان فيها صفوة من المفكرين والأدباء ، والشعراء ، من بينهم : محمد المويلحى ، وعبد العزيز البشرى ، والعقاد ، والماحى ، وعلى شوقى ، وسواهم .

وفى العام نفسه أخرج صحيفة أدبية باسم (الرجاء) .

وفى عام ١٩٢٤ ألف كتابه « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، وتوالت بعد ذلك مؤلفاته : مصارع الخلفاء — مصارع الأعيان ـ ذكريات الأقطار الشقيقة — موازين النقد الأدبى ـ وغيرها .

وترجم كتاب دورز « ملوك الطوائف » .

ثم اتجه إلى التراث ، فأخرج مختارات من شعر : ابن الرومى ، ومن شعر ابن زيدون .

واستهواه أبو العلاء . وأولع به ولعا شديداً حتى كان يقول عنه : إن أبا العـلاء صديقى بل أستاذى ، وصار الأدب العلائى ركنا كبيرا من أركان ثقافة الـكيلانى . وهكذا أخرج المـكتبة العلائية ، ومنها حديقة أبى العلاء ـ وعلى هامش الغفران ـ ونشر رسالة الغفران وبعض رسائل المعرى الأخرى : وظل أبو العلاء صديقه مدى الحياة .

ثم اتجـه إلى الأدب ، فـكتب فيه حتى قبيل وفاته نحو ألف قصة ومسرحية ، ما بين مؤلفة ومقتبسة ومترجمة ، واختار فيها من أدب شكسبير ومن المأثورات عن جحا ، ومن القصص الهندى ومن الأساطير العالمية ،ومن ألف ليلة وليلة ، ومن أفـكار ابن طفيل فى قصة (حى بن يقظان) ، ومن سوى ذلك العديد من القصص والقصائد والمسرحيات وكتب هو والدكتور العالم المصرى (على مصطفى مشرفة) كتاب « الأغانى العالمية » الذى تضمن خمسا وستين أغنية مع تدوينها الموسيقى .

— ٣ —

وهكذا كتب وترجم للادباء . وجال بقامه فى كل مجال من نواحى الفـكر والثقافة والحياة .

وعاش يدعو إلى التعمق من التراث ، وإلى الفصحى ، وكان

يقول : إننى أحارب العامية ، التى يدعون إليها ، حرب البنا الذى يصنع التاريخ .

وفى كتابه « صور من الشرق والغرب » الذى لم ينشر حتى اليوم يذكر ١٨٠٠ صورة من الآداب الغربية مع ما يقابلها من الأدب العربى ، ومن هذه الصور خمس وعشرون صورة من الأدب العربى ليس لها نظير فى مختلف الآداب العالمية . .

وهكذا كان الكيلانى أديبا وناقدا وقصاصا وشاعرا ، ورائد الأدب الأطفال ، ومحققا للتراث ، ومترجما . وكان مطلعا وملما بثقافات الشرق والغرب وأسهم فى كل نشاط ثقافى وأدبى فى بلده على مدى ثلث قرن سبق وفاته .

ولكنه عاش فى صومعته زاهــدا فى الشهرة . . يأنف أن يسترضى الجماهير ، ويعزف عن الجاه والمناصب وعن طلب الجزاء من أحد ، وكان يردد قوله :

أبدعت فاحتمل المكاره صابرا إن الشقاء الحق أجر المبــدع

وكتب عنه عبد الغنى بدوى كتابه (كامل كيلانى الرائد العربى لأدب الأطفال) ، كما أخرج صادق عنبر عنه عام ١٩٣٥ كتابه (نقيب الادباء ومنشىء الجيل كامل كيلانى) - وبعد وفاته أصدر ابنه الأستاذ رشاد الكيلانى كتابه (حفلات التأبين) - وأخرج الأستاذ أنور الجندى كتابه (كامل كيلانى فى مرآة التاريخ) .

ولقد أسس الكيلانى مع الدكتور أحمد زكى أبو شادى رابطة الأدب الجديد عام ١٩٢٩ ، حيث ظلت ثلاثة أعوام ، ثم اشترك فى جماعة أبولو التى أسسها د . أبو شادى عام ١٩٣٣ .

وكان أبو شادى يقول له :

قل يا أوفى الكاتبين فأنت من   يلقى بكل طريفة مشغولا
صور لنا الماضى تزد أعمارنا   عمراً ، وتثمرنا الحياة الأولى

وعاش الكيلانى كالنحلة الدؤوب ، لا يمل القراءة ، ولا يسأم الكتابة ولا الكتاب ، ولا التأليف والإبداع .

وفى المستشفى فى مرضه الأخير نظم قصيدته :

إلى النور يممنا لأكرم غاية   وأنبل أهداف وقد صدق العزم
وحسبى من الدنيا قناعة مغنم   هى المجز فى حسبانهم وهى الغنم

وتوفى أبو شادى فى واشنطون عام ١٩٥٥ ، ولكن كيلانى سارت به الحياة بعده اربع سنوات طوالا ، لقى بعدها اجله ، ولاقى ربه راضيا مرضيا .

ولما مات اهتزت مصر واندبتها وادباؤها وشعراؤها هزة عنيفة واحس الناس جميعا فداحة الخطب فيه .

وهكذا سكت الصوت المدوى ، والقلم الثائر .

مات كامل كيلانى ، ليبقى حيا فى ضمير الأجيال ، وفى قلب شعبه وامته . وفى عالم الأدب والفكر على مرور الأيام .

الآداب العربيـــة

فى الوطن العربى

الأدب فى الجـــزائر

ترجع نهضة الأدب فى الجزائر إلى الأصول التراثية والعربية والأدبية للشعب الجزائرى . وقد نمت معركة الحرية والنضال في سبيل الاستقلال كل نبضة من نبضات هذه النهضة الجادة الدؤوب منذ فجر الاستقلال عام ١٩٦٢ .

وكان للأمير عبد القادر الجزائرى فضل المبادرة إلى مقاومة الاستعمار الفرنسى فى بلاده مقاومة رائعة .

كان لجهود الإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٨٧ - ١٩٤٠) فى المحافظة على أصالة الشعب الجزائرى وعروبته ولغته العربية ، وعلى عقيدته الإسلامية ، أثر كبير فى الحركة الأدبية فى الجزائر .

وضاعف من ذلك الأثر قيام ابن باديس بالتعاون مع الشيخ محمد البشير الأبراهيمى (١٨٨٩ - ١٩٦٥) بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادى الترقى بالجزائر فى ٥ مايو عام ١٩٣١ ، وبإصدار جريدة المنتقد ، ثم الشهاب ، ثم البصائر الأولى (عام ١٩٣٥) .

ولما توفى الإمام ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين فى ١٦ ابريل ١٩٤٠ نهض بالعبء بعده نائبه الشيخ محمد البشير الأبراهيمى ، وقد اصدر من جديد جريدة البصائر . . وظل يكافح من اجل عروبة الجزائر وإسلامه وحريته طويلا . حتى قامت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤ ، وهى الثورة التى استمرت ثمانى سنوات نالت بعدها الجزائر حريتها واستقلالها .

وأخذ الشعب يبني نفسه من جديد في كل ميدان بعد استعمار فرنسي طويل أمدا طويلا (١٨٣٠ — ١٩٦٢) .

وكان ابن باديس والأبراهيمي ، من أصحاب المواهب الأدبية الممتازة والملكات العربية الأصيلة ، فكان أسلوبهم نموذجاً فريداً يربي الشعب على حب العربية وتذوق بلاغتها ، والإقبال على تراثها .

وفي مقالات هذين الإمامين الكبيرين وخطبهما ورسائلهما ، نجد الأسلوب الرصين ، والبلاغة الساحرة ، والبيان الرفيع .

وكان الأبراهيمي أديباً ممتازاً ، خطيباً مفوهاً ، وبليغاً ساحر الأسلوب ، رصين العبارة ، قوي الصياغة .

وكذلك كان أحمد رضا حوحو (١٩١١ – ١٩٥٦) أديباً مبدعاً أصيلا ، وكان رائداً للقصة في الأدب الجزائري .

وفي الشعر ظهر مفدي بن زكريا وهو شاعر الثورة الجزائرية الكبير ، وكانت قصائده أناشيد وطنية للثوار الجزائريين الأحرار . وظهر أدب المقاومة في الشعر الجزائري ، وحمل الشعراء لواء النضال في كل ميدان ، ونهض الأدب والشعر والنقد ، وظهر أعلام كثيرون في كل مجال من مجالات الأدب والنقد والشعر[1] .

---

(١) راجع : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (١٩٢٥ - ١٩٥٤) للدكتور عبد الملك مرتاض – تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار ، وهما نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ؛ شعراء الجزائر في العصر الحاضر للسنوسي ، تونس ١٩٢٦ .

محمد البشير الابراهيمى

١٤ يونيو ١٨٨٩ – ١٦ أبريل ١٩٦٥

— ١ —

من أبطال النضال الوطنى فى الجزائر وأعلام الفكر والأدب الإسلامى المعاصر . . .

ولقد كان الشيخ الابراهيمى عبقرية رائعة حقاً ، ومفخرة قومية صدقاً ، تمثلها حياة حافلة ، وتاريخ مضىء مملوء بالبطولة والإيثار والتضحية .

وقد عاش عصره بكل ذرة من جوارحه ، وبكل ما حفل به العصر من مواقف وأفكار وتحولات .

عرفته — رحمه الله — فى القاهرة ، حيث كان يحضر كل اللقاءات والمنتديات الإسلامية والعربية والفكرية ، يشارك فى أعمالها ، ويجاهد مع رجالها ، فى كل موقف نبيل ، ومعترك جليل وذلك منذ عام ١٩٥٢ ، وعلى امتداد عشرة أعوام كاملة .

لقيته فى مجلس الأديب والمفكر السعودى محمد سرور الصبان ، فى منزله فى المعادى ثم فى شارع العروبة فى مصر الجديدة . وزرته فى منزله بالقرب منزل الشيخ الصبان ، وكانت لى معه لقاءات طويلة ، لا نفتأ نتحدث فيها عن الأدب والفكر والتراث والإسلام ومختلف قضايا الوطن الإسلامى والعربى الكبير . .

وعرفت فى الشيخ الإبراهيمى رجلا من طراز الأفغانى والامام محمد عبده

والامام عبد الحميد بن باديس ، يعيش لفكره ، ويؤمن بوطنه ، ويضحى من أجل عقيدته ، بكل ما يملك من نفس ونفيس .

عاش الشيخ فى عصر رهيب ، عصر الاستعمار الغربى للعالمين الاسلامى والعربى ، وعصر نضال الأحرار فى أنحاء وطننا فى سبيل الحرية والاستقلال ، وآمن مما كان يؤمن به الرواد الكبار فى الفكر الاسلامى المعاصر ، من أنه لا سبيل الى النجاة والحرية والكرامة والشرف ، إلا بتربية أجيال من الشباب على الالتزام ، وتحمل المسئولية والايمان بالله وبالوطن ، ليحملوا عبء الكفاح من أجل الأمانة الوطنية المقدسة ، التى أمرهم الله عز وجل بالوفاء بها ، وهى أمانة الحرية ودفع غائلة الاستعمار الصليبى عن العالم الاسلامى والعربى . .

وكانت خطة العمل الاسلامى والعربى ، التى سار عليها الأئمة الكبار الرواد فى مختلف أنحاء وطنهم متماثلة . . الامام محمد عبده يقول للأفغانى : لو أننا ذهبنا فى مجهل من مجاهل الأرض ، وربينا عشرة من الشباب المسلم على كل القيم العظيمة فى ديننا ، وقام كل واحد منهم بتربية عشرة آخرين ، لكان لنا فى مدى قليل جيل من رواد العمل الإسلامى . فى الوطن الكبير . .

والامامان ابن باديس والابراهيمى يسهران فى ليالى المدينة الوضاء ، بعد ذلك بربع قرن ليضعا لمسات العمل الوطنى الاسلامى لتحرير الجزائر من نير الاستعمار ، على أساس من التربية الاسلامية لأجيال الشباب الجزائرى الحر ، أصحاب الحق فى وطنهم العظيم الذى كان لويس الرابع عشر يكتب إلى حاكمه داى الجزائر ، فيعنون رسائله بقوله : إلى داى الجزائر —

جمهورية الجزائر ، وكان بونابرت يكتب إلى داى الجزائر فيقول : إلى السيد الأمجد الأعظم جداً داى مدينة الجزائر ومملكتها[1] .

وكان الشيخ البشير الابراهيمى من طراز هؤلاء الزعماء الاسلاميين الرواد المؤمنين بوطنهم وبربهم وبعروبتهم ، وعاش من أجل ذلك على الايثار والتضحية والاقدام والبذل والفداء . وكان جهاد الأمير عبد القادر الجزائرى من قبل يضيء الطريق أمامه — طريق النضال والعمل من أجل حرية الشعب الجزائرى العظيم .

— ٢ —

كان مولد البشير فى اسطيف فى الثالث عشر من شوال من عام ١٣٠٦ هـ - الرابع عشر من يونيو من عام ١٨٨٩ م، من أبوين كريمين ، ومن أسرة علية تنتمى إلى السادة الإشراف الأدارسة الخالدين . .

وتمر السنوات الأولى من حياته هادئة .

فلما بلغ السابعة سار فى طريقه فى حفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادىء علوم الشريعة والعربية على يدى عمه ، الشيخ محمد المكى الابراهيمى .

ولما بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وذلك عام ١٩٠٣م توفى عمه ، وخلفه البشير فى تدريس علوم الدين والعربية للشباب من طلاب العلم من أبناء بلدته والبلاد المجاورة لها ، يأخذون عنه علوم الدين واللغة العربية واستمر فى أداء ذلك الواجب الدينى والوطنى حتى بلغ العشرين من عمره الحافل . .

(١) ٤٤ و ٤٥ مجلة الثقافة الجزائرية العدد ٨٥ — يناير ١٩٨٥ من دراسة للاستاذ مولود قاسم .

وعندئذ تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ أسرته ، فقد هاجر والده عام ١٩٠٨ إلى مدينة رسول الله ، ﷺ ، فراراً من بطش الاستعمار وأذنا به ، وأقام بها . . وفى أواخر عام ١٩١١ لحق ابنه محمد البشير بأبيه . .

وفى طريقه إلى المدينة المنورة مر بالقاهرة ، ومكث بها ثلاثة شهور ، يحضر حلقات العلم فى الأزهر الشريف ويلتقى فيها بعلماء الازهر ، من أمثال الشيخ سليم البشرى والشيخ محمد بخيت المطيعى . والشيخ يوسف الدجوى كما التقى بالشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار ، وزار الشاعر أحمد شوقى ، والشاعر حافظ إبراهيم ، وغيرهما من أعلام الفكر المصرى آنذاك .

وفى المدينة المنورة أفاد من علم الشيخ العزيز الوزير التونسى المقيم فيها ، والشيخ حسين أحمد الفيض الابادى الهندى (— ١٩٦٠) ، الذى رأس فيما بعد جمعية العلماء بديو بند بعد عودته ، كما أفاد من علم الشيخ الشنقيطى وغيره ، على امتداد ستة أعوام

وفى أخريات هذه السنوات جلس الابراهيمى فى مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، يلقى بعض الدروس على طلاب العلم فى المسجد النبوى الشريف

ووفد عليه فى المدينة عام ١٩١٣ صديقه الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الذى مكث ثلاثة شهور فى المدينة المنورة ، يلتقيان ويسمران كل ليلة ، ويتداوسان طريق العمل من أجل تحرير أرض الوطن من أيدى غاصبيه ، وتخريج جيل كامل من الشباب ، ممن يؤمنون بربهم وبوطنهم ، كل ذلك وأفكار الامامين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده هى الرائد لهما فى طريق الإصلاح والبناء والتجديد والتحرير

ويعود ابن باديس (١٨٨٧ — ١٦ من أبريل عام ١٩٤٠) إلى الجزائر ، على أن يلحق به البشير بعد قليل ، ولكن الحرب العالمية الأولى تشب نارها ويرتفع أوارها وتقف العوائق حائلة بينه وبين العودة إلى الوطن

وما يلبث البشير أن يرى شرارة الثورة العربية الكبرى فى أرض الحجاز ، وتكثر المجاعة ، وتقل الأقوات فى المدينة وتأمر الحكومة بهجرة جميع سكان المدينة إلى دمشق فيهاجر الشيخ محمد البشير الابراهيمى وآله إليها ويقيم فيها ، وفيها يلتقى ببعض زعماء النضال الوطني العربى ، من مثل الشيخ محمد الخضر حسين التونسى ، وخير الدين الزركلى وخليل مردم ، ومن أمثال الشيخ بهجت البيطار وغيرهم ..

وهناك يختار الشيخ الابراهيمى مدرساً للآداب العربية بالمدرسة السلطانية الثانوية ، التي كان من تلامذته فيها أمثال : عدنان الأتاسى وجميل صليبا وغيرهما .

ويظل فى دمشق حتى عام ١٩٢٠ ، وعندئذ بدأ يعد العدة للعودة إلى أرض الوطن ، الذى وقفت الحرب العالمية الاولى فى طريق عودته إليه منذ قيامها عام ١٩١٤

وفى قسنطينة فى وطنه الجزائر يلتقى بزميل حياته وشبابه ، الشيخ ابن باديس ، ويرى مابدأ يصنعه ؛ من تأسيس المدارس والكتاتيب وبناء المساجد ، وتعليم الشباب الجزائرى علوم اللغة العربية والشريعة الاسلامية ومن إلقاء المحاضرات فى كل مكان ، وفرح البشير بذلك الفرح كله لانه رأى الوطن العريق يبدأ السير فى الطريق ، طريق الحرية والبناء والنهضة .

وسافر البشير إلى بلدته أسطيف ، وما لبث أن أخذ يحاضر فى كل مكان ، ويلقى الدروس فى كل مدينة ويسير فى الطريق الى سار فيها صديقه ابن باديس ، فأنشأ مدرسة صغيرة، وأخذ يدعو إلى بناء المدارس والمساجد ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وبعد فترة أخذ البشير وابن باديس يرتبان المسرح الوطنى فى بلادهما للمستقبل وأحداثه . وجاء عام ١٩٣١ م حيث مرت مائة عام على الاحتلال الفرنسى لأرض الوطن الجزائرى المجيد ، فأعلنا قيام جمعية العلماء المسلمين فى نادى الترقى بالجزائر . وذلك من أجل تطهير عقائد الاسلام من أوضار الضلال والابتداع وإبراز فضائل الاسلام وقيمه ومثالياته الرفيعة والبذل فى سبيل الدين والوطن ، ونسر الاخاء بين أفراد المجتمع كافة .

وكانت جمعية العلماء المسلمين قد تولى رياستها عبد الحميد بن باديس وانتخب الابراهيمى نائبا له وأصبحت ذات أثر بعيد فى حركة النضال الوطنى ضد الاحتلال الفرنسى . وكانت تمثل القيم الاصلية فى السلوك ، من أجل الحفاظ على التراث الجزائرى ، وعلى أن تظل العروبة هى السمة الأساسية للشعب ، والاسلام هو عقيدته ، وفى ظلال الاسلام والعروبة يمكن مواجهة محاولات المستعمر الغاصب لطمس معالم الشخصية الجزائرية لتبقى أرض الوطن عربية مسلمة . .

وقد كان الاستعمار يخطط لاخراج الجزائر عن العروبة والاسلام ، حتى يقول الكاردينال الفرنسى لافيجرى عام ١٨٦٧ : يجب أن نجعل من الجزائر مهدا لأمة مسيحية كريمة ، وان تغمر أرجاؤها بنور مدنية وحيها الانجيل ، وأن تربط مصير أفريقيا بحياة الشعوب المسيحية

وكان من رأى الامامين - ابن باديس والابراهيمى والعمل من أجل تخريج جيل قوى مؤمن بدينه وعروبته ، قادر على الكفاح فى سبيل تحرير الجزائر من نير الغاصبين المستعمرين ، يقول ابن باديس : إن الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ولا يمكن أن تكون هى فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد فى لغتها ، وفى دينها ، وفى أخلاقها وعنصرها ، ولا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود هو الوطن الجزائرى » ..

وينادى البشير بأن لا سبيل إلى فرنسة الجزائر ، لأن شعب الجزائر شعب عربى مسلم ، ولأنه عاش على أرضه سيدا حرا مبدعا للحضارة ، مؤمنا بالحرية ، عاملا على البناء والتقدم والازدهار ، داعيا إلى أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الجزائر وإلى أن يحافظ الشمال الافريقى على عقيدته وعروبته .

والهدف من دعوة الامامين : ابن باديس والابراهيمى فى جمعية العلماء المسلمين هو تركيز دعائم المحافظة على جوهر الاسلام ، وانتشال الشباب الجزائرى من وهدة التغريب والاندماج وتنظيم ، حملة كبيرة على الهدع والخرافات ، وهو التعليم العربى للاطفال والشباب ، وهو استقلال القضاء الأسلامى فى الأحوال الشخصية للاسرة المسلمة ، والمطالبة بأوقاف المسلمين وعدم تدخل الحكومة فى تعيين الموظفين الدينيين وهو نشدان الحرية والاستقلال لشعب الجزائر العربى المسلم

وفى عيد الحرية فى الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٣٩ يقف ابن باديس خطيبا فى الجماهير ويقول :

أيتها الحرية ، التي يتغنى بمفاتنك الشعراء ، وتسفك في سبيلك الدماء ،

أين أنت في هذا الوجود ؟

لقد كانت جمعية العلماء المسلمين علامة مضيئة في تاريخ الشعب الجزائري، وكانت بداية رائعة لحركة التحرير الوطني ، ومقدمة جميلة للثورة الجزائرية، الكبرى ، ثورة شعب المليون والنصف من الشهداء الأحرار الأبرار ، ويقول البشير : « إنها جاءت على عبوس من الدهر ، وتنكر من الأقوياء ، فنفخت من روح العروبة في تلك الأنساب ، فإذا هي صريحة وسكبت من سر البيان العربي في تلك الألسنة ، فإذا هي فصيحة . . . » . ويقول أيضا : « أننا لو سلكنا سبيلا غير السبل التي سلكناها في إيقاظ الأمة وتوجيهها لما قامت هذه الثورة الجارفة من الجزائر » .

وتقوم الحرب العالمية الثانية ، وتشب نيرانها وتندلع شرارتها ، ولا يتوقف نضال الإبراهيمي . . ويصدر في العاشر من مارس عام ١٩٤٠ رئيس وزراء فرنسا ، المسيو دلاديه أمرا بإبعاد البشير الإبراهيمي ونفيه إلى الصحراء الوهرانية ، إبعادا عسكريا ، وفي أثناء ذلك توفي المناضل الوطني الكبير الإمام ابن باديس في ١٦ أبريل من عام ١٩٤٠ ، وانتخب البشير من بعده رئيسا لجمعية العلماء المسلمين .

وكانت الجمعية تصدر جريدة البصائر لسان حال لها منذ عام ١٩٣٥ وكانت مقالات الابراهيمي فيها تحمل الأمل والبشرى للشعب الجزائري البطل العظيم ، وهذه المقالات هي التي صدرت في القاهرة بعد ذلك في كتاب « عيون البصائر » للابراهيمي .

وتنشىء الجمعية مئات المدارس والكتاتيب والمساجد ، بعون من الله ومن الشعب ، حتى بلغت جملة التلاميذ فيها عام ١٩٥٢ مئات الآلاف مابين بنين وبنات ، وجملة ميزانيتها فى ذلك العام نفسه مائة مليون فرنك ، وفى هذا العام نفسه عقدت الجمعية أول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية ، وفى عام ١٩٥٣ واصلت الجمعية تقدمها ونضالها ، وهو العام السابق لعام الثورة الجزائرية الكبرى التى قامت فى نوفمبر من عام ١٩٥٤ ، تطلب الحرية والاستقلال للوطن الجزائرى العظيم العريق .

— ٣ —

فى عام ١٩٥٢ كانت الثورة المصرية ، وكان البشير يتطلع ببصره إلى الشرق العربى ليؤيد كفاح شعب الجزائر ، وليعاون جمعية العلماء فى نضالها . . وكانت الجمعية تبذل كل طاقاتها من أجل أداء رسالتها ، والسير قدما فى سبيل تحقيق غايتها وخطتها ، وكان البشير ينادى دائما بأن مواطن العروبة متفرقة ، وأن السبيل إلى توحيدها هو الاسلام ولغة القرآن .

ومن حيث كان المستعمرون يعلنون أن الجزائر صارت مسيحية ، وأن لغتها هى الفرنسية ، كانت جمعية العلماء المسلمين بلسان رئيسها الابراهيمى تقول :

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب

وبفضل جمعية العلماء صارت الثقافة الاسلامية العربية هى الثقافة المميزة للشعب ، والقائدة له ، والبناءة العاملة لدعم كيانه وشخصيته : وكانت الجمعية بكل كفاحها ونضالها تمهد الطريق لقيام الثورة الجزائرية الكبرى على أرض الوطن .

وفى هذا العام رأى الابراهيمى أن يسافر إلى البلاد العربية ليفتح منافذ المدارس والجامعات العربية أمام الشباب الجزائرى ، الذى يتخرج من مدارس جمعية العلماء المسلمين ، وليسعى لدى الحكومات العربية لدعم الجمعية بالمال لتسير فى طريقها العظيم ومشروعاتها النبيلة الكبرى .

وفى مصر ألقى رحاله حيث أخذ يتصل بالمسئولين ، وبالجامعة العربية ، وبالهيئات الشعبية الاسلامية والعربية ، ويحضر اجتماعاتها ولقاءاتها ، ويعمل ما استطاع إلى ذلك سبيلا من أجل تأييد كل القوى لكفاح الشعب الجزائرى النبيل .

وهبت الثورة الجزائرية الكبرى فى نوفمبر من عام ١٩٥٤ .

وفى التاسع عشر مـن سبتمبر عـام ١٩٥٨ أعلنت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وفى الثامن عشر من مارس ١٩٦٢ تمت اتفاقيات افيان ، وقامت الدولة الجزائرية الكبرى ، وشقت طريقها إلى السيادة والتقدم والرخاء .

كل ذلك والبشير الابراهيمى فى مصر حينا ، وفى العالم العربى والاسلامى حينا آخر ، من أجل أهـدافه الكبيرة يعمل كسفير للثورة الجزائرية ، ولجمعية العلماء المسلمين ، ويرسل الأمـوال والسلاح للثورة والثائرين ، ليتحقق الأمل ، وليقوى الرجاء فى الوصول بسفينة الوطن إلى شاطىء الحرية والسلام .

وفى مصر اختير الشيخ البشير الابراهيمى عضوا فى جمعية الشبان المسلمين العالمية ، وعضوا فى رابطة الأدب الحديث التى أتشرف بتمثيلها ،

وعضوا فى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف ، وعضوا فى مجمع اللغــة العربية بالقاهرة عام ١٩٦١ واستقبله أعضاء المجمع بالترحيب والتقدير .

كما اختير الشيخ البشير عضوا فى رابطة العالم الاسلامى ، وفى غيرها من الهيئات العاملة فى مختلف انحاء الوطن العربى .

ولم يلبث الشيخ أن عاد إلى وطنه ، بعد كفاح طويل من أجل الوطن وحريته ، حيث قضى عشر سنوات كاملات فى البلاد العربية والاسلامية ، لدعم كفاح الشعب الجزائرى الحر وثورته الكبرى المناضلة .

— ٤ —

هذا هو البشير الابراهيمى وهذه صفحة أعماله البيضاء الناصعة ، جهاد فى كل مكان ، وبناء فى كل موطن ، وإيمان عميق بالنصر ، يأتى من عند الله لوطنه : « وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

كان الابراهيمى قوة كبيرة ، وعونا دائما ، لكل القضايا الوطنية والعربية والاسلامية .

ولقضية فلسطين حيث أسهم فيها ، واشترك فى كثير من أدوارها ، بلسانه ورأيه ونفوذه .

ولقضية استقلال تونس والمغرب ، حيث أيد كفاح الشعبين الشقيقين ، وكفاح زعمائهما وقادتهما فى كل موقف . وكل مجال .

ولقضية الحــق المصرى فى الجلاء عام ١٩٥٤ ثم فى تأميم قناة السويس عـام ١٩٥٦ .

ولقضية الوحدة العربية بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ .

ولقضية الثورة العراقية عام ١٩٥٨ وسلامتها .

ولقضية استقلال كل الشعوب العربية وحريتها ولكل القضايا الاسلامية في انحاء الوطن الاسلامي الكبير .

كان الابراهيمي رجل دين ورجل سياسة ، ورجل كفاح ، وكان صوتا قويا للحرية وللحركة التحرير في بلاده ، وكان من مدرسة الأفغاني والامام محمد عبده .

هذه المدرسة التي آمنت بامكان نهضة العالم الاسلامي وقوته وسيادته ، وبضرورة الجامعة الاسلامية لدعم كفاح شعوب الاسلام في كل مكان ، وبأن تربية جيل جديد من أبناء المسلمين تربية إسلامية ونهمة هو أقصر طريق لقيام النهضة الاسلامية الكبرى ، وبأن التراث العربي الاسلامي هو المنبع العظيم بل المنجم الذهبي لثقافة الشعوب العربية والاسلامية ، وأن اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، هي الأساس المتين لكل بناء ووحدة وتقدم .

إنها المدرسة التي تدعو إلى الأخوة الاسلامية الكبرى وإلى الوحدة بين شعوب العالم في الفكر والثقافة والعادات والسلوك والاقتصاد وإلى تعاون كامل من أجل رفع مستوى الشعوب العربية والاسلامية ، السياسي والاقتصادي والثقافي والحضاري ، لاعلاء كلمتهم ، وتحقيق سيادتهم ، وبناء مستقبلهم في عالمنا المعاصر اليوم .

وهكذا عاش محمد البشير الابراهيمي ، عاش مناضلا حرا ، ومات

مناضلا حرا ، عاش يبغى الحرية والرفاهية والمستقبل لشعب الجزائر العربي المسلم ، بل لكل الشعوب العربية والاسلامية بعد أن كانت فرنسا تقول على لسان وزير حربيتها فى تقرير رفعه إلى شارل العاشر إنها العناية الآلهية التى قضت بأن تنادى سليل القدس ، ليأخذ بالثأر ، وليقتص للدين واللانسانية ، ولسنا بحاجة إلى إقناع جديد بأنه لا سبيل إلى استقرار الأمن فى الجزائر الا بإبادة أهلها عن بكرة أبيهم .

وفى السادس عشر من أبريل عام ١٩٦٥ ، وبعد ربع قرن من وفاة صديقه ورفيق حياته وعمره ، عبد الحميـــــــد بن باديس ، توفى الشيخ الابراهيمى ، ولقى ربه راضيا مرضيا . رحمهما الله ، وأجزل لهما المثوبة والرحمة والرضوان .

مات البشير وترك مؤلفات كثيرة ، وآثاراً علمية قيمة ، منها فى الإسلام :

— كتاب شعب الايمان .

— « حكمة مشروعية الزكاة فى الاسلام .

وكتبا لغوية كثيرة ، وملحمة رجزية كبيرة من نظمه فى ستة وثلاثين ألف بيت من بحر الرجز فى فنون مختلفة .

مصادر :

١ — مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٦ فى استقبال البشير فى المجمع ، وفى تأبينه .

٢ — عيون البصائر للشيخ البشير الابراهيمي — طبع دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٦٣

٣ — الفكر الاسلامي للدكتور محمد البهي — طبعة عام ١٩٥٦ .

٤ — زعماء الاصلاح لأحمد أمين — لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٤٠ .

٥ — ثورة الجزائر للدكتور محمود متولي — طبع القاهرة — الناشر الهيئة العامة للاستعلامات .

٦ — مجلة الحياة الثقافية — تونس عدد فبراير ١٩٨٥ .

٧ — « الفيصل — عدد سبتمبر ١٩٨٤ .

٨ — تاريخ الامام محمد عبده — جزءان — محمد رشيد رضا — طبع دار المنار .

وهذه قصيدة قلتها في الذكرى[1] : وعنوانها « وطن الشمس » :

ليالي بالخلد أنت البشيرة هذه الذكرى وهذا البشير
الليالي المتفقت التحية وغنت لعلاه العصور
هتف المجد له في خشوع وهو بالمجد الكبير جدير

---

(١) في ذكرى عشرين عاما لوفاة الإمام الشيخ البشير الابراهيمي ١٤ يونيو ١٨٨٩ - ١٢ ابريل ١٩٩٥ ، ألقيت في معهد الآداب والثقافة العربية في وهران في ابريل ١٩٨٥ .

عاش ما عاش نضالا وعزماً   رأيه فى الخطب نار ونور
فكره النجم علواً وصدقا   وهو فى الليل الصباح المنير
كان فى المحنة خير شجاع   وهو للشعب العظيم سفير
(ابن باديس) بنى، و (البشير) الـ   ـفذ سارت برؤاه الأمور
حبه الغالى الجزائر ، كانت   عنده الشمس علا والبدور
وطن كان له فى النضال الـ   ـحر فى عصر الطغاة مسير
وطن الشمس عليه من الله   جـــــلال ، وهو المنصور
وطن بالألف ألف شهيـــــد   نال الاستقلال وهو جـــدير
يا إماماً كان للشعب وفيـــاً   أنت فى الشعب الامام الكبير
الحجـــــا والنبل زانا بشيراً   زانه أخـــــلاقه والضمير
زانه فكر سرى سمرى   زانه علم عزيز غـــزير
وله سمت النبين صـــــدقا   وبه كل العسير يسيـــر
رائد فى الدين والعلم والفكـ   ـر ، إمام ، بالحياة بصير
وفقيـــــه ماله من مثيـــل   وأديب كاتب مستنير
وخطيب فى الجماهـــير، سحبا   ن يحاكيه ، وصوت جهـير
زاهـــد ، فى الفقر كان غنيا   وهو فى اليسر الكريم الفقير
وطنى للجزائر قـــد ظـــل   وفيـــاً فكره والشعور
وطنى ما احتـــواه نضـــار   لا ، ولا كانت منه القصور
وكفاكم بالبشير زعيما   إنه للشعب نعم النصير
كان حـــر الرأى فى غير مين   وهو بالرأى الحكيم المشير
كم تلاقينا وصفو الأحاديث   نديى ، والحـــوار يـــدور

والفكاهات العذاب بساط ... للندامى ، والحياة تمور
أفق كان كأوسع ما كان ... ، وذهن رائع يستثير
كان والشيخ (سرور) فريدا ... ن ، وفى ظل البشير سرور
ما أجل المنتدى ، كم سهرنا ... ه ، وطابت روضه والزهور
أمسيات بالمودة دارت ... وليال فاح منها العبير
وكأنا فى جلال رؤاها ... وعلى أفق سناها نطير
لم يكن غير الصفاء عليها ... من شعاعات الصفاء أمير
صدق ود وصداقات عمر ... ونقى جم وعلم كثير
هيه والذكرى وأطياف عصر ... كأسها العذب الروى النمير
ما علينا إن ذكرناه لوم ... ذكريات بالحنين تدور
ويدور الدهر والعمر ينسى ... أين يارب الشباب النضير
أين أيام لنا سلفت ، ما ... أسرع الأيام وهى تسير
الكثير الحلو منها تولى ... ثم لا يلبث يمضى اليسير
هذه (وهران) صفو حياة ... وجنى حلو وليل مطير
وكأن الجنة اصطحبتها ... فهى والجنة سر خطير
وعليها بالجلال رواء ... وعليها من سنا الخلد نور
يا أحباء حيتى سلام ... وتحيات وود كبير
يومنا فى ظل وهران صفو ... عبرت بالصدق عنا الشعور
وكثير من ثنائى قليل ... وقليل من نداكم كثير
فحياكم بالشمائل والنبل ... وبالفضل الإله القدير

ناقص من المصدر
من ٢٤٧ الى ٢٥٢

ناقص من المصدر
من ٢٤٧ الى ٢٥٢

ناقص من المصدر

من ٢٤٧ الى ٢٥٢

ناقص من المصدر
من ٢٤٧ الى ٢٥٢

ناقص من المصدر
من ٢٤٧ الى ٢٥٢

ناقص من المصدر
من ٢٤٧ الى ٢٥٢

البوادى ضد الحماية وبمجد البطولات الشعبية ، كما أن ظهور قصة «الهيثا وسراج الليل» فى مجلة «خير الدين» يعد حدثاً بارزاً فى حركة تطور الأدب فى تونس ، فهى أول عملية إبداعية فى القصة فى تونس ، لذلك أعتبر صاحبها وهو الصادق الرزقى أول قاص فى تونس[1] .

وتواصلت عملية تطوير الابداع فى تونس فظهرت « القصة » بمفهومها الحديث على يد على الدوعاجى ، وظهر الشعر المعمرى ثم الشعر الحر « والرواية » .

وتألق فى الساحة الثقافية فى تونس أدباء كبار نشير إلى بعضهم فى إيجاز :

---

(١) راجع (الفكر ع ٩ (يونيو ١٩٨٤) .

محمد مزالى

أديب ومفكر كبير ولد بمدينة المنستير فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢٥ ، ودرس بالصادقية ثم بكلية الآداب بباريس ، وتقلد عدة مناصب سياسية بتونس ، وأسس فى عام ١٩٥٥ مجلة (الفكر) الشهرية التى يواصل إصدارها إلى اليوم وهو أحد مؤسسى اتحاد الكتاب التونسى الذى انتخب رئيسا له سنة ١٩٧٠ وهو عضو فى مجامع اللغة العربية بالقاهرة ، ودمشق ، وبغداد ، والأردن وقد صدر عنه فى القاهرة كتاب «مزالى والذوبة الابداعية فى دبة»

وقد أصدر هذا الكاتب عدة مؤلفات منها :

(الديمقراطية) ، و (من وحى الفكر) ، و (دراسات) و(مواقف) و (وجهات نظر) ، و (ودروب الفكر) .

واهتم « محمد مزالى» فى كتاباته بالدفاع عن الأدب التونسى ، ودعا إلى حرية الفكر ، ونادى بالتعريب ، ودافع عن الأصالة الفكرية ، وفكره كان دائماً زاخراً بهموم أمته العربية وبآمال الشعب العربى

يقول عنه « رشيد الذوادى » الناقد التونسى المعروف فى محاضرته التى ألقاها عنه فى (رابطة الأدب الحديث) عام ١٩٨٣ بالقاهرة : « حينما نتعمق فى فكر الرجل ، وَنتقصى تجربة الخلق والإبداع عنده نحس بنوعية خاصة من طراقة الخلق الإنشائى عند هـــذا الكاتب الكبير الذى يتميز بوعى وطنى أصيل صادق .

فدراسته عن (التونسة والتعريب) ، وعن (أدب الشباب) و (حركة

التاريخ) ، وعن مسؤليتنا إزا الأجيال العربية . وعن « على البهلوان المفكر » و (إحياء التاريخ لبناء المستقبل) » كلما قرأناها اكتشفنا شيئاً جديداً ، وهو : حماسة الكاتب إلى تعميق وعى المواطنين بالشخصية التونسية ، ويبرز حرصه هذا اعمق ما يكون الحرص وهذا الاهتمام من شدة حماسه الوطنية وهويته العربية ، فمناداته بالحفاظ على الشخصية الفكرية ودعوته إلى البحث فى أغوار الشخصية التونسية ، ووعيه بقضايا شعبه ومتطلباته وأشواقه ، يؤكد لنا مرة أخرى على أنه يلتقى مع الكثيرين من التونسيين المؤمنين بأصالتهم وبدورهم فى الحياة كما يذكر ذلك صديقه البشير بن سلامة فى كتاب (من وحى الفكر . .)[1] .

هذا هو « محمد مزالى » الأديب والناقد والمفكر والتى تتركز محاور فكره على الدين واللغة والوطن ، إنه مناضل يؤمن بقداسة الكلمة ، وهو يشبه عندنا فى مصر العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم والمازنى ، وهو متأثر بسقراط وأخذ عنه روح البحث عن الحقيقة وقد نجح فى الوطن العربى فكرة « حوار الحضارات[2] » .

---

(١) الفكر س ٣٤٩ (ديسمبر ١٩٨٣) .

(٢) مجلة (نادى النيل) د . صلاح عدس - دراسة بعنوان : محمد مزالى (والحركة الادبية فى تونس) (يونيو ١٩٨٥) .

البشـــــير بن سلامة

قصاص وروائي وناقد ومؤرخ وباحث في شئون اللغة ، ولد في ١٤ أكتوبر ١٩٣١ بباردو ، ورأس تحرير مجلة (الفكر) وتقلد عدة مناصب سياسية وألف عدة كتب منها :

« اللغة العربية ومشاكل الكتابة » صدر سنة ١٩٧١ . .

و « الشخصية التونسية مقوماتها وخصائصها » صدر سنة ١٩٧٤ . .

و « لوحات قصصية » .

و « وعائشة » . . صدرت سنة ١٩٨٣ . .

و « قضايا » وصدر سنة ١٩٧٧ . .

وقام بترجمة عدة كتب بالاشتراك مع « محمد مزالي » للمؤرخ الفرنسي : « اندرية جوليان) منها :

« المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي » ، و « تاريخ شمال أفريقيا » .

والبشير بن سلامة في نشأته الادبية ومنذ سنة ١٩٤٧ بدأ ينظم الشعر ولم يتجاوز آنذاك السادسة عشرة من عمره ونشر بعض قصائده في بعض الجرائد عام ١٩٥٠ ، ثم تحول إلى الكتابة القصصية معرضاً عن الشعر اعتقادا منه أن فن القصة أقدر على أن يستوعب من قريب أو بعيد بعدة فنون وتقنيات أدبية . .

وتطورت كتابات هذا الكاتب إذ صرف جزءا من وقته لترجمة بعض الكتب عن اللغة الفرنسية بالاشتراك مع الكاتب « محمد مزالى » ثم نشر فصولا فى (الفكر) من روايتيه : (العابرون) و (اللاهثون) قبل أن تظهر روايته (عائشة) فى الثمانينات ، ثم شغلته قضايا فكرية فتفرغ للكتابة عنها وحصر جهده فيها وولى وزارة الشئون الثقافية . .

ومن رأى (البشير بن سلامة) أن القضايا المصيرية تفرض نفسها ومن واجبنا الاهتمام بها ، وفى أولويات هذه القضايا القضايا الثقافية ، لذلك اتجه سعيه ومن خلال مجلة (الفكر) إلى تجريد هذه القضايا فرسمها بملامحها المميزة ومختلف المظاهر الأدبية واللغوية والنقدية .

ومن مميزات هذا الكاتب أنه أقام حواراً فكرياً مستمراً مع أدباء جيله وخاصة الشهاب ، وفتح عدة ملفات أدبية .

والمتتبع لكتابات البشير بن سلامة يدرك بعمق مدى تأثره بالكاتب المفكر « محمد مزالى » ، وهذا التأثر يبدو واضحا فى الكثير من الرؤى الفكرية[1] .

ومن طرافة إنشاء هذا الكاتب جولاته فى مواضيع مصيرية تهم تونس والوطن العربى ، وفى البحث عن الديمقراطية الحقة ، وفى خواطر كثيرة لاتهم الماضى فحسب ، ولكن أيضاً تهم الحاضر والمستقبل معا .

---

(١) الفكر : ديسمبر ١٩٨٤ : (وقفة من كتاب إشارات ادبية) لرشيد الذوادى ، بقلم د . محمد عبد المنعم خفاجى .

وفى دراساته عن (الثقافة والخلق) و (الادب والمجتمع) ، و (هل الفكر وليد اللغة أم اللغة وليدة الفكر) ، و (أضواء على الأقصوصة التونسية المعاصرة) ، ما يدل على حاسة هذا الكاتب النقدية .

والبشير بن سلامة أثار بكتابيه « نظرية التطعيم الإيقاعى فى الفصحى » و « واللغة العربية ومشاكل الكتابة » عدة قضايا فى معركة إحلال العربية المحل اللائق بها ، وكان من الطبيعى أن يثير عدة مشكلات ويقدم لها حلولا إيجابية ، شأنه شأن محمود تيمور فى مصر .

محمد العروسي المطوي

يرأس حاليا اتحاد الكتاب التونسيين وهو شاعر وناقد ومؤرخ ، انضم إلى أسرة مجلة الفكر عند تأسيسها ، وأصدر تحت عنوان : (فرحة شعب) أشعاره الأولى ومعظمها كتب ونشر فى مجلة (الفكر) من عام ١٩٥٦ .

والمرحلة التى عبر عنها فى هـــذه القصائد كانت مرحلة الواقع المظلوم ، فشاء الشاعر أن يجعل منها سجلا يخلده فى المسيرة الوطنية لتونس :

وتبدو صوفية المطوى فى أنه أديب عاشق أرض تونس وعشق الإنسان فيها وصاغ هذا العشق فى أشعاره كقوله :

حبى ابتهالات

من عبقة الطيب

للورد ، للزهر

ولمحمد العروسى المطوى عدة روايات منها :

(التوت المــر) ، و (حليمة) ، و (من الضحايا) ، كما ألف كتبا أخرى منها : (امرؤ القيس) ، و (الحروب الصليبية) . . . إلخ .

وقد حقق عدة كتب منها : « تحفـــــة المحبين والأصحاب فى معرفة ما للمدنيين من الأنساب » وهو من تأليف عبد الرحمن الأنصارى (١١٢٤ — ١١٩٧ هـ) .

المسعدى وكتاب آخرون

« محمود المسعدى » صاحب رواية « السد » التى نوه بها الدكتور « طه حسين » فى جريدة « الجمهورية » القاهرية بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٥٧ . . وهو من الرواد الكبار فى الأدب التونسى[1] .

ومن الكتاب التونسيين المشهورين :

« مصطفى الفارسى » ، و « الحبيب الجنحانى » ، و « أحمد خالد » ، و « عز الدين المدنى » ، و « محمود التونسى » ، « الجيلانى بلحاج يحيى » ، و « الهادى نعمان » و « صالح الحاجة » ، و « على الدوعاجى » ، و « الهادى العبيدى » ، و « مصطفى خريف » ، و « البشير خريف » ، ... وغيرهم . .

---

(١) راجع عنه كتاب « محمود المسعدى وكتابة السد » — الدكتور محمود .

أبو القاسم محمد كرو

أديب أبولي كبير، نشر عدة دراسات جادة عن الشابي، منها: (كفاح الشابي) ، و (الشابي حياته وشعره) ، و (آثار الشابي) ، كما اهتم أيضاً بشخصيات أدبية تونسية أخرى، منها : « الطاهر الحداد » و « عبدالرازق كرباكه » و « محمد الخضر حسين » . .

ولهذا الكاتب عدة دراسات وآثار أخرى منها : (حديث رمضان) ، و (نداء للعمل) ، و (ماى شهر الدماء والدموع فى المغرب العربى) ، و (حصاد القلم) . . إلخ .

وأسلوب أبو القاسم محمد كرو شائق، وكنا قد درسناه فى مقدمتنا لكتابه « حصاد القلم » الذى صدر فى الخمسينات عن رابطة الأدب الحديث .

رشيـــد الذوادى

أديب آخر من تونس ، وكاتب وناقد لمع اسمه فى الستينات ، وهو « أبولى » من مواليد مدينة بنزرت التونسية فى ٨ مارس ١٩٣٦ .

تخرج هذا الكاتب من الزيتونة ومن كلية الحقوق وباشر التدريس فى المعاهد التونسية ، وتحمـل عدة مسؤوليات سياسية ، وانتهى به المطاف أخيراً كمستشار ثقافى بالقاهرة .

ويعود تاريخ نشاطه الأدبى إلى عام ١٩٥٥ حينما بدأ ينشر بعض الفصول النقدية فى جريدة (الصباح) التونسية . وبعدها نشر فى أكثر من صحيفة ومجلة فى الوطن العربى منها :

« الزيتونة » ، و « صـدى الشمال » ، و « الفكر » ، و « الأديب » و « المحرر » المغربية ، و « الثقافة العربية » الليبية ، و « الشهاب التونسية » .

كما تحدث عدد من النقاد العرب عن أدبه وفكره منهم :

« محمد محفوظ » فى (تراجم المؤلفين التونسيين) ، و « حنا الفاخورى » فى جزء المغرب العربى من كتاب (تاريخ الأدب العربى) ، و « عيسى فتوح » من سوريا ، وعبد الله أبو هلال من المغرب ، وفوزى عطوى من لبنان ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، ود . عبد العزيز شرف ، والأستاذ المرحوم رضوان إبراهيم من مصر ، ومن تونس : محمد العروسى المطوى ، وأبو القاسم محمد كرو ، ود . محمد الصالح الجابرى ، وغيرهم . .

وللأديب التونسى رشيد الذوادى عدة مؤلفات منها : « أعلام من بنزرت » و « هذه بنزرت » و « أدباء تونسيون » ، و « إشارات أدبية » و « رواد الإصلاح » ، و « على البلهوان » و مجموعة « عظماء بلادى » و « أبطال وشهداء » ، و « جماعة تحت السور » . . إلخ .

وفى كل كتابات رشيد الذوادى يتراءى لك أنه مؤمن دائما بالكلمة والمسؤولية ، والكلمة عنده لابد أن تبقى من أدوات الوعى الجماهيرى . . . والكاتب كما يراه رشيد الذوادى ، لابد أن يخلص لمسؤوليته ، وأن يبقى دائما فى موقع المواجهة والتضحية[1] ، و « الكلمة المسئولة » عند هذا الكاتب لابد أن تنطلق من هموم الإنسان وأزماته ومعاناته .

وتبدو رؤية رشيد الذوادى لمسؤولية الكاتب واضحة وجلية عندما يحددها فى كتابه « إشارات أدبية » حيث يقول : « الكتابة ليست لحظات من الهوس أو اللهو ، إنها متعة فنية وضرب من المعاناة وفرصة للتعبير عن الموقف ، والكتابة الخالدة لا يهم الشكل الذى تصاغ فيه بقدر ما يهم فيها المضمون والأفكار والمحتوى .

إنها إبداع وتحليل للذاتية ، وتعبير عن المطامع وصوت يزن الأشياء بحساسية من داخل الأعماق فيكشف عن سر النفوس وعن الرموز ليحدد المجابهة ويصور الحدث ويحقق الحضور والتواجد .

---

(١) الفكر : د . خفاجى ، عدد ديسمبر ١٩٨٤ دراسة للمؤلف عن كتاب « إشارات أدبية » لرشيد الذوادى .

والكتابة الخالدة فى نظره تمتاز بصدقها وشفافيتها وهى تصور العلاقة الجدلية بين صاحبها والمجتمع الذى يعيش فيه . . هى وعى بالواقع ومعبرة عنه ، وترفض الانهزامية، وفيها إثراء للقيم والمبادىء .

إن تقييم الحضور الحقيقى لأى كاتب على الساحة الأدبية فى رأيى هو فى مدى ارتباطه بمجتمعه ، ومن اللازم أن يحدد الكاتب دوره منذ البداية[1] ..

ومما يتميز به رشيد الذوادى أسلوبه . . فأسلوبه شائق وطريف كما أن لغته فى معظم كتبه شاعرية ومعلوماته أمينة فى ترصد الأحداث الأدبية وفى نقل الواقع الفكرى بكل إتجاهاته وصوره ، وهذا ما شهد به المرحوم رضوان إبراهيم فى كتابه « التعريف بالأدب التونسى » الصادر سنة ١٩٧٤ .

---

(١) إشارات أدبية : لرشيد الذوادى ط تونس ١٩٨٠ ص ١١ .

نور الدين صمود

ولد عام ١٩٣٢ بمدينة قليبية الواقعة فى الشمال الشرقى من ولاية نابل بالجمهورية التونسية .

وزاول تعلمه الابتدائى بمسقط رأسه والثانوى بالزيتونة فى تونس العاصمة .

ثم سافر فى خريف سنة ١٩٥٥ إلى مصر . . وهناك درس فى كلية الآداب (جامعــة القاهرة) وتحول إلى بيروت فى أواخر سنة ١٩٥٨ لينهى دراسته العليا بالجامعة اللبنانية (١٩٥٩) وعاد ليشتغل بالتدريس منذ ذلك الحين فى التعليم الثانوى ثم بالكلية الزيتونية منذ سنة ١٩٧٧ . وحصل على الدكتوراه من الكلية الزيتونية عام ١٩٨١ .

وبدأ يكتب الشعر قبل سفره إلى القاهرة ، وأذاعه بالإذاعة التونسية .

وهو ينشر بمجلة الفكر منذ سنة ١٩٥٦ أثناء وجوده بالقاهرة طالباً حيث شارك فى عدة مؤتمرات شعرية على صعيد الكلية .

وفاز بجائزة الشعر للجامعة اللبنانية سنة ١٩٥٩ فى مسابقة كان فى لجنة تحكيمها : فؤاد أفرام البستانى (صاحب سلسلة الروائع فى الأدب العربى)، وبطرس البستانى وجبور عبد النور .

ونشر فى معظم جرائد ومجلات تونس والشرق العربى عامة .

ونشر له ديوانه الأول بعنوان (رحلة فى العبير) سنة ١٩٦٩ وهو يحتوى على ٣٩ قصيدة ، وصدر عن الدار التونسية للنشر فى ١٦٦ صفحة وهو مزيج من الشعر العمودى وشعر المقاطع والشعر الحر .

ونشر ديوانا آخر « صمود : أغنيات عربية ١٩٨٠ » في ١٣٢ صفحة .

وصدرت له مجموعة شعرية للأطفال بعنوان : « طيور وزهور » عن الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٩ .

وترجم شعره إلى الفرنسية والبلغارية والألمانية والرومانية والأسبانية والعبرية .

وكان عضو الوفد التونسي إلى مؤتمرات الأدباء العرب ومهرجانات الشعر ببغداد ١٩٦٥ ، ودمشق : ١٩٧١ — ١٩٧٩ وتونس ١٩٧٣ والجزائر ١٩٧٥ وطرابلس ١٩٧٧ ومؤتمر أدباء المغرب العربي بطرابلس ١٩٦٩ والذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون ١٩٧٥ ومهرجان الشعر باستروجا بمقدونيا بيوغسلافيا ١٩٧٧ ومهرجان بوشكين بالاتحاد السوفيتي ١٩٧٩ .

وقد حاضر عن الشعر التونسي ضمن الأسبوعين الثقافيين التونسيين المنعقدين بالبحرين وقطر في نوفمبر ١٩٧٦ . وفي طرابلس ١٩٧٩ . وفي قسنطينة ١٩٨١ بالقطر الجزائري ، وفي مكناس وسلا بالقطر المغربي الشقيق في مارس ١٩٨٣ . وفي جدة بالمملكة العربية السعودية في ابريل ١٩٨٣ .

وحاضر وقـــدم أمسيات شعرية في شتى أنحاء الجمهورية على منابر الجمعيات والنوادي والملتقيات الثقافية .

وأنتج للاذاعة والتلفزيون العديد من البرامج الثقافية .

وله عدة كتب نثرية منشورة ، منها :

١ — تبسيط العروض (شامل لأوزان الشعر) ١٩٦٩ (الدار التونسية للنشر) .

٢ — العروض المختصر (مدرسى) .

٣ — محمود المسعدى وكتابة السد ، طبعتان ١٩٧٣ - ١٩٧٩ .

٤ — « زخارف عربية » الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٦ .

٥ — دراسات فى نقد الشعر — الدار العربية للكتاب ١٩٨٢ .

٦ — هزل وجد — الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٣ .

* فاز بجائزة لجنة التنسيق بالقيروان عن أحسن مجموعة شعرية سنة ١٩٦٧ .

* فاز بجائزة بلدية تونس عن أحسن مجموعة شعرية سنة ١٩٧٦ .

* فاز بجائزة الدولة التشجيعية التى تمنحها وزارة الشؤون الثقافية التونسية عن ديوانه « رحلة فى العبير » سنة ١٩٧٢ .

وعن مجموعة شعرية للاطفال بعنوان (طيور وزهور) سنة ١٩٧٥ .

وعن ديوان : صمود سنة ١٩٨١ .

وهو رئيس تحرير مجلة الشعر .

ويحمل الصف الثانى والأول من وسام الاستحقاق الثقافى ١٩٧٣ — ١٩٨٢ .

محمد الطاهر بن عاشور

١٨٧٩ — الأحد ١٢ أوت ١٩٧٣ م

— ١ —

فى عام ١٩٣٥ أى منذ خمسين عاما زار الأمام الشيخ الطاهر القاهرة ، واجتمعت به فى رحاب الأزهر الشريف وجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الإسلامية ، فرأيت فيه من جلال الشخصية ، وعبقرية الذكاء ، وسعة العلم ، ووفرة التحصيل ، وسمو الخلق ، ما ملك على أقطار نفسى ووجدانى .

وكانت هذه الزيارة هى الثانية له ، أما الأولى فكانت قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بشهور ، وذلك عام ١٩١٤ .

وفى رحاب جامعة محمد بن على السنوسى الإسلامية فى البيضاء فى ليبيا ١٩٦٥ ، التقيت بابنه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، وتعددت لقاءاتنا ، واستمعت إليه يحدثنا عن والده ، سماحة الشيخ محمد الطاهر ، وعن تفسيره للقرآن الكريم « التحرير والتنوير » . . وتعددت لقاءاتنا فى رحاب مجمع الخالدين فى القاهرة ، فكنت أرى فيه صورة والده ، الذى أثرى العقل العربى بشوامخ تآليفه فى الشريعة وفى اللغة والأدب .

وكان الإمام الطاهر[1] إماما فى الدين ، مفكراً إسلامياً كبيراً ، يتتبع

---

(١) من أسرة الشيخ . الشيخ محمد الطاهر بن محمد الشاذلى بن عبد القادر بن محمد بن عاشور ، نقيب أشراف تونس ، وكبير علمائها ، فى عهد الباى محمد الصادق باشا ، وولى قضاء تونس عام ١٢٦٧ ، ثم الفتيا فيها عام ١٢٧٧ هـ ، فنقابة =

آثار جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده ، كما كان أديبا كبيراً ، ترك وراءه آثاراً خالدة في الأدب والنقد ، تعد من أروع ما تركه لنا رواد هذا الجيل . . وكان الطاهر شيخاً جليلا ، وأستاذاً كبيرا ، يملأ العقل والقلب ، بسعة ثقافية ، وسحر بلاغته ، ورقة فصاحته ، وجمال أسلوبه ، وعمق آرائه في شتى علوم الشريعة والأدب .

وبحق كان الإمام الطاهر من أئمـــة رجال الدين ، وشيوخ الاسلام ، متمكناً في علوم الشريعة والأدب ، وفي الأصول والفروع ، حتى عد إمام عصره ، وشيخ دهره ، وتصدر جيله ، وصار مقصد الناس وطالبي الفتيا في حياته . . وصفه الرئيس الحبيب بعلامة الدهر ، وقال عنه الشيخ محمد البشير الأبراهيمي : هو إمام متبحر في العلوم الاسلامية ، واسع الثراء من كنوزها . . ومدحه شعرا الامام الشيخ محمد الخضر حسين ، رحمه الله .

— ٢ —

عاش سبعة وتسعين عاما هجريا (١٢٩٦ — ١٣٩٣ هـ) ، أو أربعـــة وتسعين عاما ميلاديا (١٨٧٩ — ١٩٧٣) ، وكان ميلاده في المرسى وهي مهد طفولته .

= الإشراف ، وله كتب عدة ، وشعر جيد ، وهو جد المترجم له من جهة الأب . (٢٩/٢ مجلة الهداية الاسلامية - ١٥٦ معجم المطبوعات العربية لسركيس — الإعلام للزركلي الجزء السادس ٢١٤) — عاش أربعة وثمانين عاما (١٢٠٠ - ١٢٨٤ هـ) .

وكان جده لأمه الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور[1] وزير التعليم ، الذى عاش إلى ما بعد ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ، وحين آنس جده إقبال سبطه على العلم ، ونبوغه فى اللغة ، وتوفره على الأدب ، وهب له خزانة كتبه ، فكانت خير هدية أهديت إليه ، حيث عكف على مخطوطاتها ، وأمعن فى قراءاته لنفائسها .

التحق الشيخ بالزيتونة ، وأخذ عن شيوخها[2] ، وفيها تفوق فى دراساته الدينية واللغوية والأدبية ، ودرس فى حلقاتها العلمية : اللغة وشتى علومها من نحو وصرف وبلاغة وعروض ، كما درس علوم الشريعة من فقه وأصول وتفسير وحديث . . ولم يلبث أن صار أستاذا فيها ، وشيخا من أعلام شيوخها .

وكان للامام محمد عبده مكانة كبيرة فى تونس وعند علماء الزيتونة ، وكان قد زارها عام ١٨٨٤ م ، يحمل إليها وإلى تونس العربية رسالة العروة الوثقى وأفكار جمال الدين الأفغانى ، ثم زارها مرة ثانية عام ١٩٠٣ ، ومعه محمد فريد زميل مصطفى كامل فى النضال الوطنى من أجل الحرية والاستقلال ، وآنذاك التقى الشيخ محمد الطاهر وصفوة علماء الزيتونة بالإمام الشيخ

---

(١) ١١٧/١ ديوان بشار شرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور — الطبعة الثانية وفى الديوان : (عبد) بدلا من محمد .

(٢) من مشاهير شيوخها : عمر بن الشيخ (١٨٢٣ — ١١٩١) ، وأحمد بن الخواجة (١٨٢٧ — ١٨٩٥) ، وسالم بوحاجب ، ومحمد بيرم الخامس ، وعمر الجشائشى (١٨٥٥ - ١٩١٥) ، ومحمد الشاهد (١٣١١ هـ) ، والشاذلى بن صالح (١٣٠٨) ، ومحمد النخلى ، ومحمد النجار ، وسواهم .

محمد عبده فى رحاب هذه الجامعة الاسلامية ، وكان محمد عبده يناضل من أجل مستقبل أمته ، ومستقبل الاسلام والمسلمين .

وملأت شخصية الامام كل جوانب روحه وعقله ونفسه ، وأقامت الجمعية الخلدونية في تونس آنذاك للامام حفلا ، تحدث فيه الطاهر ، وألقى فيه الامام محمد عبده محاضرة قيمة[1] ، نالت إعجاب كل من استمع إليها ومن بينهم الشيخ محمد الطاهر ، الذى لم يلبث أن دعاه إلى زيارته فى بيته ، ولبى الإمام الدعوة ، وتعددت اللقاءات بينهما ، وتحـدثا معا فى إصلاح التعليم الدينى ، والنهوض بالعـلوم الإسلامية ، وكانت كتب الإمام وأفكاره وآراؤه فى الإصلاح والتجديد الدينى قـد سبقته إلى تونس والزيتونة ، وقرأ علماء الزيتونة فكراً جديداً صدر من قبل فى كتاب الإمام ، وهو « رسالة التوحيد » . . وأصبح الشيخ محمد الطاهر من تلامذة الإمام ، ومن الدعاة إلى فكره وفكر الافغانى ومدرسته .

عاد الإمام محمد عبده إلى القاهرة[2] ، وتوالت رسائله إلى الشيخ محمد الطاهر ، حيث كان يلقبه فيها بابني العزيز ، أو ولدنا الفاضل .

وكان الإمام كثيراً ما ينصحه فى هذه الرسائل بأن يداوم الشىء لتحصيل ملكة عربية لكى يكون من أهل اللسان علما وذوقاً وأسلوباً وحسن عبارة .

---

(١) كان موضوعها العلم والتعليم (١/٨٧١) تاريخ الإمام الشيخ محمـد رشيد رضا .

(٢) وذلك فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٠٣ .

وصار أسلوب الإمام محمد عبده فى الكتابة هو الأسلوب الأمثل عند الشيخ محمد الطاهر .

وتوفى الإمام محمد عبده بعد هذه الزيارة بقليل ، وذلك فى يوليو عام ١٩٠٥ ، فكان لوفاته رنة أسى ، وصدى عميق فى نفس الشيخ محمد الطاهر ، الذى ظل وفيا للامام ولفكره وعلمه وأدبه . .

وعمل الشيخ محمد الطاهر فى القضاء كذلك ، وكان أحمد باشا يفتخر بمواهبه فى الفتيا والقضاء على صغر سنه[1] ، وعمل كذلك رئيساً للمفتين المالكيين فى تونس ، وشيخاً لجامعة الزيتونة وفروعها ، ولقب فى عام ١٩٣٢ بشيخ الإسلام ، وصار عمدة العلماء فى الدراسات الإسلامية والشرعية واللغوية والأدبية ، مع نفاذ بصيرة ، واجتهاد فى الحكم ، وله الفضل الأكبر فى إصلاح التعليم الزيتونى ، فى عصر كانت الزيتونة فيه معقلا من معاقل الدين واللغة والوطنية والتراث الخالد للحضارة الإسلامية . وفى حياته توفى شقيقه محمد على رضا بن عاشور ، وتوفى ابنه الشيخ الفاضل العلامة محمد الفاضل بن عاشور .

— ٣ —

(أ) فى الدراسات الإسلامية أصدر الشيخ محمد الطاهر العديد من المؤلفات القيمة ، ومن بينها .

— كتاب أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام .

---

(١) ٩٥ أليس الصبح بقريب .

كتاب مقاصد الشريعة .

— « الوقف وآثاره فى الاسلام .

— « مشكلات صحيح البخارى .

— « فى تاريخ التعليم الإسلامى فى تونس بعنوان « أليس الصبح بقريب » .

— قصة المولد النبوى الشريف .

— التوضيح فى أصول الفقه .

— نقد علمى لكتاب « الاسلام وأصول الحكم » .

— ومن أهم ما خلفه لنا فى هذا الجانب تفسيره للقرآن الكريم الذى أصدره بعنوان « التحرير والتنوير » فى ثلاثين جزءاً ، والذى يمتاز بسعة إحاطته بمرامى كتاب الله وأسرار بلاغته ، مع سعة العلم ، وعمق الأفكار والمضامين والمعانى ، وجمعه بين المعقول والمنقول ، وذلك كله فى بلاغة أسلوب ، ووضوح عبارة . .

وحدث عن هذا التفسير ولاحرج ، وعن شرحه الرائع لكتاب الله ، من مختلف النواحى الدينية والفقهية والبلاغية واللغوية ، كل ذلك فى بلاغة أسلوب ، وفصاحة لسان ، وجمال نظم ، وروعة بيان .

ويعد هذا التفسير من أهم ما صدر من تفاسير لكتاب الله الحكيم فى هذا العصر ، وقد تأثر فيه الامام محمد الطاهر بمناهج المفسرين القدماء : كالطبرى والرازى والزمخشرى والبيضاوى ، وبمنهج الامام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار .

وفى الحق أن هذا التفسير هو موسوعة إسلامية وعلمية وبيانية رائعة ، وهو مصدر وثيق للباحثين والدارسين فى تفسير كتاب الله الخالد العظيم .

(ب) أما فى الدراسات الأدبية واللغوية فقد خلف الإمام الشيخ محمد الطاهر لنا آثاراً نفيسة خالدة ، من بينها :

— كتاب موجز البلاغة .

— « أصول الإنشاء والخطابة .

— سرقات المتنبى .

— الواضح فى شرح مشكلات المتنبى .

— شرح على ديوان النابغة ، الذى عنون له بديوان النابغة فى الأدب.

— « وتحقيق لكتاب « قلائد العقيان » من تأليف الوزير الأندلسى الفتح بن خاقان ، وهو فى تراجم أدباء وشعراء أندلسيين .

— شرحه لقصيدة الأعشى الأكبر فى مدح المحلق .

— شرحه على المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقى (ت ٤٢١ هـ — ١٠٣٠ م) على ديوان الحماسة لأبى تمام (١٨٠ - ٢٣١ هـ) .

وهذا الشرح حافل بالتحقيقات العلمية المفيدة والفريدة ، شرحاً لغريب المقدمة ، وتبييناً لمقاصدها ، وتفسيراً لمراميها ، وتحقيقاً لنصوصها ، وتوضيحاً لمعانى أشعارها ، وحرصاً على نسبة كل بيت إلى قائله ، وكل نص إلى صاحبه . . مما يدل على سعة ثقافته اللغوية والأدبية والنقدية . . وفى مقدمة هذا الشرح يقول :

إن المقدمة التى دبجها الإمام المرزوقى لشرحه على ديوان الحماسة ،

اختيار أبي تمام ، تعتبر خير رائد لمنتجع روض الفصاحة ، وقد كنت اهتممت بتدبرها ، فقدرت قدرها ، وتبينت نفاستها فى صناعة الأدب وخطرها ، فلما نشر الشرح [1] مكللا بجواهرها ، هز ذلك من عطفى ، وحرك سواكنى إلى مراجعة عهد مضى ، فأصدق عزما قديما وغرضا ، هو العزم على أن أعلق على هذه المقدمة القيمة ، وأسرع إليها جواد الذهن وأسوقه ، فعنيت بتوضيح دقائقها . وحين حللت فى الآستانة فى أواخر عام ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) ، ورأيت خزانة كتبها الثرية ، كان مما لفت نظرى نسخة تامة من شرح المرزوقى فى مكتبة كوبرللى باشا ، وقد حصلت منها على شريط فوتوغرافى ، ولم يكن عندنا بخزائن تونس إلا نسختان من جزء أول منه ، حوتهما مكتبة الجامع الأعظم .

والمقدمة توضح لنا أسلوب الإمام الطاهر ، الواضح البليغ الذى يوشيه بالسجع والاستعارة وألوان من محسنات البديع أحيانا ، وهو أسلوب الإمام محمد عبده فى كثير من سماته وخصائصه . .

وفى الحق أن شرح الإمام الطاهر على المقدمة ، يبهر القارىء له ، بعمق آرائه وتحقيقاته ، ودقة شروحه وتصويباته ، وسعة فهمه ونقده لأساليب العرب .

— ومن أهم ما خلفه الإمام الطاهر من مؤلفات فى الأدب شرحه الرائع لديوان بشار ، الذى طبع فى أربعة أجزاء ، ونم عن سمو ذوقه ، وسعة ثقافته ، وطول باعه فى علوم العربية ، مع الدقة العلمية المتناهية فى تحقيق

---

(١) نشر فى القاهرة فى أربعة أجزاء ، بتحقيق الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، رحمه الله .

شعر الديوان ، ومقابلة نصوصه على ما ورد من شعـر بشار في مختلف مصادر الأدب .

ويقول الإمام الطاهر في مقدمة هذا الشرح :

ليس بخاف على أحد ، ممن زاول أدب اللغة العربية مزاولة مغرم مايجده الأديب من الحسرة على نزارة ما بين يديه من شعر بشار . . وإذا كنت قـد حظيت باقتناء جزء ضخم من ديوانه ، أحببت أن أعلق عليه ، شرحا يقـرب للمجتنى بعض معانيه ونـكته ، لأني رأيت شعره مفعما بخصائص اللغة العربية ، ونكت بلاغتها ، ومحتاجاً إلى بيان ما فيه من غريبها ، فعلقت عليه هذا الشرح ، بينت فيه غريب لغته ، وخفي معانيه ، ونكت بلاغتـه وأدبه ، وما يشير إليـه من عادات العرب وتاريخهم ، وعادات عصره ، وتاريخ الرجال والحوادث التي تضمنها شعره ، وخصصت الاستعمال العربي الفصيح بالبيان ، وذكرت في مطلع كل قصيدة الغرض أو الحادثة التي قيلت فيها ، ممـا ذكره علماء الأدب والتاريخ ، مع زيادة بيان لمـا أهملوه ، ونبهت في كل قصيدة على بحرها وعروضها وضربها .

ويفيض الشيخ في ترجمته لبشار ، ويقول : اشتملت خزانة كتبي على جزء عظيم من ديوان لبشار ، يبتدى من أوله إلى حـرف الزاء ، جاء في آخره : انتهى الجزء الأول من ديوان بشار ، ويليه الجزء الثاني منـه . . ويذكر الشيخ أن هذا الجزء كان في خزانة جده لأمه ، وأن جده وهب له هذه الخزانة كلها . . كما يذكر أن هذا الجزء المخطوط يحتوى على ٦٦٢٨ بيتاً من شعر بشار ، ويقـول : رأيت أن ألحق . ما وجدته فيما طالعته من كتب الأدب ، مما نسب إلى بشار ، فجمعت ذلك ، فتحصل لي من ملحقات الديوان ما يقارب ألف بيت ، وأفردت تلك الملحقات بجزء .

وهذه المقدمة التي كتبها الإمام الطاهر لديوان بشار توضح خصائص أسلوبه الأدبي ، القريب الشبه بأسلوب الإمام محمد عبده رحمهما الله ..

ولقد وقف الشيخ محمد الطاهر أمام ديوان بشار وقـوف الدارس الباحث المتمكن ، فجاء شرحه له مملوءاً بـكل مفيـد ، من التحقيقات والتصويبات والشروح النفيسة التي لا يماح مثلها إلا للأفذاذ من المحققين، والقلائل من الشارحين .. والمتذوقين والنقاد .

— ٤ —

كانت كتب الإمام الطاهر تطبع في القاهرة في مطبعـة الحلبي بحي الحسين ، ويشرف على إخراجها العالم الأزهـري الشيخ منصور رجب الأستاذ بالأزهر الشريف ، وصديق الشيخ محمد الفاضل ، رحمهم الله جميعا ، أما ديوان بشار فقد بعث به الإمام الطاهر إلى أحمد أمين في لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة ، حيث عهـد إلى أستاذين جليلين في مراجعته والإشراف على إخراجه ، وهما : الأستاذ محمد شوقي أمين عضو مجمع اللغـة العربية والدكتور محمد رفعت فتح الله عضو مجمع اللغة العربية أيضا ؛ فبذلا في إخراجه جهدا صادقاً متميزا .

وقد ظل الإمام محميد الطاهر عميدا للجامعة الزيتونية ، ومرجعا للعلماء فيها ، وطبقت شهرته الآفاق ، وعم صيته أنحاء الدنيا ، وأفاد من علمه العالم الاسلامي كافة . وفي حياته خلفه ابنه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور[1]

---

(١) عاش واحد وستين عاما ميلاديا (١٩٠٩ — ١٩٧٠) ، أو ثلاثا وستين عاما هجريا ، وصدر له الكثير من المؤلفات ، ومن بينها :
— الحركة الأدبية والفكرية بتونس .

فى مناصبه العلمية ، عميدا لكلية الشريعة وأصول الدين فى الجامعة الزيتونية ومفتياً للديار التونسية ، واختير عضوا عاملا فى مجمع اللغة فى القاهرة ، من حيث كان والده الإمام الطاهر عضوا مراسلا فيه وظل بيت الشيخ محمد الطاهر مقصد العلماء من كل مكان ، ولما سافر الشيخ منصور رجب للتدريس فى الجامعة الزيتونية ، كان الامام الطاهر وداره دائما مهوى فؤاده ، وحين توفى فى تونس (فى الخامس عشر من أبريل عام ١٩٦٥) أمر الامام الطاهر بنقل جثمان الشيخ منصور إلى بيته ، ومنه خرج فى جنازة ضمت علماء الزيتونة وجماهير الشعب ، حيث ساروا به إلى المطـــار ، وسافر معه مندوب من الجامعة الزيتونية ، هو الشيخ الفاضل بن القاضى. وأرسل الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور برقية عزاء إلى أسرة الفقيد فى القاهرة نيابة عن والده جاء فيها : « ما كان الشيخ منصـــور رجب إلا كنزا تطلعت إلى علمه جامعتنا ، فاجتذبته ، وأحبها وأحبته » . . وكان الشيخ الأزهرى منصور رجب يقول عن الامام ابن عاشور : إنه حامل لواء العلم فى زمانه ، وإمام وقته ، تفسيرا وحديثا ، وفقها وكلاما وأصولا ومنقولا ومعقولا .

على أن ثقافة الإمام الشيخ الجليل محمد الطاهر بن عاشور الإسلامية والدينية ، تضعه فى مصاف الأئمة الكبار الأعلام من شيوخ الإسلام الخالدين .

= — أركان الحياة العلمية .
— أركان النهضة الادبية بتونس .
(٦/٣٢٥ الاعلام للزركلى - طبعة ثانية .

وثقافته اللغوية والأدبية تضعه كذلك فى مقدمة علماء الأدب المحصلين المحققين المبرزين . . وفى التحقيق العلمى للتراث يعد من طبقة الرواد الكبار فيه .

أما أسلوبه الذى كان يحليه بالسجع ، ويزينه بألوان من البديع فى أحيان كثيرة، فيضعه فى منزلة كبار الأدباء الرواد فى عصر النهضة الحاضرة فى أدبنا الحديث ، وهو صورة كبيرة الشبه بأسلوب الإمام محمد عبده ، رحمهما الله .

وبعد فماذا أقول عن الإمام ، وشيخ الإسلام ، سماحة الشيخ محمد الطاهر ، فى هذا المقام ، مقام الذكرى الثانية عشرة لوفاته ، وهو من هو : عظمة شخصية ، وسمو حسب ، وعلو نسب ، وعبقرية ذكاء وتحصيل ، وإمامة فى علوم الدين واللغة والأدب ، وتحصيلا لمصادر الشريعة واللغة ، ووقوفا على حركة الشعر والنثر فى أدبنا العربى القديم والحديث على السواء .

ماذا أقول عنه ، وهو من هو : مفكرا إسلاميا كبيرا ، وإماما فى علوم الشريعة ، وشيخا من شيوخ الاعلام ، ورائدا من رواد الدرس الأدبى فى العصر الحديث ؟

ماذا أقول عنه ، وهو من هو : منزلة رفيعة فى حياة الشعب التونسى المجيد ، ومكانة عالية فى المجتمع التونسى المعاصر ، ومقاما محمودا فى أوساط علماء الزيتونة المبرزين المحصلين ؟ (١)

---

(١) راجع عنه كتاب الأعلام للزركلى جـ ١ ص ١٧٤ ، وكتبه التى جاءت فى هذا البحث .

وفى حفلة ذكرى الطاهر بن عاشور التى أقيمت فى الكلية الزيتونية بتونس فى ديسمبر ١٩٨٥ ألقيت هذه القصيدة :

سوف تبقى ذكراك فينا طويلا   سوف تبقى فى الشرق: جيلا ، فجيلا

رائد من رواد عصر كبير   عاش فى جيله إماما جليلا

خالد فى صحائف العلم والآ   داب ، ما إن له رأينا مثيلا

عبقرى فى فضله وتقاه   صنع الخير والفعال الجميلا

عاش يبني بلاده ويؤدى   عن رجال الاسلام دينا ثقيلا

عاش ما عاش طاهرا وكريما   وملاذا وسيدا ونبيلا

عاش فى حومة النضال عن الد   ين يفديه بكرة وأصيلا

نابه الفعل ، صادق القول ، حيته المثانى أهدى وأصدق قيلا

وسعى للاصلاح سعى شجاع   ومضى للاصلاح أهدى سبيلا

من جمال الدين استمد رؤاه   ولكم جاهد الدخيل طويلا

وبفكر الإمام سار على الدر   ب ، يفدى الحمى ، ويحمى الرعيلا

كان مجد الزيتونة البكر ، والدا   ئد عن مجد تونس المأمولا

كان شيخ الإسلام فى وطن ، أبـ   ـناؤه شادوا مجده الموصولا

(أسد بن الفرات) قلده فى   حرب أعداء الله سيفا صقيلا

و (ابن خلدون) جمع المجد تاجا   لابن عاشور بالعلا مأهولا

والزعيم الحبيب أضفى عليه   من جلال وعزة إكليلا

وجماهير الشعب لم تنسه يو   ماً ، ولم تنس موته والرحيلا

طاهر يا له إماماً وشيخاً   قد أجاد المنقول والمعقولا

ياله كم غذى ونشأ أجيا   لا ، وكم بالإسلام ربى عقولا

قصد الناس عن كريم مساعيـ   ـه ، وكان الهادى لهم والدليلا

طاهر والخضر الإمامان عاشا　　يحميان الاســـلام والتنزيلا

كان حاديهما على الحق والخيـ　　ـر ، وفى كل عاصف ، جبريلا

لست أدرى والدهر والعيش يمضى　　أقصــيراً طريقنا أم طويلا

وصلت بيننا وشائج قــربى　　وصــلات لم تعرف التحويلا

مصر والأزهــر الشريف وفاء　　لامام قــد ظل يبنى الجيلا

لفقيه مفسر ناقــد ، كا　　ن لكل الأجيال ظلا ظليلا

كان بدراً للمدلجين ونوراً　　للحيارى ، والكوثر السلسبيلا

كاد فى الدعــوة الجليلة للـ　　ـه وللدين أن يكون رســولا

أيها الطاهر الأمين ، على قبـ　　ـرك قمنا نهاكر التهليــلا

وأقمنا على تراثك حفظاً　　وعلى قــدس مجــده ترتيلا

أيها الطاهر الأمين سلاماً　　وجزاءً من الاله جزيلا

طبت حياً وميتاً ، ولقد طبـ　　ـت فروعاً ومحتداً وأصــولا

سوف تبكيك أعين الجيل بالدمـ　　ـع ، وما كان الدمع يجدى فتيلا

صلوات الإله ورحمة المهـ　　ـداة فجــراً وغــدوة ومقيلا

الشعر الفلسطيني والنكبة

فلسطين هذا الأسم الحبيب إلى قلب كل عربي ومسلم ، لا يدرى أحد كيف أصبحت صريعة العدوان والاستعمار والصليبية ، وكيف اغتالتها أيد أثيمة ، وقامت إسرائيل المزعومة على أرضها تجاهر الإسلام والعرب والفلسطينيين بالعدوان والحرب .

وقد عبر الشعراء العرب والشعراء المسلمون ، بل وشعراء الأرض المحتلة عن هذه النكبة وأثرها فى قصائد لا تحصى من أشعارهم :

وهذا هو الشهيد سعيد العاص، الشهيد الذى أريق دمه على أرض فلسطين والذى عبر عن استشهاده الشاعر محمد الفراتى بقوله :

عزيز علينا أن يحل بك الردى ... وترتع فى البيت العتيق سوام
وأن بنى الأحرار فى عقر دارها ... على الرغم منها يا سعيد تضام
مضيت كريما فى الجهاد وكم مضت ... من العرب فى ساح الجهاد كرام

والنكبة وقعت سنة ١٩٤٨ م ولذلك كان هناك أدب قبل النكبة يتعلق بالقضية كما كان هناك أدب بعد النكبة .. أما ماقبل النكبة فإن الأدب دعا إلى التنبه الواعى لتتصدى إلى الخطر المحدق وإثارة العزائم والتنبيه . ولقد قال فى هذا المجال الشاعر الفلسطينى عبد الكريم الكرمى (أبو سامى) داعيا إلى التنبه والوعى لدرء هذا الخطر :

قوموا اسمعوا من كل ناحية ... يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا الوطن الذبيح ... من الوريد إلى الوريد

لا يصهر الأغلال غير جهنم   الهـــــول الشديـــد

وهذا هو الشاعر إبراهيم طوقان يدلى بدلوه فى هذا المجال فإذا به يحذر كل عربى من يوم أسود قائلا لهم :

أمامك أيهـــا العربى يوم   تشيب لهـــوله سود النواصى
فلا رحب القصور غدا بباق   لساكنها ولا ضيق الخصاص

وكان يتألم حين يذكر رجال الأحزاب وهم يعقدون اجتماعا أو يطالعون الناس ببيان فيقول ساخراً منهم وهازئاً ومحذرا إياهم :

أنتم المخلصون للوطنيـــــة   أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غـير قول   بارك الله بالزنود القوية
وبيان منـــكم يعادل جيشاً   بمعدات زحفــــة الحربية
واجتماع منـــكم يرد علينا   غادر الفتح من عهود أمية
فى يدينا بقيــــة من بلاد   فاستريحوا كى لا تطير البقية

وهذا هو منطلق الشعر قبل النكبة فى شعر فلسطين من التنبه والوعى لدرء الخطر المحدق .

كما تناول الأدب الدعوة إلى مساندة الشعب الفلسطينى فى ثورته، وهذا هو الشاعر الأخطل الصغير يقول فى هذا المجال :

يا فلسطين التى كدنا لما   كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن ياأخت على الهوى الذى   قد رضعناه من المهد كلانا
مكة والقدس منذ احتلما كعبـ   ـتان وهوى العرب هوانا

إنمــا الحق الذى ما توا له   حقنا نمشى إليه أين كانا

وهذا هو الشاعر على محمود طه يخاطب الدول العربية جميعاً بمناسبة انعقاد الجامعة العربية قائلا لكل فرد عربى :

اقضوا حقوق لخباء تستجير به   أخت لكم فى صراع الدهر عزلاء

والأخت التى يعنيها الشاعر هنا هى فلسطين .

وكذلك تناول الأدب الفلسطينى وعد بلفور وندد بذلك الوعد الشعراء وبذكراه التى تمر كل عام ويقول إيليا أبو ماضى فى هذا المجال :

ألا ليت بلفور أعطاكو   بلادا له لا بلادا لنــــا

فلندن أرحب من قدسنـا   وأنتم أحب إلى لنـــدنا

وهذا هو الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى يهيب بالشعب أن يعلن غضبته على هذا الوعد المشئوم الذى يقضى بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فإذا هو يقول :

خــذى مشدماك مثخنة الجراح   ونامى فوق دامية الصفاح

ومــــدى بالممات إلى حياة   تسر وبالعناء إلى ارتيــاح

فتاريخ الشعوب إذا تبنى   دم الأحرار لا يمحوه ماح

كذلك حذروا من أن تتكرر مأساة أندلس أخرى ، وهذا هو الشاعر على الجارم يقول فى قصيدة له :

قلبى ونبض دموعى كلما خطرت   ذكرى فلسطين خفاق وهتان

لقد أعاد بها التاريخ أندلسنا أخـ ـرى وطاف بهـا للشر طوفان

ميراثنا يافتى حطين أين مضى وهـل نهايتنا يتم وحرمان

وقد وقعت النكبة ! وذلك عام ١٩٤٨ لم يكن للأدب دور كبير بعد وقوعها كما كان له دور قبل وقوعها . إن الأديب العربي شعر أن الأمة أصيبت بخيبة أمل ومرارة وبحزن وأسى عميقين وهـذا عمر أبو ريشة يصور خيبة الأمل هذه فيقول :

أمتي هـل لك بين الأمم منـبر للسيف أو للقلم

أتلقاك وطرفي مطرق خجلا من أمسك المنصرم

ويكاد الدمع يهمي عابثا ببقايا كـبرياء الألم

وبعد أن اعتصرت القلوب المرارة راح الأدباء يبحثون عن المسئول عن هذه النكبة فطرح بعض الأدباء المسئولية على حكام العرب آنذاك ومنهم الشاعر سليمان العيسى الذي كان يقول :

لو كان في كفي قياد القـدر غسلت جفن أمتي بالشرر

ألهبت بالثورة حتى الحجر طهرت أرضي من ظلال العبيد

عنـدئذ ألقى عدوى العتيد

وعمر أبو ريشة يثور على بعض الحكام الذين كانوا من أسباب نكبة فلسطين قائلا :

أمتي كم صنم مجـدته لم يكن يحمل طهر الصنم

لا يلام الذئب في عـدوانه إن يكن راع عدو الغنم

وبعد أن وقعت النكبة انتشر المشردون اللاجئون فى كل أرض وذهب الأدب يصور اللاجئين أجمل تصوير ويبين المأساة إلى كل الناس وهذا هو الشاعر نديم محمد يصور جانبا من تلك المأساة فى شعره :

وتقول الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان مصورة المأساة قائلة فى قصيدة عنوانها تهويمة صوفية فى ديوانها « وحدى مع الأيام » تخاطب ربها قائلة :

أنا يارب قطرة منك تاهت   فوق أرض الشقاء والتنكيد
فتى أهتدى إلى منبعى الأسمى   وأفنى فى فيضـه المنشود
ضاق روحى بالأرض ، بالأسر ، بالقيد
فحـــرر روحى وفك قيودى
ضمنى ضمني إليك فقد طال انفصـ   ـالى وطال بى تشريدى

والشاعر الفلسطيني خليل زقطان يبين أن المستعمرين لايمكن أن يحلوا قضية فلسطين وأن اللاجئين سيظلون لاجئين :

يا صاح لا تحلم بأنك عائد   للربع فالأحلام قد لا تصدق
سنظل ندعى لاجئين كما ترى   ويظل يخدعنا الذى يتشدق

وبعد هذا ما كان من المشردين إلا أن حنوا إلى أرضهم وأهلهم وإذا يوسف الخطيب الشاعر الفلسطينى يشاهد بلدا يستطيع أن يجتاز الحدود فيخاطبه قائلا :

لو قشة ممـا يرف ببيدر البلد   خبأتها تحت الجناح وخفقة الكبد

أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد　　أم جئت مثلى بالحنين وثورة الكمد

حنين لانجد له نظيراً الا عند أبى سلمى الذى كان يخاطب زوجته قائلا لها :

هل تسألين النجم عن دارى　　وأين أحبابى وسمارى
وعن أرضى التى أغفت على ربوة　　حالمة بالجـــد والغار
الشمس لا تضحك الا لها　　تهدى اليها وشى أشعارى

ولقد بقى فى فلسطين عدد كبير من العرب لم يخرجوا منها ، وبين هؤلاء كاتب القصة وكاتب المسرحية وناظم القصيدة . وأدب هؤلاء كما يقول بعض النقاد أدب ملتزم هادف بمعنى أنه يريد أن يربط الكلمة بالممارسة النضالية لها . وعبر عن ذلك الأدب محمود درويش حين قال إن جوهر أدبنا هو الرفض وهذا واضح فى قوله :

يادامى العينين والكفين إن الليل زائل
لاغرفة التوقيف باقية ولا زرد السلاسل
نيرون مات ولم تمت روما بعينها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف ستملأ الوادى سنابل

إن الأدباء الذين بقوا فى فلسطين بعضهم حافظ على الشخصية العربية كمحمود درويش الذى أعلن استمساكه بالقضية العربية .

ومثله ماقاله توفيق زياد حين يتجاوب مع القضية العربية بمناسبة الثورة التى وقعت أيام العدوان الثلاثى فى بورسعيد :

يابورسعيد وأنت رعب قاتل   للزاردين القيد حول المعصم
يكفيني التنكد المعى وغصة   إنى بعيد عن جمالك المغرم

وبعض أدباء الأرض المحتلة كانوا يصورون المجازر التى كانت ترتكب فى فلسطين وهذا سالم جبران يبين مجزرة دير ياسين وكفر قاسم حين قال :

الدم لن يجف والصرخة ماتزال   تمزق الضمير والقبور مفتوحة
فى فمها أكثر من سؤال   ولم يزل مدخل كفر قاسم
مروع من هول تلك الليلة السوداء

وبعضهم ندد بالنزوح وندد بالخروج من معركة البقاء، واستمسك بالأرض وأعلن تمسكه بها ومن هؤلاء سميح القاسم الذى قال :

ربما أفقد ماشئت معاشى   ربما أعرض للبيع ثيابى وفراشى
ربما أعمل عتالا وحجارا وكناس شوارع
ربما اسقط عريانا وجائع
ياعدو الشمس لكن لن أساوم   وإلى آخر نبض فى عروقى سأقاوم

وبعضهم راح يحن إلى المشردين ويكاد يسمع أصوات أحبابه ومحمود درويش يقول :

أصوات أحبابى تشق الريح تقتحم الحصون
ياأمنا انتظرى أمام الباب انا عائدون
هذا زمان لا كما يتخيلون

ثم كانت نكسة عام ١٩٦٧ م (حزيران) وقام الأدب بدوره فصور الجوانب الايجابية وقال شاعر يخاطب صلاح الدين الأيوبى :

يا أيها الملك الذى لمعالم الصلبان نكس
جاءت اليك ظلامة تسعى من البيت المقدس
كل البيوت تطهرت وأنا على شرفى منجس

وما أكثر الشعر الفلسطيني والشعراء الفلسطينيين ، ولكن ماذا يجدى الشعر والشعراء .

وفى هذا المقام أذكر الشاعر على هاشم رشيد وله دواوين عدة ، والشاعر أكرم عرفان صاحب ديوان (الحب الخالد) ، وحبه الخالد هو لوطنه والشاعر البحيرى وشعراء كثيرين سقطوا صرعى العدوان والطغيان .

ومن الأدباء الفلسطينيين الدكتور نكلفل السوافيرى صاحب الإنتاج الغزير فى الأدب والنقد والدراسات الأدبية .

من الأدب السورى المعاصر

عدنان مردم شاعراً

— ١ —

عرفت عدنان مردم منذ سنين طوال، من دواوينه الثلاثة التى صدرت له : نجوى (١٩٥٦ ـ دار المعارف بالقاهرة) ـ صفحة ذكرى (١٩٦١ — عن الدار نفسها) ـ عبير من دمشق (١٩٧٠ ـ بيروت ـ عويدات) .

وقرأت له مسرحياته الشعرية بعد ذلك : غادة أفاميا (١٩٦٧ ـ بيروت) العباسية (١٩٦٨) الملكة زنوبيا (١٩٦٩) الحلاج (١٩٧١) — رابعة العدوية (١٩٧٢) ـ مصرع غرناطة (١٩٧٣) ـ فلسطين الثائرة (١٩٧٤) ـ فاجعة مورلنغ (١٩٧٥) ـ ديوجين الحكيم (١٩٧٧) — وكلها من طبع بيروت .

وبين يدى ديوانه الأخير « نفحات شامية » الذى صدر فى بيروت عام ١٩٧٩ ، مضمخاً بعبير الحب للشام، ولمدينته العريقة دمشق ، ذات التاريخ الطويل الحافل .

وعدنان مردم من أسرة المردميين ذات الماضى العريق فى التاريخ والأدب واللغة والشعر وعلوم الدين . وبحسبنا والده خليل مردم بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق من قبل ، وصاحب الآثار الأدبية الخالدة المشهورة .

وعدنان مردم من طبقة جيل الرواد فى الأدب السورى الحديث من

أمثال : أبو ريشة وأمجد الطرابلسى ، وأنور العطار ، وزكى المحاسنى . وسواهم . وهو شوقى النزعة ، ينتمى إلى مدرسة البعث الجديد ، ويشبه عزيز أباظة فى الشعر المصرى المعاصر ، وفى اتجاهاته الفنية والأدبية . . وموسيقاه الحلوة ، وخياله التصويرى البديع ، شاهدان له على رفعة محله فى الشعر ، وتميزه فيه .

وسأكتفى فى هذه الكلمة بالحديث عن ديوانه الأخير « نفحات شامية » الذى يمثل الكلاسيكية الجديدة خير تمثيل بكل خصائصها وسماتها الفنية والفكرية .

— ٢ —

« نفحات شامية » يمثل شاعرنا الكبير عدنان مردم خير تمثيل فهو يحمل روحه الوطنية المتأججة ، ويحمل طابعه الشعرى البديع الجديد ، ويحمل موهبته التصويرية الرفيعة الأصيلة ، ويحمل منهجه فى نظم القصيد وموسيقاه ، ويحمل قبل كل شىء فكره وثقافته وطابع فهمه للحياة .

وأبواب الديوان الكبرى هى : الوصف والطبيعة — صور فنية — المعذبون فى الأرض — شىء من القلب — تأملات — صور من التاريخ .

١ — فللوصف والطبيعة تسع قصائد جميلة مؤثرة : دمشق التاريخ — الليل فى دمشق القديمة — سوق الحميدية — برك الماء فى بيوت دمشق — قاسيون فى الثلج — وصف ليالى الحسوم — النارجيلة — القرية فى الليل — وصف الجفاف والمحل .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد لنتعرف إليها وإلى الشاعر ، ولتكن قصيدته « الليل فى دمشق القديمة » بأبياتها الثلاثين ، وبموسيقاها الحلوة

التي ترجع إلى بحر الخفيف ، وبقافيتها الدالية الممدودة ، وبخصائصها الفنية المتميزة .

القصيدة تدل على ملكة الشاعر الرفيعة في التصوير والوصف والخيال ، ويكاد الشاعر يمثل لنا الليل في رهبته وسطوته في دمشق القديمة أدق تمثيل . ودمشق القديمة قد تختلف عن الجديدة في هبوط الليل عليها ، فلا شك أن لقدمها وأطلالها وحاراتها وشوارعها الضيقة ، ولأهلها المكافحين أثراً متميزاً بالليل ، ومن منا لا يقف مذهولا أمام روعة الليل في حي الحسين بالقاهرة ، وهو الحي القاهري الفاطمي القديم ، الذي يأخذ بالليل زينته وجماله وبهاءه ، كأنه عروس تتزين في ليلة زفاف ، مما لا نجد شبيهة في ليل القاهرة الجديدة ، من أحياء الزمالك أو جاردن سيتي ، أو مصر الجديدة أو مدينة المهندسين ، مثلا .

والشاعر يبدأ قصيدته بوصف الظلام ، الذي يلقيه الليل على الكون رهيباً ذا سورة وسلطان :

عصف الليل في الفضاء البعيد	بغواش مـلء البسيطة سـود
وترامى في شاسع كعباب	تترامى أطباقه عن وعيد
وتقام الظلام في كل أفق	يتراءى كبيرق معقود
نشر الرعب في النفوس فجاشت	خوف رعب أضالع كبنود

وهو هنا يمثل رهبة الليل وسطوته ، وحلوله على الكون ، وكأنه البحر اللجي تثور أمواجه بوعيدها وتهديدها . وسواد الظلام يبدو في كل أفق ظاهراً مرفوعاً ، وكأنه العلم المرفوع والراية المعقودة .

ثم يعود الشاعر إلى دمشق التي لا تهرم أبداً ، ولا تعرف فى الليل الرهيب غير الوداعة والسكون والمهادنة :

واستكانت دمشق تحت جناح ... للظلام على الورى ممدود
نعمت دونه دمشق بفيء ... من ظلال ، واستسلمت للهجود
من رآها فى غمرة حين ألقت ... بذراع على التراب ، وجيد
خالها الورد أطبقت بجفون ... لمنام على سراب الوعود

إلى أن يقول :

وتراءت دمشق خلف نقاب ... من جلال لغابر من جدود
وجثت كالقضاء ما ثم ريب ... وهى ترنو بمقلة لبعيد

فدمشق تستسلم للسكون فى الليل ، وتنام ملء جفونها ، كأنها الغادة الهيفاء ، تستسلم للنوم فى سراب الوعود .

وكنت أظن أن الليل فى دمشق القديمة يبعث فيها الحياة والحركة والنشاط ، كما نرى فى حى الحسين ، أو حى السيدة زينب مثلا فى القاهرة ، ولكن الأمر هنا بالعكس كما يصوره الشاعر الكبير .

ويستمر الشاعر فى وصف الليل فى دمشق القديمة ، فيصفه بالطرافة ، ويصفها بالصمت المطبق ، حيث يقول :

تجد الليل فى دمشق طريفاً ... يبهر العين بالطريف الجديد
ويطول الصمت العميق ويحلو ... بالأمانى من طارف وتليد
تجد الصمت ضارباً بجران ... دون ليل أطباقه من حديد

ثم يعود إلى دمشق وتاريخها التليد الحافل وكفاح أبنائها على طول العصور فيقول فيما يقول :

ودمشق التاريخ همس نشيد عبقرى على شفاه الخلود
ذكريات من عهد شمس أراها بظنونى وخاطرى ونشيدى
سطعت كاليقين فهى ضياء لنفوس حيرى وطرف جحود
وأراها تلذ فى كل سمع كلحون علوية الترديد
يا بلادى وما ترابك عندى برخيص ولم يكن بزهيد
طاب عندى (كالبيت) طهراً وطا بت ذكريات عزيزة من جدود

وهنا ننوه بأمرين : موسيقى الشاعر الرائعة ، وملكته التصويرية الرفيعة ، ثم بطبعه الشعرى الجميل وموهبته الأصيلة فى نظم القصيد ، ونجد هنا قاموس الشاعر اللغوى ، هذا القاموس الذى ينم عن اعتداد بالتراث ورجوع إليه ، واعتزاز به ، وعن ثقافته اللغوية الواسعة ، وأشير هنا إلى أن المقطع الأخير فى هذه القصيدة ، قد صدر به الشاعر ديوانه ، تحية لدمشق ولتاريخها الطويل العريق . وقصائد هذا الباب كله تعود إلى بحر الكامل ، والخفيف والرمل والمتقارب . .

٢ — وباب الصور الفنية يشتمل على ست قصائد هى :

راقصة آه يازين — المتحلقون حول النار — ثور السانية أو الساقية — وصف هرة مدرب الحمام — شارب النارجيلة .

ولنخص بالحديث هنا قصيدته « شارب النارجيلة » التى تعود إلى بحر الوافر ، والتى يصف فيها سحب الدخان ، التى تخرج من فم شارب النارجيلة ، ويصف ما يعتريه من آلام وعذاب وأدواء . ثم يصف طرحها فى ركن من الدار ، ويصف رقة زجاجها وصفاءها وعزتها عند صاحبها ، ويصف القوم الذين يجلسون إليها للشرب .

يقول فى مطلع هذه القصيدة :

أطال يعب من سؤر الندامى لظى ويمجها سمما زؤاما

ثم يقول :

أعذبا عب شاربها وشهدا أم الأسقام يكرعها لماما
أطال عذابه بيديه لما عن الأصباح من عنت تعامى

ويقول فيها :

ثوب (نرجيلة) فى عقر ركن وقرت كالذى سكن المظاما
مطارفها الزجاج صفت وراقت كما صفت المدامع من يتامى
تكاد لرقة ولفرط صقل تسيل كقرب سارية ترامى

يريد كماء سحابة ممطرة بهطل :

وما ينفك شاربها حفيا كأن بها يرى بدراً تماما

إلى آخر هذا الوصف العميق الجميل ، ثم يسترسل إلى شاربيها فيقول فى وصفهم :

ترى سمارها زقوا وراحوا بحلبتها على ضغن كراما
يطيلون الحديث بلا عتاب ويخفون العداوة والخصاما
رضوا بالدون من عمر ذليل وعاشوا دهرهم ابدا نياما

وإذا عدنا إلى قصيدته « النارجيلة » فى باب الوصف والطبيعة ، والتى تعود إلى مجزوء بحر الكامل ، والتى مطلعها :

تاج لها فوق الجبين يذكر على كو السنين ، ويقول فيها :

ضمت من البلور ثوبا ... سال من هيف ولين
شفت طرائق نسجه ... كأشعة الفلق المبين
بلورها من رقة ... همس الوساوس والظنون
والماء فى أحضانها ... صخب ، وطورا مستكين
يتلو أقاصيص الهوى ... ويقصها للسامعين
تلقاه يصهب تارة ... وتراه يوجز من شجون
هو واللظى متجاوران ... معا على كر السنين
ضمتهما « نرجيلة » ... ضم المتيم باليمين
خرطومها عبق الشذا ... للطامعين الحالمين

ثم يتحدث عن شاربيها حديثا عذبا رقيقا رفافا . وقد استوقف نظرى البيت :

أنفاسها حكت الشالفة ... رقة للظامئين

وأظن فيه خطأ مطبعيا ، لعله :

أنفاسها حكت السلافة ... رقة للظامئين

تجد هذه القصيدة أكثر عذوبة ، وأروع تصويرا ، وأحلى موسيقى ، وإن كانت مضامين القصيدتين واحدة . .

وقصائد الباب الثانى تعود إلى بحر الكامل والمتقارب والوافر ، ويشبه الباب الثانى الباب الأول فى — الاعتزاز بالقاموس اللغوى — ويشترك معه فى الطبع الشعرى الأصيل ، وفى قوة ملكة الوصف والتصوير ، حتى لنكاد تحسبنا أمام ابن المعتز الشاعر الخليفة العباسى (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) من جديد .

٣ — والمعذبون في الأرض عشر قصائد هي :

بائع الصحف — الجزار — موزع البريد — الخباز — الفلاح — الحداد — الراعي — ضاربة الودع — مسحر رمضان — بائع العصير .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد ، ولتكن « الفلاح » ، لنتعرف عليها وعلى الشاعر من خلالها ، ولنرى كيف نظر شاعرنا الكبير إلى هذا الرجل المسكين المعذب في الأرض ، الذي عني بوصفه ، عنايته بوصف أشباهه من المعذبين في الأرض في هذا الديوان ، وفي ديوانه الآخر ، عبير من دمشق .

يقول الشاعر في مطلع هذه القصيدة التي نظمها من بحر الرمل :

صامت والحقل همس ونداء   واجم والصبح نفح وعطاء

ثم يصف إملاقه وكدحه وسقمه وكفاحه ، كما يصف بكوره وشقاءه بمحراثه وبالأرض التي يزرعها فيقول فيما يقول :

هب يسعى ضاربا في شاسع   بيمين هي والصخر سواء

أيقظ المحراث من غفوته   فانبرى المحراث يحدوه الرجاء

نخب الأرض ، ولم تأل يد   تنخب الأرض له كيف يشاء

صدره في صدرها لا يأتلي   عالقا ما كر صبح أو مساء

كمحبين التقى ثغراهما   بعد أن برح بعد وجفاء

ثم يصف الشاعر صبر الفلاح وهمته وعفته وأسماله البالبات يقول :

تجد الفلاح لم تغرب له   همة ما أشرقت يوما ذكاء

لبس الصبر على المر ولم   يعيه في العيش مر أو بلاء

هو كالطير على السعي هوى   كلما يخفق للفجر لواء

ما على الفلاح لو رثت له   شملة ، والعرض في الطهر سماء

هذه القصيدة الرائعة التصويرية لاحد لجمالها ولا لبلاغتها ولا لروعتها ، وفى آخرها يقول الشاعر :

يـــده العجفاء سالت فى الربى   رحمة ، فالنفح منها والعطاء
سقت الأرض دماً من جرحها   بسخاء لا يدانيه سخاء
ونضت أحلامهـــا الغـــر التى   فاح منها الطيب وانهل الضياء

وقصائد هذا الباب ترجع إلى بحر الخفيف والكامل والرمل وموسيقاها حلوة ، وتتميز هى والقوافى بالرنين الجهورى الصدى ، لا الهامس اللحن .

٤ — وباب « شىء من القلب » يحتوى على ست قصائد هى : الشباب على الطريق — دون الوصف — المغنى المقفر — قصص الذكـــرى — الذكريات الأليمة .

ولنأخذ من هذا الباب قصيدته « الشباب » لنرى ماتحتوى عليـه من قيم فنية أو فكرية ولتكون مادة لفهم الشاعر كذلك . . فمـــاذا فيها ؟ وما هو المعنى الخفى بين حواشيها ؟ يقول الشاعر فى مطلع قصيدته هـــذه ، التى نظمها من بحر الخفيف :

زيف حلم ، وعالـــم مسحور   ملؤه التيــه والرؤى والغرور
تجـــد الصعب دونه غـــير صعب   وسواء لديـــه ليـــل ونـــور
ولياليـــه فتنــــة وعطـــور   وصحاريه جـــدول مسجور

ثم يستمر فى وصف الشباب فيقول :

الشباب الفينـــان فيض نعـــيم   فاح منه الشذى ، ورف العبير
يتراءى فى أعين الغـــير حلـــا   سرمديـــا ، لا ينتهى ويغور

ثم يقول في كفاح الشباب وجلاده للأيام وسعيه في الأرض . . .

والشباب الفينان جذوة نور	وانطلاق إلى العلا ومسير
جعل الأرض حلبة لصراع	مستمر يصول فيها المغير
وأتى النجم غازياً حين ضاقت	سبل الأرض دونه والبحور
وتحدى الأقدار طيشا وجهلا	وهو ذر في الكائنات صغير

ويتحدث عن قصر أيام الشباب ومعجزاته كذلك فيقول :

ما الشباب الفينان غير شهاب	يتراءى لفترة ويغور
تتحلى به الحياة ويحلو	شظف العيش والشقاء المرير
كيف أوفى الشباب حقا ومدحا	وهو دنيا وعالم مسحور

والقصيدة تصويرية جميلة ، وفيها نغمة الحزن على أيام الشباب ، وفيها كذلك صور من كفاح الشباب ومعجزاته وعبقريته ، ولكنها لا تخلو من العنصر الذاتى المثير . . والشاعر قلما يتحدث عن نفسه فى شعره إلا عرضا ورمزاً .

وقصائد هذا الباب من الخفيف والوافر والكامل والرمل . ومن قصائده الجميلة الرائعة العميقة قصيدته (قصص الذكرى) التى يذكر فيها ماضى وصال مشرق بالحب والحنين واللوعة وهى قصيدة عالية الطبقة فى الشاعرية . ويقول فيها الشاعر :

قدحت ذكراك فى النفس لظاها	وأعادت لوعة طال شجاها
جئت مغناك ضحى أسأله	عن ليال وأد البين صباها
نشرت ذكراك أياما لنا	غالها ريب العوادى وطواها
ليس فى الذكرى التى نشتاقها	مايسلى النفس أو يشفى صداها

٥ — وفى التأملات ست قصائد كذلك : الشمس — السمكة السجينة فى قفصها البلورى — عالم القمر ـ وصف ليالى رمضان ـ أيتها الأرض ـ النبع المنقطع وتعود هذه القصائد إلى بحر الكامل والرمل . . . وهى قصائد رفافة دقيقة التصوير .

٦ — والباب الأخير فى الديوان هو «صور من التاريخ» ، ويحتوى على ثمان قصائد هى :

واقعة عين جالوت ـ جلنار ـ وهى زوجة الملك قطز التى حاربت معه المغول فى عين جالوت وقتلت دونه لترد بنفسها عنه سهم أحد المغوليين فقضت شهيدة فى ساحة الحرب ـ الحرب فى الجولان ـ الدمار فى القنيطرة ـ ابن زيدون ـ محنة بيروت ـ بيروت بعد عام من الفتنة ـ سقوط تل الزعتر .

والقصائد من بحر الخفيف والوافر والكامل والبسيط الذى نظم منه قصيدة واحدة فى الديوان هى قصيدة الحرب فى الجولان .

وهذه القصائد يمتزج فيها وهج الفن بعبق الذكريات التاريخية الخالدة ، ولا نستطيع الحديث عنها لطول الدراسة ، ورغبة فى الإيجاز ..

— ٣ —

وبعد ، فماذا أقول عن شاعر بردى الكبير ، عدنان مردم ، وهذا النغم الشجى ، الذى يعيش مع الألهام فى ذرى الشام وذكرياته العبقات ، والذى يحول كل شىء فى الحياة إلى نغم جميل ساحر ، والذى أمسك بعصا الشاعرية ، فتحولت فى يده إلى معجزة من معجزات الفن ، قل أن نجد مثلها عند الكثير من الشعراء ... إن ديوانه « نفحات شامية » جدير بالاعتزاز .

فهرست الجزء الرابع

الصفحة	الموضـــوع
٥ و٧ — ٢٢٦	النثر الأدبي
١٦	روافد لنهضة النثر الفني
٢٢	الأزهر الخالد
٤١	أثر الأزهر في الحركة الأدبية
٤٦	أثره في حركة الشعر العربي
٥١	محمد عبده رائد النثر الحديث
٦١	١ — فن المقالة
٧٣	أسلوب طه حسين
٧٨	« العقاد
٨١	« الرافعي
٨٧	« الزيات
٩٤	« د . زكي مبارك
١٠٠	٢ — فن المسرحية
١١٣	توفيق الحكيم
١٢٩	عبد الرحمن الشرقاوي
١٣٥	٣ — القصة
١٥٨	يوسف السباعي
١٦١	عبد الحميد جودة السحار
١٦٤	ثروت أباظة

الصفحة	الموضـــوع
١٩٤	٤ — النقد الأدبى
١٩٤	د . شوقى ضيف ناقداً
٢٠٤	د . محمد مندور
٢١٣	د . محمد السعدى فرهود
٢١٦	مصطفى السحرتى
٢١٧	د . عبد العزيز شرف
٢١٨	د . خفاجى
٢١٩	٥ — أدب الطفل
٢١٩	كامل كيلانى
٢٢٧	الأدب فى الوطن العربى
٢٢٩	الأدب فى الجزائر
٢٣١	محمد البشير الإبراهيمى
٢٤٨	الأدب التونسى الحديث
٢٥٤	محمد مزالى
٢٥٦	البشير بن سلامة
٢٥٩	محمد العروسى المطوى
٢٦٠	المسعدى
٢٦١	أبو القاسم كرو
٢٦٢	رشيد الذوادى
٢٦٥	نور الدين صمود
٢٦٨	محمد الطاهر بن عاشور
٢٨٣	الشعر الفلسطينى
٢٩٠	« السورى
٢٩١	عدنان مردم شاعراً

انتهى الكتاب بحمد الله